

كتاب شهري محكم يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
يتناول نشر الدراسات والأبحاث التي
تخدم الإسلام في كافة المجالات

بلاد التتار والبلغار

محمد بن ناصر العبودي

السنة الثامنة عشرة
العدد ١٨٨ عام ١٤٢٠هـ



مقدمة

بسم الله ، والحمدلله، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه اجمعين.

أما بعد :

فإن هذه رحلة إلى جمهورية تتارستان التي تعد الآن من الجمهوريات العديدة داخل جمهورية روسيا الاتحادية، وبعضهم يقول: إنها جزء من الاتحاد الروسي مع أن أهلها الأصلاء، ليسوا من الروس، وإنماهم من التتار الذين أطلق عليهم هذا الاسم أو هذا المصطلح لكونهم من بقايا دولة الشمال الإسلامية التي أنشأها في أول الأمر الملك المسلم العظيم بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان وهوالذي كسر شوكة ابن عمه المجرم السفاح (هولاكو) الذي خرب بغداد ونشر في الأرض الفساد، وكان بركة خان أول من أسلم من ملوك التتار أو المغول الذين حكموا الأصقاع الشمالية الباردة، ثم استمرت تلك الدولة المسلمة العظيمة في الفتح والاتساع حتى شملت جزءاً كبيرا من بلاد الصقالبة (السلاف) في بولندا وبلاد البلطيق وروسيا البيضاء ووسط ايتل (الفولقا) فضلاً عن اجزاء مما يعرف الآن بأنه من بلاد الروس الأصيلة.

وذلك بعد أن تطورت منها دولة (ألتون أردو) أي القبيلة الذهبية وقد اطلق الناس في الشمال - وبخاصة الروس - على

المواطنين المسلمين في تلك الدولة لقب (التتار) معتبرين أنهم كانوا من رعايا الدولة التي أقامها التتار في الأصل مع أنهم ليسوا من التتار لا من ناحية الأصل ولا الشكل ولا اللغة ولا الدين الذي يعتنقه التتار غير المسلمين.

وقد اتضح لي ذلك جلياً عندما زرت بلاد التتار الأصلاء الذين هم المغول أو قبيلة من المغول كما عرفهم بذلك علماؤنا الأوائل وقال بعضهم إنهم بادية المغول فرأيت أن لهم مظاهر خاصة بهم بعيدة كل البعد عما في مظاهر هؤلاء الاخوة المسلمين الذين يسمون الآن بالتتار، ويعيشون في شمال الأرض وتكلمت على ذلك في كتابين أحدهما خصصته للمغول بعنوان: «**في مهد المغول**»، وتضمن الكلام على ماكان يسمى بمنغوليا الداخلية التي هي معتبرة الآن مقاطعة من مقاطعات الصين الشعبية، والثاني ذكرت فيه قصة سفري الى ماكانت تسمى منغوليا الخارجية وهي الآن تعرف بجمهورية منغوليا وعاصمتها (أولان باتور) وذلك بعنوان: «**في شمال شرق آسيا**».

وسوف يأتى الكلام على التتار الذين يعرفون الآن بهذا الاسم وتضم اكثرهم جمهورية تتارستان الداخلة في الاتحاد الروسي ويعني الاسم بلاد التتار لأن (استان) بالفارسية معناها: بلاد أو أرض مثل ماعليه هذا اللفظ في باكستان وأفغانستان.

وأما (البلغار) فإن أمرهم أهم من الناحية التاريخية لكونهم أعرق في هذه المنطقة من (تتار المغول) فقد اعتنقوا الإسلام في

وقت مبكر بالنسبة الى غيرهم من الأقوام التي تسكن فيها فكان ذلك قبل نحو الف سنة عندما أسلم ملكهم وأرسل الى الخليفة في بغداد يطلب منه إرسال من يفقهونهم في الدين ويتشاورون معهم في بعض الأمور المتعلقة بهم، لأنهم دخلوا في الإسلام طواعية من غير حرب، فأستجاب الخليفة وأرسل إليهم الوفد المطلوب، فكان من أعضائه الكاتب أحمد بن فضلان الذي سجل ماحصل للوفد كما سجل معلومات عن أهل البلدان الشمالية ومنهم الروس عندما كانوا وثنيين، أي قبل أن يعتنقوا المسيحية، كما ذكر أشياء مهمة عن اهل اسكندنافيا- خاصة من الفايكنج، وقد انقرض اسم البلغار لانهم دخلوا في التتار الذين صارت عاصمة بلادهم (قازان) وذلك قبل أن يكتسبوا هذا الاسم غير الدقيق (التتار)، وسوف نتوسع أيضاً في ذكر هؤلاء البلغار – إن شا الله – في ضوء رحلتنا هذه.

إن رحلتنا الى (تتارستان) كانت جزءاً من رحلة رسمناها للسفر الى بلاد البلطيق وروسيا البيضاء وتتارستان، وقد زرنا حتى الآن أقطار البلطيق الثلاثة: لتوانيا ولاتفيا و استونيا وكتبت عنها كتاباً بعنوان: «**في بلاد البلطيق**» كمازرت روسيا البيضاء ومدينة موسكو عاصمة جمهورية روسيا الاتحادية وكتبت عنهما أيضاً كتاباً بعنوان: «**من روسيا البيضاء الى روسيا الحمراء**».

وبقي هذا القسم من الرحلة الذي يتضمن الحديث عن بلاد التتار والبلغار، ولم يكن من عادتي الإكثار من النقل في كتبي في الرحلات ولكنني آثرت أن أنقل هنا بعض النصوص التي توضح

تاريخ هذه الأمة المسلمة التي نزور بلادها، للمعرفة بذلك ولكي ترى ناشئة المسلمين أن أسلافهم كانوا يعرفون عن الأمم البعيدة- وبخاصة من الاخوة المسلمين، وبرغم الأوقات التي كانت فيها وسائل الاتصال قليلة شاقة - أكثر مما عرفه الاخلاف عنها في هذا الوقت الذي تيسر فيه الحصول على المعلومات، وتيسر فيه السفر الى البلدان البعيدة.

هذا الى جانب ما أخذت به نفسى من كتابة المذكرات اليومية التي تتضمن المشاهدات والتعليق على الملاحظات في البلدان التي ازورها، وذلك منذ أن بدأت السفر والترحال قبل ثلاثين عاما الى أقطار القارة الافريقية وكتبت في ذلك الكتاب الأول في الرحلات: « **في إفريقية الخضراء** »، وقد زادت الكتب التي ألفتها عن مائة كتاب حتى الآن، وبذلك أصبحتُ - فيما أعلم - أكثر من كتب بالعربية كتبا في الرحلات، وها هو الكتاب الثاني عشر بعد المائة، وهذا أمر قل أن يتيسر لشخص بمفرده ولاشك أن الفضل الأكبر في ذلك هو لله تعالى فهو المحمود على ذلك وبعده يأتي فضل المسؤولين في بلادي وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله - الذين منحوني الثقة والتأييد لكي اتمكن من القيام بذلك في كل أنحاء العالم، وبعدهم يأتي فضل الإخوة القراء الكرام الذين أقبلوا على قراءة هذه الكتب ومطالبتي بالمزيد منها.

لقد أسميت هذا الكتاب « **بلاد التتار والبلغار** » وهو اسم

يتماشى مع الواقع في التسمية وإن لم تكن صحيحة، ذلك بأن هذه المنطقة التى تتجه إليها رحلتنا وهي التى عاصمتها (قازان) تسمى الآن (جمهورية التتار) مع أن التتار من المغول لم يسكنوا فيها، وإنما اهلها هم البلغار الذين قرأنا سيرهم في كتبنا وسيأتي بيان حالهم، ولذلك عطفت على لفظ التتار لفظ البلغار فهذا هو الصحيح في أهل هذه البلاد، وهو ما أكده لي جميع من قابلته من زعمائهم وعلمائهم ونابهيهم إضافة الى أننى زرت مدينة (بلغار) التاريخية التى تبعد ٢٤٠ كيلومترا من مدينة قازان جهة الجنوب، وهي مدينة كانت قد اندثرت وبارت ولم تبق منها إلا آثار معدودة وقد نشأت بجانبها بلدة حديثة سميت على اسمها (بلغار)، وعلى هذا يكون عنوان الكتاب صحيحاً حتى بالنسبة الى اطلاق تسمية التتار على هؤلاء الإخوة المسلمين البلغاريين الذين يقطنون في جمهورية تتارستان في الوقت الحاضر.

أما لو سرت في العنوان على ما ينبغى ان تكون عليه التسمية الصحيحة لهم المستقاة من تاريخهم الذي وردفي كتبنا العربية القديمة فاننى سوف أسمي المنطقة كلها (**بلاد البلغار**). غير أن ذلك قد يشتبه على أبنائنا الذين قلدوا الافرنج في كثير من التسميات حتى صاروا لقلة اطلاعهم على كتب الأسلاف الثمينة لا يعرفون من البلغار إلا هؤلاء الذين صارت لهم دولة مسماة باسمهم هي: (**جمهورية بلغاريا**) الواقعة في منطقة البلقان وقد كتبت عنها كتاباً تحت عنوان: (**كنت في بلغاريا**) طبع قبل فترة، وهم (بلغار) بلا شك، ولكنهم

غيـر البلغـار المسلمين الذين صـار الروس يطلقـون عليـهـم اسم التـتـار وتبعهـم العالم على ذلك ومواطنهـم حول نهر ايتل (الفولقا) .

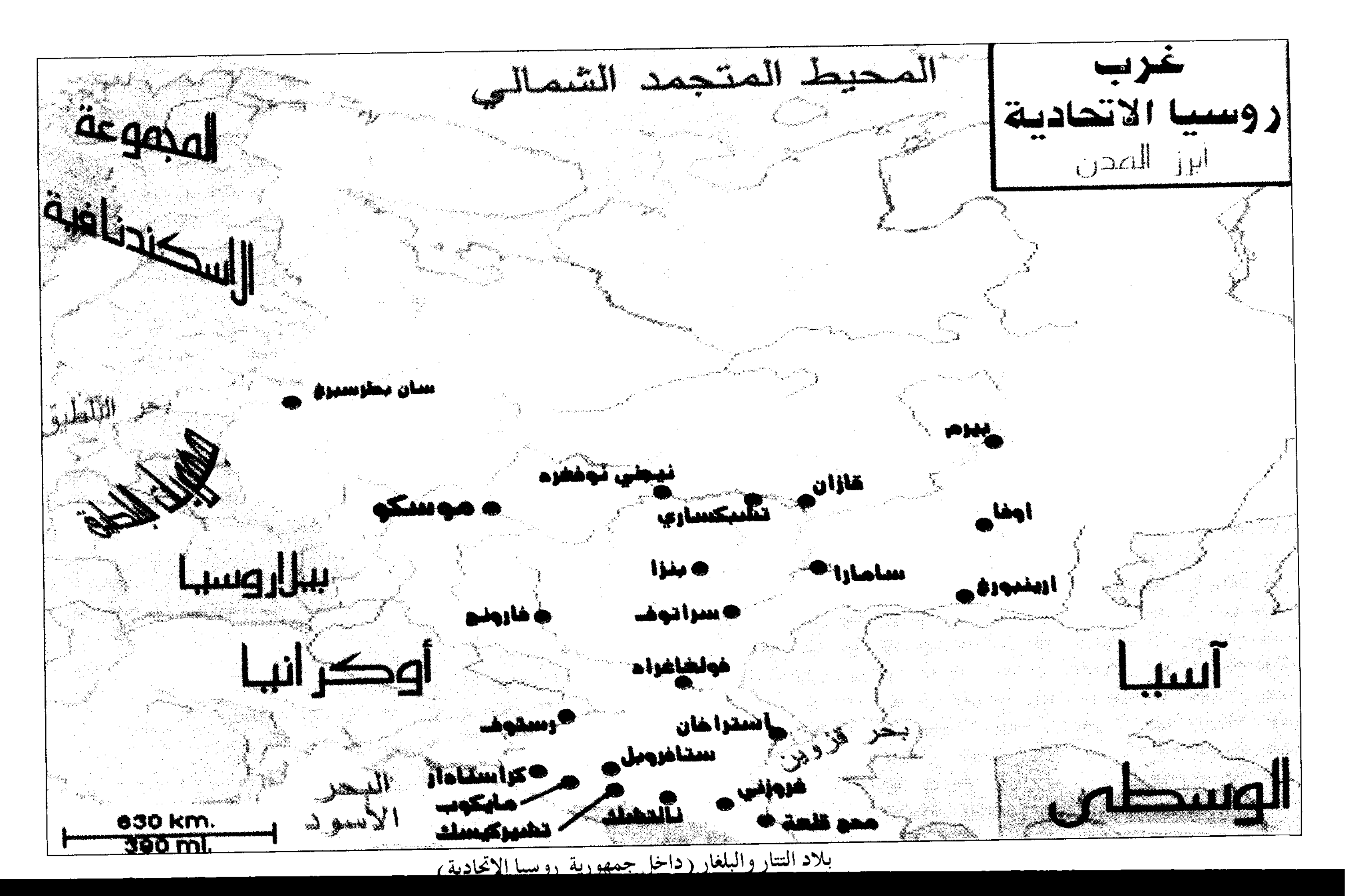
كـمـا أن هناك قـومـا آخـرين يـسـمـون (البلكار) تقع بلادهم غير الواسـعـة في الوقت الحـاضـر في منطقـة جـبـال قـبق (القـوقـاز) وهـم مسلمـون يـشـتـركـون مع اخـوة لهـم في الدين الإسلامي من الشـركس يسمون (قبرداي) في جمهورية صغيرة اسمها (قبرداي بلكار) وقد زرتهـم في بلادهـم وكـتـبـت عنهـم فـصـلاً في كـتـابي :« **من بلاد الفرتشاي الى بلاد القبرداي**» . .

وعلى أية حال فإن المقصود من كتابة هذا الكتاب - مثل غيره من كـتـبي السـابقـة في الرحـلات - هو تعـريف أهل البلدان العـربيـة بإخـوانهم في الدين في مـواطنهم البعيـدة مع الكلام على أمـور أخرى عامة من أمور هذه البلاد ؛ والله الموفق للسداد .

مكة المكرمة　　　　　　المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

جمهورية تتارستان



بلاد التتار والبلغار (داخل جمهورية روسيا الاتحادية)

تقع جمهورية تتارستان في وسط حوض الفولقا في شرق روسيا الأوربية وتبلغ مساحتها ٦٨٠٠٠٠ كم[٢] ، ويتميز سطحها بالسهول وتجري فيها بعض روافد نهر الفولقا مثل نهرى قاما وقازان.

وبلغ سكانها ٣٦٤١٧٤٢ نسمة بموجب احصاء عام ١٩٨٩م ويتكونون من العناصر الآتية:

التتار ٤٨٫٥٪

الروس ٤٣٪

الجوفاش ٣٫٧٪

الاوكرانيون ١٪

ويوجد اكثر التتار في خارج جمهوريتهم إذ يبلغ عددهم ٤٠٩٨٠٤٣ نسمة، أما في تتارستان نفسها فعددهم: ١٫٧٦٥٫٤٠٤ نسمة، والديانة السائدة هي الإسلام ثم الارثوذكسية.

ويقوم اقتصاد تتارستان على استخراج النفط والغاز الطبيعي وصناعة البتروكيماويات وصناعة الطائرات العمودية والشاحنات، ويعتبر القمح من اهم محاصيلها الزراعية ويليه البنجر وبذر دوار الشمس وتتمثل الثروةالحيوانية في الاغنام والمواشى.

ومن الناحية التاريخية تأسست دولة التون اورده – عقب الغزو المغولى عام ١٢٣٦– والتى استمرت الى عام ١٥٠٢م، ثم ظهرت

خانية قازان عام ١٤٣٧، ولكنها لم تدم طويلاً اذ تعرضت لغزو القيصر الروسي ايفان الرهيب عام ١٥٥٢م.

ومع ظهور النظام الشيوعي السوفيتي تشكلت تتارستان جمهورية سوفيتية ذاتية الحكم في ٢٧ مايو ١٩٢٠م؛ وعلى اثر انهيار الحكم الشيوعي وانفراط عقد الاتحاد السوفيتي اعلنت تتارستان جمهورية ذات سيادة وانها عضو في جمهورية روسيا الفيدرالية في ٣٠ اغسطس ١٩٩٠م وتم الاقتراع على ذلك شعبياً في ٢١ مارس ١٩٩٢م، ورئيس الجمهورية حالياً هو مينتمير شاميف shai- Mintimer mieyv وهومن اسرة مسلمة عريقة.

التتار:

كان اول نصر للإسلام والمسلمين في هذه الأصقاع الشمالية الباردة النائية عن البلدان العربية وأهلها أن أسلم الملك العظيم،الخاقان الكبير (بركة خان بن جوجي خان بن جنكيز خان) فهو حفيد جنكيز خان الذي يدل اسمه على معنى (ملك العالم) فجنكيز معناها بلغة المغول (عالم) وخان (هوالملك الكبير). وهو ابن عم هولاكو السفاح البربري الذي استباح مدينة بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم، كما كان قد قتل قبل ذلك عشرات الألوف من المسلمين، وخرب دياراً كيثرة.

وقد سلط الله عليه هذا الملك المسلم ابن عمه بركة خان فكسره في ميدان القتال، وَخَضَدَ شوكته، وأذاقه الذل والهوان حتى عاش

بعد ذلك ذليلاً مهاناً مصابا بأمراض خطيرة مات منها مذموماً مدحوراً.

وأما إسلام (بركة خان) فإنه كان فتحا للإسلام والمسلمين في بلاد الشمال مما جعل المؤرخين من اسلافنا العرب والمسلمين ينوهون بذلك ويكثرون منه، وقد نقل ما قالوه وقاله غيرهم - على قلة ما نقل عن غيرهم - الشيخ محمود الرمزي في كتابه الجامع (**تلفيق الأخبار، في وقائع قازان وبلغار، وملوك التتار**) الذي سياتي التعريف به؛ لذلك رأيت تلخيص ماذكره عن إسلام (بركة خان) - رحمه الله، - وقهره لعدو الله هولاكو قبحه الله.

قال الشيخ الرمزي: «ابو المعالى ناصر الدين حضرة السلطان بركة خان بن جوجى بن جنكيز خان عليه الرحمة والغفران ولما مات صرتاق جلس على سرير السلطنة مكانه عمه حضرة الملك بركة خان ابن جوجى خان عليه الرحمة وكان ذلك سنة ٦٥٢ هـ على ماذكره النويرى وابن خلدون والمقريزى والعينى، واختلف المؤرخون فيه بانه ابن باتو أو ابن جوجى كما ذكر ابن خلدون هذا الاختلاف في تاريخه ولكن الصحيح والصواب انه ابن جوجى واخو باتو وقد أسلم بركة خان هذا وحسن إسلامه وجعله الله سبحانه سببا لبقاء رمق الإسلام وانتعاشه بعدان شارف على الانعدام كما سنذكره - ان شاء الله تعالى - واتفق المؤرخون على انه اول من أسلم من أولاد جنكيز خان على الاطلاق ولكنهم اختلفوا في زمان إسلامه انه كان في ايام سلطنة اخيه باتو او بعد وفاته.

وقال المقريزى والنويرى: وأسلم بركة هذا وحسن إسلامه وأقام منار الدين واشهر شعائر الإسلام وأكرم الفقهاء وادناهم منه وقربهم لديه ووصلهم وابتنى المساجد والمدارس بنواحى مملكته وأسلمت زوجته ججك خاتون واتخذت لها مسجدا من الخيم تسافر به.

وزاد النويرى: وهو أول من دخل في دين الإسلام من عقب جنكيز خان ولم ينقل الينا ان احدا منهم أسلم قبله ولما أسلم أسلم أكثر قومه.

وقال الذهبى: قال قطب الدين كان بركة يميل الى المسلمين وله عساكر عظيمة ومملكته تفوق مملكة هولاكو من بعض الوجوه وكان يعظم العلماء ويعتقد في الصالحين ولهم حرمة عنده وكان يميل الى صاحب مصر ويعظم رسله ويحترمهم وتوجه اليه طائفة من أهل الحجاز فوصلهم وبالغ في احترامهم وأسلم هو وأكثر جيشه وكانت المساجد التى من الخيم تحمل معه ولها أئمة ومؤذنون وتقام فيها الصلوات الخمس.

قال: وكان شجاعا جواداً عادلاً حسن السيرة يكره الإكثار من سفك الدماء والافراط في خراب البلاد وعنده حلم ورأفة وصلاح.

وصنف الشيخ نجم الدين ابو الرجا مختار بن محمود الزاهدى صاحب القنية رسالة في الاعتقاد سماها الرسالة الناصرية نسبة الى ناصر الدين بركة خان واهداها اليه ذكر ذلك ابو الفدا والجنابى وغيرهما قال في كشف الظنون الفها لبركة الجنكيزى ورتبها على ثلاثة ابواب: **الاول** في الدلالة على حقيقة رسالته ﷺ **والثاني** في

ذكر المخالفين لنبوته والجواب عن شبهتهم **والثالث** في المناظرة بين المسلمين والنصارى واتمها في جمادى الآخرة سنة ٦٥٨هـ . ا هـ

قال المؤرخ الروسي كارامزين : التتار لما قبلوا الإسلام اقبلوا اليه بالكلية ولاسيما بركة خان فانه اعلن نفسه بانه حامى القرآن والشريعة والدين وخادمها فاسلم قوم التتار كلهم تبعا لسلطانهم وقد قتلوا واحدا من الروس غيرة لدين الإسلام في عهد منكو تيمر خان لتكلمه في حق الإسلام بمالا يليق وملأوا جلده بالتبن اهـ .

ثم إن بركة خان لما أسلم ودخل معه اكثر قومه في الإسلام صار يجلب العلماء والفضلاء من اطراف العالم وكاتب الخليفة المستعصم بالله مرات عديدة وبايعه وهاداه ، واتم بناء بلدة سراى وقد تقدم ان اخاه باتوقد ابتدأ ببنائها فصارت من أعظم البلدان وأحسن المدن وأنزهها .

مدينة سراى

قال ابن عرب شاه [١] في عجائب المقدور في وصف مدينة سراى هذه : وتخت الدشت سراى وهى مدينة إسلامية البنيان بديعة الأركان وكان السلطان بركة - رحمه الله - لما أسلم قد بناها واتخذها داراً للملك واصطفاها وكانت من أعظم المدن وضعا وأكثرها للخلق جمعا ، حكى ان رجلا من اعيانها هرب له رقيق وسكن في مكان منحى عن الطريق وفتح له حانوتا يتسبب فيه

---

(١) وهو قد اقام بهامدة سنين عديدة وتزوج فيها وولد له هناك اولاد فهو يخبر عن علم ويقين ولا ينبئك مثل خبير . اهـ منه .

ويحصل قوتا واستمر على ذلك الحال نحواً من عشر سنين لم يصادفه فيه مولاه ولا اجتمع به و لا رآه وذلك لعظمتها وكثرة اممها وهي على شط متشعب من نهر اتل الذى اجمع السَّياحون والمؤرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن في الانهر الجارية والمياه العذبة النامية أكبر منه اهـ.

وقال أيضا: ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام، ورفع في اطراف الدشت للدين الحنيفى الأعلام، استدعى العلماء من الاطراف، والمشايخ من الآفاق والاكناف، ليوقفوا الناس على معالم دينهم، ويبصروهم على طريق توحيد هم ويقينهم، وبذل على ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله وشعائر الانبياء، وكان عنده في ذلك الزمان، وعند اوزبك خان بعده وجانى بك خان، مولانا قطب الدين العلامة الرازى، والشيخ سعد الدين التفتازانى، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازى، ومولانا احمد الخجندي، رحمهم الله تعالى، فصارت سراى بواسطة هؤلاء السادات، مجمع العلم ومعدن السعادات واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والادباء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلة، وخصلة نبيلة جميلة، في مدة قليلة، مالم يجتمع في سواها، ولافي جامع مصر ولا في قراها، اهـ.

وقال ابن فضل الله العمرى: وحدثنى الفاضل شجاع الدين

عبدالرحمن الخوارزمى الترجمان ان مدينة سراى بناها بركة خان على شط نهر اتل وهي ارض سبخة بغير سور ودارُ الملك بها قصر عظيم على عليائه هلال [1] ذهب زنته قنطاران بالمصرى، ويحيط بالقصر سور وابراج ومساكن لامرائه وبهذا القصر مشتاهم قال وهذا النهر يكون قدر النيل ثلاث مرات وأكبر وتجرى فيه السفن الكبار يسافر بها الى الروس والصقلب قال وهي يعنى السراى مدينة كبيرة ذات اسواق وحمامات ووجوه اهلها وجوه بر مقصودة بالاجلاب، وفي وسطها بركة ماؤها من هذا النهر يستعمل للاستعمال وأماشربهم فمن النهر يستقى لهم في جرار فخار وتصف على العجلات وتجر الى المدينة وتباع اهـ.

وقال ابن بطوطة ومدينة السراى من أحسن المدن متناهية في الكبر في بسيط من الأرض تغص باهلها كثرة حسنة الأسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطواف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا الى آخرها الابعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لاخراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة احدها للشافعية واما المساجد سوى ذلك

---

(١) فهذا صريح في ان اتخاذ الشكل الهلالي في علياء البيوت ورؤوس المنائر عادة باقية من قدماء التتار لا أنها مأخوذة من القياصرة كما زعم وقد قدمنا انها باقية من اغوزخان وهو كذلك وقد أخطأ خطأكبيرا، وجنى جناية عظيمة من تقول باخذها من العثامنة واخذهم من القياصرة جزافا بغير علم وتسبب بذلك لتعرض الروس بها ورب كلمة تقول لصاحبها دعني اهـ - المؤلف أي الشيخ الرمزي.

فكثيرة جدا وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص (اللزكى) وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها اسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على اموال التجار وقصر السلطان بها يسمى آلتون طاش اهـ.

ذكر وقوع الاختلاف بين السلطان بركة خان وابن عمه هولاكو

إعلم انه لما تسلطن بركة خان لم يلبث إلا قليلا حتى وقع الاختلاف بينه وبين ابن عمه هولاكو الظالم الكافر مخرب بغداد وقاتل الخليفة المستعصم بالله وجرت بينهما المقاتلة والمحاربة الشديدة وسرت تلك العداوة منهما الى اعقابهما بحيث لم يحصل بين هذين الشعبين وفاق حتى انقطعت ذرية هولاكو بموت السلطان ابى السعيد الايلخانى سنة ٧٣٢هـ في عصر السلطان اوزبك خان عليهما الرحمة.

واختلف المؤرخون في سبب حصول العداوة بينهما فمن قائل إنه بسبب: ان عادة اولاد جنكيز خان كانوا يرسلون من فتوحاتهم وغنائمهم شيئا للقا آن الكبير وشيئا لبيت باتو ولما مات باتو وتسلطن بركة خان لم يرسل هولاكو اليه شيئا مما فتحه من البلاد ونهبه من العباد فغضب عليه بركة خان لاجل ذلك، ومن قائل ان بيت باتو خان كانوا في دعوى ان تبريز ومراغة كانتا من حصتهم في تعيين جنكيز خان وتقسيمه فتشبثوا بذيل ذلك وطالبوا هولاكو واعقابه بذلك، ومن قائل غير ذلك مما ليس في إطالة الكلام بذكره طائل

ولايرجع الى حاصل.

قلت :لا يخفى على العاقل سبب هذه العداوة فإن بركة خان عليه الرحمة بإسلامه صار مظهراً لاوصاف الجمال وحاميا لاهل الإسلام من أهل الكفر والضلال وهولاكو باصراره على الكفر وانغماسه فيه صار أشد الاعداء للملة المحمدية وأمته عليه الصلاة والسلام، وكان بركة يوالى الخليفة في حياة اخيه باتو ويمنع هولاكو من التعرض له، وكان هولاكو لخبثه يبغضه لذلك ولكن كان يضمر العداوة له ولايظهرها في حياة باتو خوفا من شوكته وصولته ولما مات باتو اظهرها وقصد الخليفة وفعل ما فعل واشتدت العداوة بينهما لذلك ورأى بركة خان أن يأخذ بثار الخليفة والمسلمين منه.

قال ابن فضل الله العمرى وكذا ابن خلدون نقلا عنه ولما استقل منكو قا آن بالتخت وعلت كلمته جاءت اليه رسل أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون من سُوء مجاورة الملاحدة وضررهم بهم فجهز اخاه هولاكو في جيوش جمة لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم وقطع دابر دولتهم فلما استولى عليها حسن لا خيه منكو قا آن اخذ ممالك الخليفة والاستيلاء على أعمالها فأذن له فيه فخرج لذلك فبلغ ذلك بركة فصعب عليه ذلك لما كان بين بركة والمستعصم من الموالاة والوصلة وتأكد المودة؛ فذكره على اخيه باتو الذى كان قد ولى منكو قا آن القا آنية وقال له اننا نحن اقمنا منكو قاآن وما جزانا على ذلك إلا انه اراد ان يكافينا با لسوء في اصحابنا وينقض عهدنا ويخفر ذمتنا ويتعرض الى ممالك الخليفة وهو صاحبى وبينى وبينه مكاتبات

وعقود مودة وفى هذا ما لايخفى من القبح والشناعة، وقبح فعله ذلك على اخيه باتو فبعث باتوالى هولاكو بالنهى عن ذلك وانه لا يتعدى مكانه فجاءته رسل باتو بذلك وهو فيما وراء نهر جيحون قبل ان ينفصل بالعساكر فما عبره وأقام في موضعه ذلك سنتين كاملتين أمتثالا لامره حتى مات باتو وتسلطن أخوه بركة فحينئذ قويت اطماع هولاكو وبعث الى اخيه منكو قا آن يستأذن فى إمضاء ما كان امره به من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه وحسن له ذلك فاجابه فسار هولاكو لقصد الملاحدة وأعمال الخليفة فاوقع بالملاحدة وفتح قلاعهم واستباحهم، واتهم سبعمائة نفر من أكابر همدان وتلك البلاد المضافة الى باتو ثم الى بركة بالميل الى بركة والمباطنة على هولاكو ومنكو قا آن وقتلهم عن أخرهم وامتد في البلاد وقصد دشت القفجق وعدا اليه فزحف اليه بركة في جموع لا تحصى والتقيا واستمر القتل في اصحاب هولاكو وهم بالهزيمة ثم حال نهر الكر بين الفريقين وعاد هولاكو وعاث في البلاد وعام في تيار الفساد واستحكمت العداوة بينهما.

انتهى ما ذكراه وزاد ابن خلدون: وسار هولاكو الى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة اهـ

ولادرى من اين أخذ ابن خلدون هذه العبارة وقال هو في موضع آخر نقلا عن الملك المؤيد انه حدثت الفتنة بين بركة وبين قيلاى قا آن حتى آل الامر الى وقوع الحرب بين بركة وبين هولاكو فاقتتلا في سنة ٦٦٠هـ فهاتان العبارتان تفيدان تعدد الواقعة بين بركة وهولاكو إحداهما قبل وقعة بغداد والاخرى بعدها وهذا هو الذي

وعدنا ذكره ولكن لاتنس نصيبك مما قدمنا من عدم صحة ذلك وهو الصواب وما ذكره ابن خلدون هنا وهم او سبق قلم والله اعلم،

والحاصل ان السبب لوقوع الحرب بينهما هُو طغيان هلاكو وقتله العباد وسعيه في الأرض بالفساد خصوصا قتله الخليفة الذي هو اعظم الفساد ولذلك قال الذهبى الذي هو مؤرخ الإسلام وممن لا يقول القول إلا بعد التحقيق والتطبيق لنقول الأعلام: ومن أعظم الأسباب لوقوع الحرب بينه وبين هلاكو قتل الخليفة اهـ، وكفى به شهيدا غير أن بركة خان لما لم يمكن له القيام بطلب دم الخليفة وثأر المسلمين بسببين مانعين له من ذلك :

أحدهما أن أكثر عسكره كانوا في ذلك الوقت كفارا ومن أسلم منهم قليلا مع قرب عهدهم بالإسلام وترسخ يسق جنكيز خان في قلوبهم وقتل الخليفة والاستيلاء على بلاد المسلمين ليس بجناية موجبة لقتاله في يسق جنكيز خان بل هو فخر لهم.

والثانى ان منكو قا آن الذي هو الحاكم المطلق على جميع اولاد جنكيز خان وبمنزلة الخليفة بالنسبة الى المسلمين كان اخا هولاكو وقد فعل هولاكو ما فعله بامره واذنه فحرب بركة هولاكو هو حرب منكو قا آن وسائر اولاد جنكيز خان، لذلك صار يتشبث باذيال حيل لابداء شئ يكون في الظاهر سببا موجبا لقتال هولاكو ويكون هولاكو المعتدى والجانى عند قوم بركة فيوافقونه على قتاله واحداث شئ يكون سببا لتفرقة كلمات سائر اولاد جنكيز خان ومازال ينتهز الفرصة لذلك ويقترح على هولاكو اشياء كثيرة مثل ادعاء اعمال مراغة وتبريز

وطلب ما كان يرسله لبيت باتو من الغنائم وغير ذلك مما ذكره المؤرخون وزعموا حقيقته وليس كذلك، بل كان قصده بذلك حمل هولاكو على الغضب والضجر والسآمة حتى يكون طالبا لحربه وقتاله ويكون بذلك جانيا عند قومه ومستحقا لقتاله فيكونون معه يدا واحدة في مدافعته ومحاربته.

وبينما بركة خان يدبر انواع التدابير لاجل ذلك اذ مات منكو قا آن وقد خرج بعساكره وقصد بلاد الخطا لعصيان بعض ملوكها واخذ معه اخاه قبلاى واستخلف مكانه اخاه الاصغر آرتق بوكا فلما مات منكو قا آن اتفق امراء العساكر ان يجلسوا على تخت القا آنية مكانه اخاه قبلاى لكونه أكبر فلما سمع بركة خان ذلك الخبر اغتنم الفرصة واستجلب اليه قيدو بن قاشين بن اوكداى بن جنكيز خان لما تفرس فيه العقل والتدبير والشهامة والشجاعة وارسله الى آرتق بوكا مع بعض العساكر قائلا بانك انت الاحق بالقا آنية دون اخيك قبلاى لان منكو قا آن رتبك فيها فقم بطلب حقك ولا تطع القبلاى وانا قد ارسلت قيدو بن قاشين مع عساكره نجدة لك، وضممت اليه عدداً من عساكري فإن احتجت الى الزيادة فانا معك فقام آرتق بوكا بطلب القاآنية وبايعه من معه من العساكر فلما سمع قبلاى ذلك الخبر رجع الى بلاده واستقبله آرتق بوكا بمن معه من العساكر فنشب بينهما القتال من ذلك التاريخ وكان ذلك في سنة ٦٥٨هـ ودامت المحاربة بينهما الى سنين كثيرة.

وكان هولاكو قد توجه في التاريخ المذكور نحو بلاد الشام

باربعمائة الف عسكر واستولى عليها وارأد ان يسير الى مصر وبينا هو في هذا الفكر اذ بلغه موت منكو قا آن ووقوع الخلف بين أخويه قبلاى وآرتق بوكا وبلغه ايضا ان اولاد جغطاى قد رفعوا الوية العصيان في ماوراء النهر على القا آن بسبب إغواء بركة خان اياهم فاظلمت الدنيا عليه ولم يهنأ بفتح الشام وتكدر خاطره غاية التكدر ولم يستصوب الإقدام على محاربة المصريين تاركا البلاء الاعظم وراءه فكر راجعاً الى مقره بعدان ترك بالشام اميرا من امراء المغول اسمه كتبوغا من ارباب الشجاعة والدهاء مع عشرة الاف عساكر فاستأصلهم صاحب مصر الملك قطز عند عين جالوت كما هو مسطور في التواريخ.

وهذا ايضا من اعظم حسنات بركة خان عليه الرحمة حيث صد هولاكو الطاغية بهذا الجيش العرمرم الذي لا تطيقه الجبال الشوامخ عن مصر بتدبيره ذلك ولولاه لانصدع شعب الامة المحمدية وهي عمود الملة الاحمدية.

ولما رجع هولاكو الى مقره لم يوفق لشئ سوى انه استمال قلوب اولاد عمه جغطاى واعادهم الى طاعة القا آن ولكن بقى متحيراً في أموره ومترددا في افعاله ومتعريا عن شعوره خصوصا بعد ان بلغه ما فعله المصريون بعساكره واميره، وبركة خان لا يزال يزيد في اقتراحه ما يوجب غضبه وما يذهب بفرحه وسروره لما انه قد اطمئن خاطره من طرف القا آن بما وقع بينهم من الفتن والحرب والضرب وبقى إحداث

سبب من هذا الطرف حتى بلغ غضبه عليه نهايته وصمم على محاربته وعزم على مقاتلته بعد ان تردد برهة من الزمان في التوجه نحو الشام للانتقام من المصريين والتوجه نحو دشت القفجق لحرب بركة فوقع ما سيذكر.

وذلك ان بركة خان ارسل الى هولاكو سنة ٦٦٠هـ رسولين يطالبه بحمل ما جرت به العادة الى بيت باتو وبعث معهم سحرة ليفسدوا سحرة هولاكو فاطلع هولاكو على ذلك فامر بالقبض عليهم جميعهم وحبسهم في قلعة تلا ثم قتلهم بعد خمسة عشر يوما فلما بلغ بركة قتل رسله اظهر العداوة لهولاكو اهـ من تاريخ المفضل نقلا عن سيرة الملك الظاهر للقاضى ابن شداد وهو نقله عن علاء الدين بن عبدالله البغدادى احد اصحاب الامير سيف الدين بن يلبان الرومى وهو كان وقتئذ عند هلاكو.

ويقرب منه ما ذكره في روضة الصفا حيث قال ما معربه: ومن جملة اسباب الوحشة بين بركة خان وهلاكو ان توتار[1] اوغل كان من اقرباء بركة فاتهمه اصحاب هولاكو بالسحر فارسله هولاكو الى بركة صحبة سونجق نويين يعرفه بجريمته فاعاده بركة الى هولاكو ليحكم فيه بقانون جنكيز خان فقتله هولاكو وكان بركة يتوقع منه العفو عنه والإغماض عما صدر منه فكان ذلك في السابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ فتكدر خاطر بركة لذلك وصار يرسل اليه الرسل

---

(١) قلت توتارا وغل هذا احد قائدي العساكر الذين كان باتوخان قد ارسلهم نجدة لهولاكو على الملاحدة حين وقع بهم وثانيهم بلغاى بن شيبان. ا هـ منه

تترى ويوبخه ويتحكم عليه بانواع التحكمات فلما جاوز ذلك حد الاعتدال ولم يبق للتحمل مجال قال هولاكو في مجلسه الخاص: إن بركة وان كان اخا أكبر منى وانا اصغر منه ولكن لما كان يخاطبنى دائما بالتهديد ويعاملنى بالعنف والتشديد لم يبق لى بعد ذلك ميدان للتحمل ولا مجال للتجمل فلا أداريه بعد ذلك ولا أجامله فيما هنالك بل اطوى صحائف القرابة واسلك مسلك المخالفة والمضاربة ولما بلغ بركة خان ما قال استشاط غضبا وقال إن هولاكو أخرب بلاد المسلمين واستأصل سلطان الإسلام والمؤمنين واعدم خليفة الزمان وفعل ما فعل برأيه السخيف بلا مشاورة الاخوان ولم يفرق الاعداء من الاخدان فإذا كان توفيق الحق سبحانه رفيقى وعونه ونصرته معى لآخذنه بدم المظلومين ولاتركنه عبرة للعالمين اهـ.

ذكر كيفية هذه المحاربة:

قال فى روضة الصفا بعد ذكره ماتقدم ثم أرسل بركة قريبه نوغاى الذى هو قائد جيشه وله قرابة بتوتار اوغلان المقتول بثلاثين الفامن العساكر الجرار فى مقدمته فعبر دربند وخيم في ظاهر شروان فلما بلغ هولاكو ذلك خرج من محله الاطاع في شوال سنة ٦٦٠هـ وأرسل في مقدمته شيرامون نويان مع سائر الامراء ولما وصلوا الى حدود شروان هجم عليهم نوغاى بعسكره وقتل كثيرا من شجعانهم وأمرائهم، ورجع الى محله مظفرا منصورا.

وفي ذى الحجة من السنة المذكورة هجم تاباى نويان بعسكر كثير على عسكر بركة وكان على مسافة فرسخ من شروان فانهزم

نوغاى امامه فلما بلغ ذلك هولاكو نهض في اوائل محرم مفتتح عام احدى وستين وستمائة من نواحى شماخى وفي الثالث والعشرين منه توجه جميع عساكره مسلحين نحو دربند فلما وصلوا اليها وقت الضحى رأوا طائفة من عسكر بركة على ابراج دربند[1] فهجموا عليهم، وأزالوهم عن مواقعهم وعبروا دربند واقتتلوا مع المخالفين فانكسر القفجق - يعنى بركة - وانهزموا عن آخرهم حتى لم ير منهم اثر في تلك النواحى وفي غرة صفر قال امراء المقدمة نحن نذهب من عقب العدو بتمام العجلة والسرعة والاصلح ان يرجع شهزاده يعنى ابغابن هولاكو فابى ابغا الا المسير معهم، فأمر هولاكو الامراء بالغارة على اهل الدشت والنهب والسلب فعبروا نهر ترك ووجدوا الدشت ملآنة بالاموال والامتعة وارباب الجمال وليس بها مقاتل ولا ممانع من الرجال فنزلوا في خيام القفجق وشرعوا في التلهى مع البنات صواحب الجمال وبينما هم على هذا الحال اذ طلع بركة خان من تلك البرية الواسعة بعساكر كالرمال لايعلم عددهم الا الله الواحد المتعال وهجموا عليهم بلاامهال واشتد بين الفريقين القتال وامتدت المحاربة من طلوع الشمس الى غروبها وقام سوقها على ساق بين الابطال ثم انهزم عسكر هولاكو اشنع الانهزام وولوا الادبار فلما وصلوا الى نهر ترك منهزمين وارادوا العبور انكسر الجمد وغرق اكثر العسكر وهرب ابغا بشرذمة قليلة واتصل بهولاكو بموضع شروان فرجعوا منه الى بلادهم مسرعين اهـ.

(١) دربند : مدينة توجد في جنوبي جمهورية داغستان.

وقال ابن واصل الحموى: وصل الخبر الى الملك الظاهر أنّ رسل بركة قد وصلوا الى هولاكو وأنه ضرب رقاب الجميع وخرج بالعساكر الى ازاق ووصل الى نهر كور والى تيمر قيو ولما بلغ بركة وصول هولاكو الى بلاده رسم ان تخلى له البلاد وان لايقف احد بين يديه ولايقاتل احد ثم اخلوا له البلاد مسافة خمسة عشر يوما ولما وجد هولاكو البلاد شاغرة وقد هرب عسكر بركة اوغل عسكر هولاكو في البلاد ونهبوا وغنموا فلما سمع بركة ان عسكر هولاكو قد اوغلوا في البلاد نادى في جيشه ان يركب من عمره عشر سنين فركب خلق لايدرى اولهم من آخرهم واما هولاكو فقد أصبح معتقدا بانه قد ملك بلاد بركة وبينا هو كذلك اذ رأى هواء سموما سخنا فقال ماهذا الهواء السموم فقالوا له هذا الهواء حرارته من انفاس الخيل وكان في عسكره رجل كبير السن يسمى صمغار اوسنتاى وكان مقعداً قد بطل نصفه وكان لايحضر حربا الا وينكسر من يحاربه وينتصر على عدوه لانه اذا التقى الجمعان نزل عن فرسه ويقول لاصحابه انا قاعد هنا فمن شاء يدعنى فقال له هولاكو ما تقول في هذا الجيش فاخذ صمغار مقرعته وتطرقها وقال هذا اقدام مقرعتى ستمائة الف ويفيض من هنا ويفيض من ها هنا يعنى يمينا وشمالا وما اعرف عدد هذا الجيش فعند ذلك رسم هولاكو بان كل من عدا النهر قبل الخان يعنى نفسه مات ثم انهزم هولاكو مع خواص عسكره من المغول فلما قطع النهر وعدّى انكسر الجيش وراءه وتزاحموا في الهروب وانخسف بهم الثلج فلم يسلم منهم من يرد خبرا وكان كل

من تقدم هاربا غرق ومن تأخر قتل فاما الذين غرقوا فلا يدري عددهم الا الله واما الذين تاخروا فقتلوا جميعا.

ولما حضر بركة ورأى تلك المقتلة امر ان تجمع القتلى فجمعوهم وجعلوهم ثلاثة كيمان تلالاً عظيمة وقد صقلتهم الامطار والرياح وابيضت عظامهم ينظر إليهم المسافرون من مسافة يومين وهذه الواقعة تسمى نوبة تيمر قبو، وهرب هولاكو في نفر يسير ولما وقف بركة على مقتلة ورأى مقتله شنيعة قال قبح الله هولاكو هذا؛ تقتل المغول بسيوف المغول لو كانت كلمتنا مجتمعة لفتحنا الأرض كلها اهـ.

وقال الشيخ عماد الدين ابن كثير وفيها (يعنى في سنة ٦٦٠هـ) وقع الاختلاف بين هولاكو وبين السلطان بركة ابن عمه وارسل اليه بركة يطلب منه نصيبا مما فتحه من البلاد واخذه من الاموال والاسرى على ماجرت به عادتهم فقتل رسله فاشتد غضب بركة وكتب الى الظاهر[١] ليتفق على هولاكو وقال فيها (يعنى سنة ٦٦١) التقى بركة قان وهولاكو ومع كل منهما جيوش عظيمة فاقتتلا فانهزم هولاكو هزيمة فظيعة وقتل اكثر اصحابه وغرق اكثر من بقى وهرب هو في شرذمة قليلة من اصحابه ولله الحمد والمنة ولما نظر بركة قان الى كثرة القتلى بكى وقال يعز على ان تقتل المغول بعضها بعضا ولكن كيف الحيلة فيمن طغى وبغى اوكما قال اهـ.

وقال العمرى: قصد هولاكو دشت القفجق وعدا اليها واقام ثلاثة أيام فلما كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل وداسهم بركة

---

(١) يعني الملك الظاهر بيبرس ملك مصر.

بجنوده وعساكره ودارت الدائرة على هولاكو حتى هم بالهزيمة فنزل امير كبير كان معه اسمه سنتاى وهو المنسوب اليه عقبة سنتاى بالعراق وامسك برأس فرس هولاكو وقال اين تروح فلما استحر القتل في اصحابه تأخر حتى صار نهر الكر بينه وبين بركة وجاء بركة حتى وقف على نهر الكر ولم يجد له سبيلا الى العبور ورجع هولاكو وعاث في البلاد وعام في تيار الفساد وفعل فعلته وقويت العداوة بينه وبين بركة خان اهـ.

وقال الذهبى وفيها (يعنى سنة ٦٦١هـ) جرت وقعة هائلة بين هولاكو وبركة وكانت الدائرة على هولاكو وقتل خلق من اصحابه وغرق آخرون ونجا بنفسه اهـ.

وقال المفضل قبيل ذكره ما تقدم عنه ان هولاكو جمع العسكر وقصد بركة وسار بركة اليه فنزل في ارض الكرج[1] ونزل هولاكو بصحراء سلماس ثم كان الملتقى بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق كثير ووقعت الكسرة على هولاكو وَعُمِل في عسكره السيف اثني عشر يوما وهرب هولاكو.

انتهى كلام الشيخ الرمزى ملخصاً من كتاب :« تلفيق الأخبار » من ص ٤٠٤– ٤٢٣ .

شاهد من التاريخ

وهذا شاهد آخر على قوة دولة التتار المسلمة وهيمنتها على مقدرات الروس وهو من القرن الثامن الهجرى، أي بعد الملك المؤسس

(١) هي الآن جمهورية جورجيا في بلاد القوقاز.

(بركة خان) بزمن، وإنما هي على عهد الملك محمد اوزبك خان احد ملوك التتار المسلمين العظام.

قال المؤرخ الروسي كارامزين – فيما نقله عنه الشيخ الرمزي –: ولمامات غيورغى بسيف ديمتري وقتل ديمتري بسيف الخان (المسلم) قصاصا وجه أزبك خان الكينازية الى الكيناز[1] اليكساندر اخى ديمترى وابن ميخايل المقتولين وكتب له بذلك منشورا ومنحه ايضا ما لم يمنحه لابيه وأخيه من المراحم الخانية، ولكن لم تدم له تلك المراحم، بل تبدلت غضبا وقهرا ثم ذكر وقعة شفقال خان.

حادثة شفقال خان:

قال كارامزين بعد بيان الوقايع المذكورة بالتفصيل ثم ان اوزبك خان ارسل في ابتداء الربيع من السنة المذكورة ١٣٢٧م ابن عمه الامير شفقال بن الامير دودين (تدان) مع فرقة من عسكر التتار الى توير وكان ذلك لاصلاح بعض الامور التي بلغته بعد رجوع اليكسندر المذكور الى توير فظن الاهالى ان ذلك انما هو لدعوة الروس الى الإسلام وإجبارهم عليه وانه يقتل اليكساندر وسائر حكامهم ثم يجلس على تخته وينصب عليهم حكاما ممن معه ويجعلهم عبيدا لهم وشاع ذلك الخبر بين الروسية شيوعا تاما وصدقوه مع انه غير مطابق للواقع من جميع الوجوه فانه لم يكن مع الامير شفقال عسكر كافٍ لهذا الامر، بل كان معه شرذمة قليلة على انه مخالف لسياسة التتار فانهم كانوا يحمون روحانية الروسية دائما ولم يصدر منهم تعرض

---

(١) الكيناز بالروسية الحاكم الكبير ومقره موسكو.

للدين قط خصوصا اوزبك خان الذى كان متصفا بالعدالة للرعايا ومشتهراً بالحقانية بين البرايا، فان استحالة صدور مثل هذا الامر في عصره كانت بديهية. ولكن ماالحيلة انما كانت الروسية متصفة بالجهالة وقلوبهم منخلعة من خوف التتار لكونهم تحت[1] جبرهم وقهرهم دائما كانوا يصدقون كل خبر من هذا القبيل (قلت يقول كارامزين هذا لدفع التعصب والوحشية عن الروسية مع كونه ظاهر التعصب والوحشية يدل عليه السياق والسباق ولم يدر أنه واقع في وسط التناقض) قال فاجتمع الاهالى عند الكيناز اليكسندر مع كبرائهم للاستشارة فقال لهم الكيناز لكونه شابا خفيف العقل: لايخفى عليكم ان التتار قتلوا ابى ميخايل واخى ديميترى والآن يقصدوننى ويريدون ان يستأصلونا عن آخرنا ويملكوا بلادنا وقد جاء الآن وقت الانتقام وكان الامير شفقال في ذلك الوقت نازلا بقصر ميخايل مع عسكره فاجتمع الاهالى عند اليكسندر ليلا وساروا معه نحو القصر المذكور وقت الصبح واحاطوا به وهجموا عليه فخرج التتار ايضا من القصر وبدأوا بالمدافعة واقتتلوا قتالا شديدا من الصبح الى الغروب حتى سالت الدماء كالسيل وحملت القتلى الى الاطراف والجوانب فدخلت التتار الى القصر اضطراراً بسبب قلتهم وكثرة الروس وتحصنوا به فاضرم اليكسندر النار على القصر واحرقه بمن فيه من التتار ولم ينج منهم احد؛ حتى تجار التتار الذين كانوا في تووير من القديم قتلوا.

---

(١) فاذا كان الأمر كذلك فلاى شئ تستقبح الروس اتهام التتار الروسية الآن مع أن صدور امثال هذه الأمور عن الروس في جميع الأزمان واقتلاع قلوبهم من تكاليفهم الباطلة دائما. اهـ منه.

فلما انتشر هذا الخبر في اطراف الروسية اندهشت الحكام والاهالى وزلزلوا زلزالا شديدا وغابوا عن حواسهم وايقنوا بالهلاك والبوار ولكنهم كانوا لايعلمون ان هذه الفعلة الشنيعة : هل ستجلب المصيبة العظمى لولاية توير فقط، ام تعم بلواها كافة الروسية؟.

واما اوزبك خان فانه لما قرع سمعه هذا الخبر الموحش غاب عقله ايضا من الغيرة وصاح بالثار والانتقام وحلف انه لايبقى احدا من هؤلاء الاشقياء حيا على وجه الأرض وانه يسوى اماكنهم بالأرض وربما توهم ان هذه الفعلة بالمواطأة من جميع حكام الروس وأنهم يريدون اخراج رؤوسهم من ربقة رقية[1] التتار ولكن من اين كان للروسية في الوقت المذكور ان يقاوموا سطوة اوزبك خان وان يقابلوا قوة التتار فلما علم اوزبك خان عدم مشاركة سائر امارات الروسية لاهل توير في الواقعة المذكورة ارسل الى الكيناز ايوان كاليتا ابن دانيل ببلدة موسكو يدعوه لديه فلما جاء امره بالمسير الى بلدة توير لتربية الاشقياء واستئصالهم بالكلية واعدام الكيناز اليكسندر ووعده في مقابلة خدمته هذه ان يوجه الى عهدته مرتبة الكينازية العظمى لجميع الروسية وضم اليه خمسين الفا من عسكر التتار وامر ايضا الكيناز سوز دل اليكسندر بن واسيلى ان يلحق بهم بعسكره فقبله الايو ان المذكور طمعا في الكينازية العظمى وتخليصا لسائر بلاد الروسية من سيوف التتار لأنه كان يعرف يقينا ان اوزبك لو تحرك بنفسه او امر واحداً من امراء التتار لقلبوا كافة الروسية ظهراً لبطن فسار هؤلاء

(١) رقية : من الرق بمعنى العبودية.

العساكر بهيئتهم المجموعة الى توير.

قال كارامزين – في هذا المقام بلسان التأسف والتحسر وبقلم التحمس –: فلو خرج اليكسندر بعسكره لمقابلة التتار وقاتلهم لابرز حمية وطنية وفدائية ولكنه لم يكن من اربابها فلم يكن له هم الا تخليص نفسه من الهلاك بسلاح الهرب فقرر ان يذهب الى نووغورد فلم يقبله اهلها، ولما قرب التتار الى توير هرب اليكسندر إلى الادوغا تاركا قومه المخلصين الصادقين في بحبوحة البلاء الى بصكوف واخويه قنسطانتين وواسيلى فنال اهل توير ما طلبوه وجوزوا ما صنعوه حيث هدمت التتار مع الايوان بلدة توير وكاشين وتورزبك وسووها بالتراب وقتلوا اكثر أهاليها واسروا الباقين ومن لم يبلغ اجله نجا بنفسه بالهرب الى الغابات، ثم ارادهولاء العساكر ان يستولوا على نووغورد ولكن أهل نووغورد خلصوا بلدهم باظهار الطاعة واهداء الف روبلة اليهم، وكانت في ذلك الوقت كثيرة.

قال الشيخ الرمزي : قلت ان من تأمل فيما سبق من الوقايع يجد ان أهل نووغورد تخلصوا من تلك المصائب التي ابتليت بها سائر الروسية وذلك بحسن صنيعهم وترك العناد لعدوهم القوى وقد قال بعض المؤرخين ان نووغورد اقدم بلاد الروسية واشدهم تمدنا وفعائلهم المذكورة تؤيد ذلك.

فلما سمع اوزبك خان خبر هذا الانتقام فرح فرحا شديدا وصار ممنونا من ايوان بن دانيل وانجز وعده اياه حيث نصبه كينازا اعظم لجميع الروسية واعطاه منشورا بذلك وارسله الى بلدة موسكو

فاستراحت الروسية بعد ذلك خصوصا طرفها الشمالى الذى هو أبعد ارض الروسية من التتار وترك حكام الروس خصومتهم فيما بينهم وشكاية بعضهم من بعض الى الخان وصارت بلدة موسكو ام بلاد الروسية من ذلك التاريخ وبدأت الروس بالاصلاح والترقي وتوحيد الكلمة والرأى وضم الامارات الصغيرة اليها شيئا فشيئا بهمة الكيناز ايوان المذكور فإنه كان من جهة يذهب عند الخان ويتبصبص لديه ويجلب بذلك التفاته إليه ومن جهة أخرى كان يجتهد في اصلاح شؤون مملكته.

قلت ومن هذا قال بعض المؤرخين ان السبب في قوة الروس هو التتار حيث اعانوا الكيناز موسكو على ضم الإمارات الصغيرة الى الكينازية العظمى وتوحيد حكوماتهم الخ وانت تعلم ان فعل اوزبك خان هذا ماكان عن علم بان الروسية تتقوى بذلك وان الايوان الثالث من نسل هذا الايوان يخرب بلدته سراى وان الايوان الرابع يستأصل حكومة قازان بعد سنين فانه لو علم ذلك لما تركه حيا فضلا عن اعانته ولكن اذا اراد الله شيئاً هيأ له الأسباب ولاراد لقضاء الله.

عوداً الى قول كارامزين قال: وحين حضر ايوان[1] عند اوزبك خان بعد اتمام امر توير احضر معه الكيناز ايوان والكيناز فنسطانتين اخوى اليكسندر الخائن فشفع عند الخان لهما وسأله ان ينصب قنسطانتين كينازاً لتوير فقبله الخان وارسل الكل الى بلادهم وامر الايوان ان يتتبع اليكسندر الخائن وان يمسكه ويجيئ به إليه فقبله

(١) ايوان هو إيفان.

الايوان وطلبه من أهل بصكوف فاراد الاهالى الامتناع من تسليمه إليه ولكن الايوان خوفهم بواسطة ميتروبوليد (مطران) ولعنته عليهم وحكمه بخروجهم من الدين ان يمتنعوا من تسليمه وذلك لسلامة الروسية فاخرجوه من بينهم فهرب الى ليتوانيا عند غديمن فرجع ايوان مع عسكره من بصكوف وبعد عشر سنين من هذه الواقعة عفى عنه اوزبك خان لكونه صاحب مرحمة بشفاعة ميتر وبوليد ونصب كينازا الى توير ثانيا.

هذه هى معاملة الوحشيين بمن صدر منه أقبح القبايح بشهادة الاعداء، والحق ماشهدت به الاعداء. [١]

---

(١) راجع الحادثة بالتفصيل في الكتاب الجامع للشيخ محمود الرمزي « تلفيق الأخبار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار ج١، ص٥٣٩ - ٥٤٢ ».



اليوميات التتارية



يوم الثلاثاء: ١٥ ربيع الآخر ١٤١٥هـ ، ٢٠ اكتوبر ١٩٩٤م.

من موسكو الى قازان.

بادرنا بالخروج من منطقة المسجد التاريخي في موسكو- الذي كنا نزوره - قاصدين مطار دوما ديدوفا للسفر الى قازان وكان خروجنا إلى المطار في الخامسة والربع عصراً.

فسلكنا شوارع موسكو الواسعة التى زادتها سعة الأماكن الخالية بينها على هيئة ميادين غير منسقة ولا معتنى بها مما جعل مدينة (موسكو) تمتد امتداداً كبيراً، مثلها في ذلك مثل معظم المدن الشيوعية، إن صح أن للمدن مذاهب، وهو صحيح على اعتبار أن أهلها ذوو مذاهب شيوعية ذلك بأن الدولة الشيوعية تكون هي الجهة الوحيدة التي تبنى المساكن الحديثة لعامة الشعب ولكنها تبنيها على هيئة أبنية ضخمة متعددة الطبقات (عمارات) تشتمل على شقق سكنية محدودة المساحة، وتكون على هيئة تجمعات منفصلة منعزلة عن الأبنية الأخرى.

لذلك تبنيها في الغالب في أماكن بعيدة أو على الأقل غير متصلة بالأحياء القديمة من المدن التي بنيت قبل الشيوعية.

وهذا الكلام يصدق على ما شاهدناه في شوارع الضواحي في موسكو اضافة الى أن مدينة موسكو كانت مدينة كبيرة معتنى بها منذ عهد القيصرية الروسية، وان كانت عاصمة القياصرة هي مدينة (سان بطرس بورج) التي أسماها الشيوعيون (لينين قراد) بمعنى مدينة لينين.

نهر موسكو :

نهر موسكو صغير كان اسمه (موسكوفا) سميت هذه المدينة على اسمه وينطق بها هنا بلفظ (موسكوفا)، ولما اتسعت المدينة وصارت مياه هذا النهر لاتكفي حاجة أهلها أمدوه بمياه من نهر (ايتل) المعروف بهذا الاسم في كتبنا العربية العريقة، ولكنه صار يعرف عند الخلف من بنى قومنا بنهر الفولقا وهي تسمية روسية، وشقوا لذلك قناة واسعة وفق طريقة هندسية مكلفة حتى صار نهر ايتل (الفولقا) يمد نهر موسكو بما يحتاجه من المياه من أجل ان يفي بما تتطلبه مدينة موسكو الكبيرة المتنامية.

إن سكان مدينة موسكو يبلغ عددهم في الوقت الحاضر نيفا وثمانية ملايين وكانت عاصمة دولة الاتحاد السوفيتى اكبر دول العالم مساحة حيث كانت مساحته تغطى سدس مساحة الأرض اليابسة وبلغ مجموع السكان فيه ٢٦٧ مليونا؛ وبعد أن انفرط عقد الاتحاد السوفيتى، وصارت جمهورية روسيا الاتحادية من دون توابع إلا جمهوريات كانت قد ضمت الى جمهورية روسيا من قبل مثل جمهورية تتارستان التى سوف يتناولها حديثنا الآن، هبط عدد السكان الذين يتبعون موسكو بمائة وعشرة ملايين ومع ذلك لو كان في مكان مدينة موسكو مدينة حرة في زمن الاتحاد السوفيتى او ان شئنا الايضاح قلنا : لو كان الاتحاد السوفيتى بلداً حراً في نظامه السياسى والاقتصادى لكان عدد السكان قد تضاعف فى موسكو.

ذلك بأن النظام الشيوعي نظام شامل تتحكم فيه الدولة في كل

شئ ومن ذلك مساكن الناس ومكان إسكانهم فكان لابد لمن ينتقل الى موسكو من اى مدينة أو ريف خارجها من أن يكون انتقاله بأمر الحكومة في موسكو لأن الحكومة هي التى تبنى المساكن وتؤجرها للناس ولذلك لايجد مسكنا له الا اذا كان ذلك باذن من الحكومة ولغرض من اغراضها، اللهم الا اذا كان شخصا واحداً وجد شخصا رحب بأن يشاركه السكن في غرفته وهذا نادر لاحكم له هنا لأنه لايزيد في عدد مساكن المدينة.

واذكر أنني في اول زيارة لي الى الاتحاد السوفيتي وكان ذلك في زمن الحكم الشيوعي قبل انفراطه و سقوطه قال لي الدكتور شمس الدين باباخانوف: إن الحكومة قد سمحت لي بشقة في موسكو لانني أتردد عليها بحكم عملي وكان يشغل في ذلك الوقت وظيفة مدير الادارة الدينية في آسيا الوسطى وقازاقستان وهي ادارة معترف بها من الحكومة الشيوعية وبوساطتها تستقدم الضيوف المسلمين الى الاتحاد السوفيتي ومن ذلك وفد رابطة العالم الإسلامي الذي رأسته، وقد قصصت ذلك في الكتب الأربعة التي كتبتها أثناء تلك الرحلة وطبع ثلاثة منها أولها كتاب: «**في بلاد المسلمين الضائعين: بخارى وما وراء النهر**».

إفلاس الشركة من إفلاس النظام:

أفلس النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ولذلك أسقطوه وكان أحرص الناس على إسقاطه والبراءة منه الذين كانوا أهله وأنصاره والأصلاء من الروس ومن لف لفهم، ولذلك نهجوا نهجا

اقتصاديا بل مبدئيا مغايراً له كل المغايرة وقد حملهم كرههم للشيوعية على سرعة الأخذ بالنظام الاقتصادى المفتوح المسمى السوق الحرة من دون تهيئة ذلك او ترتيب مرحلة انتقالية ولذلك حصلت في البلاد رجات اجتماعية وانتشرت فيها المحسوبية بل الفوضى الحكومية، ومن ذلك ماشاهدناه اليوم من رؤية جمهور ضخم قد سد الشارع واقفا امام مقر شركة يسمونها اختصاراً (ام ام ام) بثلاث ميمات (m,m,m) قد كانت جمعت أموالا طائلة من متوسطى الدخل بحجة استثمارها واعطت في أول الأمر مبالغ مالية زعمت أنها ربحتها ثم أعلنت إفلاسها وذهاب أموال الناس ولم تصنع الدولة الروسية لهم شيئاً لأنها ليس لديها نظام اقتصادي مستقر، ولا خبراء أمناء ذوو تجربة ولم يتكون لديها بعد رأي عام يضغط عليهم او يتسترون منه، ولذلك ضاعت أموال المودعين في هذه الشركة وصار أرباب الأموال ينتظرون الساعات الطوال أمام مقرها المغلق من دون جدوى.

الريف المسكوفي:

كان الكتاب العرب الذين كنا نقرأ كتاباتهم في أول عهدنا بالقراءة يسمون الروس المسكوف نسبة الى عاصمتهم التي ينطقون بها (موسكوفا) وذلك قبل ان يستقر تعريب الاسم او لنقل: نقله الى العربية بلفظ موسكو.

الريف المسكو في نسبة الى موسكوفا على هذه الطريقة هو ريف أخضر، كثيف الخضرة الا أن خضرته سريعة الزوال والاضمحلال مثل

وصل الحبيب الملول اذ ما أن يذهب الصيف الشمالي – وان كانت لاتزال في الصيف الغربي بقية – حتى تذبل تلك الخضرة ثم تموت تحت صقيع الشتاء الذى يبدأ ثلجه بالتساقط في شهر اكتوبر فتذهب خضرته وتتلاشى نضرته حتى تنقلب الى موت رمادى يخيل لمن يراه ان لابعث له بعد ذلك.

وخضرة (موسكو) هذه يستغلها أهلها اعلافا لبعض الدواب، وبطاطس رديئة في بعض الأماكن وليست كخضرة بلادنا والبلدان العربية المعتدلة تنتج الغذاء والفاكهة ولذلك يستوردون كل مايحتاجون من ذلك من البلدان المعتدلة، او من المناطق المعتدلة في جنوب روسيا؛ ولكن الشئ المستغل عندهم هنا هو الاخشاب التي تنفعهم في أنواع شتى من انواع الاستعمال.

مطار الجنوب:

قصدنا مطاراً يسمونه (دوما ديدوفا) وهو أحد مطارات موسكو الكبيرة وقد يقولون له (مطار الجنوب) لكونه تطير منه الطائرات التى تذهب الى جهة الجنوب من موسكو ويبعد عن اطراف موسكو بـ٢٢ كيلو مترا، ولكن تقع ما بينه وبين موسكو منطقة ريفية خالصة خالية من المنازل المتراصة، وانما توجد فيها بيوت ريفية متفرقة.

وصلنا المطار في الساعة السادسة عصراً بعد ان قطعنا ٤٥ كيلو مترا، منذ ان غادرنا المركز الإسلامي في موسكو كان الأخوة المرافقون – وهم يعرفون الروسية لأنهم من المقيمين هنا – يسعون في وزن الامتعة ولكن الموظفة المسؤولة عن ذلك وهي روسية كهلة ثقيلة مثل

سائر الموظفات هنا تركت عملها وتركتهم واقفين أمام المكتب ولما سألوها بلطف وهي تنصرف عنهم قالت: إننى متعبة سوف ارتاح وأعود أليكم، إن هذا الكلام لايتصور ان يقوله موظف للمراجعين اثناء عمله، ولاسيما اذا كان العمل يجب انجازه في وقت محدد؛ ولكن المرافقين لم يستنكروا ذلك لما يعرفونه من حدوث أمثاله في هذه البلاد.

وبقينا ننتظر ، ثم مرت فلحق بها أحد الأخوة وسألها عن سبب تعبها فقالت: إن الفيتناميين الذين رأيتموهم عندما وصلتم كانوا عندى ومعهم أمتعة قد زاد وزنها وليس معهم نقود يدفعونها مقابل ذلك، وابطأت الموظفة في غيابها حتى قرب موعد قيام الطائرة فطلبنا من زميلة لها في مكتب مجاور لا يبعد الا بمتر واحد أن تزن حقائبنا وتقطع التذاكر لئلا تفوتنا الطائرة فقالت بغلظة وجفاء: هذا ليس شغلي!

ونسيت أن أقول: إننا عندما وصلنا إلى قرب المطار أنزلنا أمتعتنا من سيارتنا لأنه لايسمح لها بالدخول إلى ساحة المطار الداخلية وحملها الأخوة فى حافلة كبيرة تابعة للمطار مثل غيرنا من الركاب وركبنا معها في الحافلة حتى وقفت بنا عند قاعة الترحيل التى لاتلي رصيف الشارع كما هو موجود في كل أنحاء العالم.

وعندما تأخرت الموظفة ذهب احد المرافقين وهو فؤاد شلحه من إخواننا اللبنانيين المقيمين في موسكو يبحث عنها فلم يجدها، ثم جاءت وفرحنا بعودتها ولكنها دخلت في نقاش مع جارتها التي تعمل في المكتب المجاور، والأخ فؤاد يسمع ويتابع كلامهما لانه يقيم في

موسكو ومتزوج من روسية فعرف أنهما كانتا تتخاصمان على نقود حصّلتاها لقاء أمتعة زائدة على المقرر للركاب وتبين انهما تأخذان ذلك لهما وليس للدولة التى تملك شركة الطيران الروسية (ايروفلوت) التي سنسافر معها.

هذا وقد أعلن المكبر للركاب أن يخرجوا إلى الطائرة ونحن لانزال عندها ثم لم تعطنا بطاقة دخول الطائرة المسماة (بوردنغ باص) وانما طلبوا منا ان نبرز تذاكرنا عند كل باب يخرج منه الى الطائرة.

إلى قازان:

اسرعنا الذهاب الى منطقة الخروج الى الطائرة في الطابق الثاني ففتشوا الحقائب اليدوية واطلعوا على تذاكرنا ثم ودعنا المرافقين وعلى راسهم الأخ سعد الدين اللبان وخرجنا فوراً؛ وقد أرسلوا معنا موظفة أرضية مرافقة من اجل جوازاتنا (الدبلوماسية) فرافقتنا الى حافلة كبيرة فيها معنا اربعة من الركاب الاجانب من باب التكريم حتى صعدنا الى الطائرة؛ أما سائر الركاب من المواطنين وهم جمهور الركاب فقد ساروا الى الطائرة سيراً على الاقدام.

ومن اللافت للنظر أننا وجدناهم قد صفوا سائر الركاب الذين دخلوا الى الطائرة قبلنا واقفين ولم يسمحوا لهم بالصعود الى الطائرة الا بعد ان صعدنا وأخذنا مقاعدنا فيها جريا على عادة قديمة عندهم عرفتها عند مازرت الاتحاد السوفيتى اذ لم يكونوا يصعدون الى الطائرة عند السفر ولاينزلون منها عند الوصول الا بعد الضيوف

الأجـانب، ولـم تكـن هناك ارقـام لمقـاعـد الركـاب لأنهـم لـم يعطونا بطاقات الصعود للطائرة.

وجدنا الطائرة من طراز توبوليف ١٣٤ الروسي الذي يشبه (د سي ٩) الأمريكية التي توقف صنعها الأن، وعندما تكامل فيها الركاب لم يشغلوا الانحو ثلثي مقاعدها، والبقية خالية،

درجت الطائرة في المطار الواسع فكانت المناظر فيه غير سارة منها مستنقع ماء وسخ عند مدخل المطار وهو متخلف من مطر كان قد أصابهم من قبل، ولم يجدوا ما يرشفونه به فضلاً عن أن يمنعوا ركوده هنا واسراب ضخمة من الغربان تقع وتتطاير في المدرج حتى خفت على طائرتنا منها لأن أحدها اذا صادف ومرت الطائرة بالقرب منه ومحركاتها مسرعة ان تجذبه إليها فيعطل المحرك؛ اضافة الى عدم الراحة التى لم نحسّ بها عند الوصول الى المطار بسبب كثرة الناس وقلة اللوحات الارشادية والانتقال بالامتعة على حافلة توصل الى مكان الترحيل مما رسخ عندى ما كنت قد عرفته من قبل وهو أنه من الصعب على الغريب ان يسافر من هذا المطار اذا لم يكن معه من يساعده من سكان البلاد، وحتى اللغة فمعظم الموظفين لايعرفون إلا الروسية التي لايعرفها اكثر الأجانب.

أقلعت الطائرة الى قازان في الثامنة إلاربعاً متأخرة عن موعدها المحدد في الأصل بخمس دقائق وهذا لايعتبر تأخيراً عند شركات الطيران، بل انه شئ جيد في التزام المواعيد، وذكرت بهذه المناسبة ذهابي من موسكو الى قازان في المرة الاولى التي سبقت هذه وان

الطائرة تأخرت ست ساعات وذكرت ذلك في كتابي « **الرحلة الروسية** » المطبوع.

تكلموا من مكبرات الصوت باللغة التتارية لغة البلاد التي نسافر إليها – وهي مشتقة من اللغة التركية القديمة ولذلك يعرفها زميلنا في الوفد الاستاذ رحمة الله بن عناية الله فهو يعرف اللغة التركية وما تفرع منها لانه من أهل تركستان الشرقية الذين نسميهم البخاريين مع انهم بعيدون عن بخارى وقد درس بقية اللهجات التركية دراسة – واعلنوا ان مدة الطيران الى قازان ستكون ساعة وربعاً وقد قرع سمعى من كلامهم جملة: (خير لنغ) فأخبرني الأخ رحمة الله انها تعنى مع كلمة تركية أخرى: نتمنى الخير لكم.

كانت الشمس على وشك المغيب والطائرة تقلع من المطار لأن التوقيت هو بتوقيت موسكو الصيفي الذي يتقدم ساعة عن توقيت المملكة، وينتهي التوقيت الصيفي عندهم في آخر يوم أحد من ايام شهر سبتمبر أو اول يوم أحد من شهر اكتوبر الذي يليه حيث يعود التوقيت المعتاد الذي يساوى توقيت المملكة.

فكان اول ما استرعى انتباهي وجود قطع مظلمة في هذه الساعة من الغروب من الغابات في المنطقة التي كانت في السابق كلها تؤلف غابات كثيفة ملتفة قطعوا ما قطعوه منها من أجل عمارة البيوت او نحو ذلك من الاغراض، وهناك تجمعات سكنية اشبه ما تكون بالغرف الصغيرة وأغلبها نشأت حول مصانع في هذه الأرياف، ثم رأيت على الأرض تحتنا ظلاماً بل ظلامين احدهما من الليل والثاني من الضباب مع ارتفاع الطائرة الشديد.

وكانت ضيافتهم المعتادة في مثل هذه الرحلات الروسية الداخلية هي فنجال من شراب (الكوكاكولا) تقدمه مضيفة عابسة، ومن العادات الحميدة التي رأيناها في طائرات الاتحاد السوفيتى السابق ولازال القوم متمسكين بها منع الخمور والتدخين في هذه الرحلات الداخلية عندهم؛ كما ان من عادتهم غير الحميدة أن تكون جيوب المقاعد في الطائرة خالية من أى شئ يقرأه الراكب، سواء من الصحف والمجلات العامة او من المجلات التي تصدرها شركة الطيران ولم يوزعوا على الركاب أي صحف وانما قامت المضيفة - التى لم ار لها عملاً هي وزميلة لها - بتوزيع هذه الفناجين الصغيرة من المشروب على الركاب وابطأت في اخذها بعد الفراغ منها كما قامت بتوزيع لعب ورقية فيها تسلية للركاب وهي باللغة الروسية ولذلك لم نعرف من امرها الا هذا ولذلك ايضا لم تعرضها علينا كما فعلت مع سائر الركاب.

في مطار قازان:

بدت مدينة قازان من الطائرة على البعد ذات انوار غير ساطعة ولاتدل على العناية الموجودة في انارة المدن في الدول الحاضرة مع انها عاصمة اقليمية مهمة فهي عاصمة جمهورية تتارستان ذات الحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية الى جانب اهميتها التاريخية التي كان منها ان ملكها او سلطانها الذي كان يسمى بالخان عندهم هو الذي يسيطر على منطقة روسيا، الى درجة ان الكيناز وهو الحاكم الروسي الكبير الذي يكون مقره موسكو لايعتبر الروس ان ولايته ثابتة الا اذا صدر مرسوم بذلك من سلطان قازان وقرئ- اي مرسوم

السلطان – في قصر الكرملين في موسكو وقد يأتي الحديث مستوفي عن ذلك فيما بعد؛ ويبدو الريف القريب من قازان عند مشاهدته من الطائرة معتما مع ان بعضه أو أكثره معمور وهذه هي المرة الثانية التى أقدم فيها الى هذه المدينة في الليل.

هبطت الطائرة في التاسعة و٣٦ دقيقة بتوقيت موسكو ويساوى الثامنة و٣٦ دقيقة بتوقيت قازان بعد طيران استمر ساعة و٧ دقائق وليس ساعة وربعاً كما كانوا اعلنوا في الطائرة وقد كان المطار قليل الانوار الى درجة لافتة للنظر حتى النور الذي فيه ليس قويا مع ان قازان واقعة على نهر الفولقا (ايتل) الذي تولد مياهه مقادير ضخمة من الكهرباء وان لم يكن ذلك عند مروره بقازان.

بقي الركاب في مقاعدهم حتى نزلنا من الطائرة فوجدت عند سلم الطائرة عدداً من الاخوة المستقبلين على رأسهم الشيخ عبدالله صفا رئيس الادارة الدينية لجمهورية تتارستان ومعه نائبه واثنان من العاملين في الادارة؛ وقد صحبتنا مضيفة ارضية من المطار كانوا قد أخبروها بقدومنا وَحُمِلَتْ امتعتنا من الطائرة على احدى السيارات ومررنا بمبنى المطار دون ان نقف فيه وانما وجدنا سيارات عدة في انتظارنا منها سيارة رسمية بنفيرها المميز ولونها الاحمر الذي يخولها عدم الوقوف عند اشارات المرور.

في مدينة قازان:

أنزلنا الاخوة في فندق (تتارستان) اكبر فنادق المدينة وقد انزلوني في جناح (سويت) وانزلوا رفيقيَّ كل واحد في غرفة منفردة

ولم نسأل عن الاجرة اذ سوف تدفع دار الفتوى الاجرة للفندق ونحن ندفعها لها بعد ذلك.

وقد وجدتهم وضعوا في غرفة الجلوس من الجناح الذى انا فيه صحنا كبيراً فيه الضيافة من ادارة الفندق تفاحا من انتاج بلادهم وموزاً و برتقالاً مستورداً لأنه لايعيش فيها ومع ذلك شيء من البسكويت وفي ثلاجة الغرفة زجاجات من الاشربة المباحة وهي الكوكاكولا والميرندة والمياه المعدنية المشبعة بالغاز، اضافة الى النقل وهو المكسرات وهو اللوز هنا.

وهذا الفندق جيد نسبيا ولم نسكن فيه في المرة السابقة لأنه لم تكن فيه غرف خالية آنذاك، كانت غرفنا في الطابق الثالث تطل على الميدان المهم الرئيسي في قازان، ووجدنا الأمر لم يتغير بالنسبة الى طريقة الخدمة فيه اذ كل طابق فيه عجوز روسية مسؤولة عن كل شئ فيه حتى مفاتيح الغرف اذ تتسلمها من النزيل عندما يفارق الغرفة وتعيدها إليه عند عودته، واذا نسي وترك المفتاح طلبت منه ان يسلمه لها؛ وقد ودعنا الاخوة المستقبلون الكرام وعلى رأسهم الشيخ عبدالله صفا على موعد اللقاء في التاسعة من صباح غد.

وكانت الساعة قد قاربت العاشرة ولم نتعش فنزلنا الى مطعم الفندق فوجدناه مفتوحاً وفيه عدد من الناس يأكلون فطلبنا من احدى العاملات فيه ان تحضر لنا سمكاً مشويا فقالت لايوجد الآن عندنا شئ، تقول ذلك بغلظة وجفاء مما أثار استنكارنا وقال احد الرفيقين لمديرة على مكتب فيه: كيف تعاملون (دبلوماسيين) بهذا يشير الى الجوازين الدبلوماسيين اللذين أحمل أحدهما ويحمل رفيقى الاخ

حسن ازميرلى الآخر؛ فذكرت أن موعد العمل قد انتهى وان العاملات لايقبلن ان يعملن الآن ثم قالت: إننى سوف اطلب من مدير الفندق أن يكلفهن العمل بأجر من الفندق لكم ثم ذهبت إليه الا أنها عادت تتأسف لعدم امكان ذلك، فصعدنا غرفنا وأكلنا مما كنا نحمله من تمر و بسكويت وصنعنا الشاي في الغرفة ونحن نشاهد تلفازهم الذي هو مثل تلفاز جمهورية روسيا البيضاء التي كنا فيها قبل أيام فهو قليل القنوات وفيه قناة محلية تعرض صوراً ومشاهد مستنكرة.

يوم الاربعاء ١٦/٤/١٤١٥هـ

صباح قازان

أسرع الفجر بالطلوع وأيضاً الشمس بالشروق على عادتها في هذه البلاد الشمالية في فصل الصيف، إذ يسمح ظل الأرض الضيق في طرفها الشمالي بالنسبة الى ظلها الكثيف عند خط الاستواء وما قرب منه ببقاء ضوء الشفق بعد غروب الشمس لمدة أطول من المعتادة في بلادنا كما يسمح بتسرب ضوء الفجر قبل المدة المعتادة.

والعجيب الذي لاحظته هنا أن الفجر ظل مدة مسفراً والقمر منيراً قبل ان تشرق الشمس.

كانت نوافذ الجناح الذي حللت فيه تطل على الميدان المهم عندهم... و لذلك رأيت طوائف من المبكرين الى أعمالهم قبل أن تطلع الشمس، ورأيت وسائل النقل العامة من قطار الكهرباء الذي يسير على عجلات وهو المسمى بالتروموای في مصر وبالترام في لبنان

ومن الحافلات الكهربائية وقد بكرت تحمل الناس على قلتهم في هذا الصباح المبكر؛ وهذه عادة عرفتها عن البلاد الشيوعية، اذ كانوا يعتنون بتوفير وسائل النقل العام مثل هذه لقلة السيارات الخاصة عند عامة الناس، مع حاجتهم الى عدم التأخير عن الحضور الى أعمالهم، وهذه الجمهورية معتبرة جزءاً من جمهورية روسيا الاتحادية وقد طلقت روسيا الاتحادية الشيوعية، الا ان كثيرا من العادات التي كانت موجودة إبان الشيوعية لاتزال موجودة الآن لتعود الناس عليها وعدم وجود الموظفين المدربين على غيرها، وكنت أرى أيضا من نافذة الغرفة سلماً يصعد من نفق تحت هذا الميدان الواسع يخرج منه الناس الى الميدان.

على مائدة المفتي:

في الساعة التاسعة جاءتنا سيارتان صغيرتان احداهما من صنع غربي والأخرى روسية الصنع وفي احدهما الشيخ المفتى عبدالله صفا فذهبنا لتناول طعام الافطار عنده، وذلك لعدم ثقتهم في نظافة مطعم الفندق عن الاشياء المحرمة في الإسلام حتى وإن كانت من اصل حلال كلحم البقر والدجاج إلا أنهم لايستسيغون أكله في الفندق لكونه ذبح بطريقة غير شرعية.

كان الشيخ عبدالله صفا يقود سيارته بنفسه وانا استذكر المرة الاولى التي زرت فيها هذه المدينة ضيفاً على الادارة الدينية لمسلمى سيبريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي وكانت البلاد آنذاك قد أشرفت على عتبة الخروج من الشيوعية الا ان الاتحاد السوفييتى لازال

قائما لم يحل بعد ورئيس البلاد هو ميخائيل قورباتشوف آخر رئيس للاتحاد السوفييتى والأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتى.

وقد كثرت المشاة في الشوارع واهم ما يسترعي الانتباه لباس الأخوات المسلمات من المسنات اللآئي يضعن المناديل البيض السابغة على رؤوسهن بغرض سترها، ومعلوم ان نسبة المسلمين في هذه الجمهورية تكاد تعادل نسبة غير المسلمين فيها من الروس والاوكرانيين والروس البيض ومن لفَّ لفهم من يهود وغيرهم.

وكان ما استرعى انتباهي – وسيارة المفتي تخترق شوارع قازان اذ بيته بعيد عن موقع الفندق ان شوارعها ضيقة إلى جانب اوراق الخريف المبكر التى تتساقط من الاشجار عند أول حركة من الهواء؛ مع أننا في شهر سبتمبر والأعشاب الوحشية يَعنى التى لم تزرع وإنما نبتت عفوا هي أقل اخضراراً ونضارة من أعشاب روسيا البيضاء، وربما كان ذلك لقلة المطر في هذه الأيام في هذه البلاد التى امطارها صيفية، واما في الشتاء فإن البديل عن المطر فيها هو الثلج الكثيف، ومرَّ الطريق فوق جسر على نهر قازان احد النهرين اللذين تقع عليهما المدينة وهما نهر قازان هذا ونهر ايتل (الفولقا).

ومما يجدر ذكره ان معنى قازان: القِدْر بكسر القاف واسكان الدال وقد اتضحت مياه نهر قازان كأنها لكثرتها الخليج الواسع من البحر.

وقد استمرت رؤية وسائل النقل العامة من قضبان الترام الى حبال الحافلات الكهربائية التى تسمى في مصر (التروللى باص) وقد وصلت الى الأماكن البعيدة من ضواحى المدينة ومررنا بحديقة اوراق

الاشجار فيها قد اشهبت مع ان البرد لم يحن بعد ولكن هذه عادتها أن تبدأ الاوراق فيها بالموت في وقت مبكر، مع أن الموسم الآن هو موسم الأمطار وإن لم تنزل عليهم امطار منذ عدة أيام على خلاف العادة؛ ومررنا بعجوز معها فاكهة قد جلست لبيعها في هذا الشارع الذي ليس فيه غيرها من الباعة وليس فيه حوانيت، وتجاوزنا المدينة الى ضاحية تكاد تكون منفصلة عنها فدخلناها ولم نجد اسفلتاً الا في شارع واحد من شوارعها وباقيها فيه حفر ومطبات بحيث لابد للراكب من الامساك بالسيارة الصغيرة وهي تسير فيها لئلا يتقلقل من فوق مقعده فيها.

حى قراواى:

(حي قراواي) فيه بيت المفتى الشيخ عبدالله صفا وتتألف البيوت في الحى من مساكن خشبية مطلية بمايجعلها تبدو بمظهر البيوت الاسمنتية الى جانب بعض البيوت المبنية من الآجر والاسمنت ولكن في داخلها ودرجاتها خشب وكلها على هيئة دارات (فيلات) مسنمة السقوف، وجدنا المائدة في بيت الشيخ معدة عليها الطعام وفيه الفاكهة التى هي مستوردة الا التفاح؛ ومن الفاكهة بطيخ أصفر (شمام) مستورد من طشقند وعنب من اذربيجان وذلك لكون بلادهم باردة لاتنمو فيها من الفاكهة المعروفة الا التفاح والكمثرى والخوخ ولكننا لم نر الا التفاح فيها لقلة المخازن الصالحة لخزن الفاكهة عندهم، وكانت المائدة حافلة بأنواع الطعام، فكان من ذلك العسل الجيد الخالي من الغش ومربى الفراولة الذى رأيتهم يضعون منه مقدار

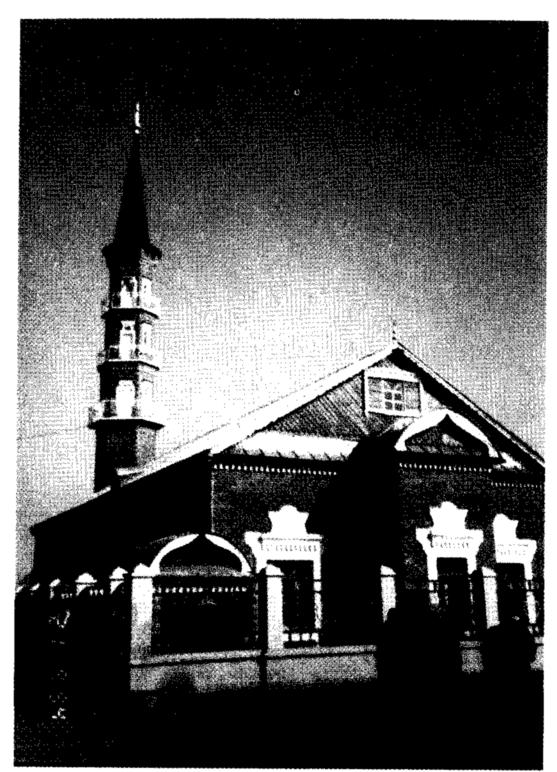
ملعقة على فنجان الشاي، وقد بدأت المائدة بفاتحتها المعروفة بل المشهورة في بلاد التركستان وهي الحساء (الشوربة) الدسمة التى فيها القطع من لحم الغنم اللذيذ وقليل من الشعيرية ثم فطائر محشوة باللحم المفروم ثم الأرز البخاري الشهير ويصنعونه كثير الدسم وكان في المائدة اطعمة اخرى وسلطات وحلوى.

وقد بحثت مع الشيخ المفتى ومساعده برنامج زيارتنا في هذه البلاد وانتهينا من رسمه، وقد حضر المأدبة عدد من المشايخ منهم الشيخ نورالله بن عبيدالله من طشقند كما حضرها ابن للشيخ شاب اسمه إلياس ويدرس في معهد اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، ولكنه حضر من أجل قضاء العطلة المدرسية عند أهله، وشيخ اخر اسمه مارس بن جلال الدين ذكر انه سمي بهذا الاسم لكونه ولد في شهر مارس.

مسجد نور الإسلام:

بعد الانتهاء من ذلك خرجنا لمشاهدة مسجد جديد في الحي بدأوا ببنائه قبل سنوات وأكملوه حديثا وهو مبنى مثل أغلب البيوت في الحي بالآجر الأحمر الجميل وسقفهْ على هيئة سنام قد طلى بطلاء جيد، ذكروا أن هذا المسجد هو اول مسجد جديد في الحي وكانوا يبنون اذا حصلت لهم تبرعات ثم يقفون الى ان أكملوه، وله منارة عالية يبلغ ارتفاعها ٣٥ مترا يعلوها شاهد ذهبي اللون، وأما المنارة فإن بناءها بالآجر الأحمر المجمّل بفواصل من الآجر الأبيض، ومعنى كونه أول مسجد أنه اول مسجد جديد بنى في قازان في العقود الاخيرة

من السنين اذ بدأوا بناءه في عام ١٩٨٥م وبنوا الى جهة الغرب من المسجد مدرسة إسلامية تتوجها أيضاً منارة بيضاء الطلاء يعلوها شاهد أبيض أيضا، ويقع المسجد على شارع معظم بيوته مبنية بالآجر الابيض ومسقفة بالصفيح



[جامع نور الإسلام في قازان]

وهو مثل بقية شوارع الحي أرضه خالية من الزفت وحتى التشجير الذي لايكلفهم كثيرا هو قليل فيه.

الأخ فخر الإسلام:

حضر إلينا رئيس جمعية المسجد واسمه (فخر الإسلام بن شيخ الإسلام) والحقيقة أنه يستحق أن يفتخر به مسلمو الحي لجده واجتهاده في عمارة المسجد وجمع التبرعات له على قلة الميسورين وارباب الأموال هنا، بسبب الوضع الاقتصادى المتردى في البلاد.

حدثنا الأخ فخر الإسلام أن عدد الطلبة الذين يدرسون في المدرسة الإسلامية الملحقة بالمسجد كثير فهناك مجموعات الطلاب الذكور وهي ١٦ مجموعة المجموعة الواحدة تتألف من ٢٠ إلى ٣٠ طالباً، ومجموعة الطالبات ٦ وهي ١٤ مجموعة، وقد قسموهم هكذا من أجل مراعاة ظروفهم في الوقت، ولتنسيق العمل بين المدرسين في المدرسة، وذكروا ان في المدرسة ١٤ مدرساً يتراوح راتب المدرس ما بين ٣٥ الى ٧٠ دولاراً في الشهر، والمراد مايعادل ذلك بالعملة الروسية وهي الروبل الذي تنزل قيمته باستمرار ولذلك لا يعرف مقدار الراتب اذا ذكر بالروبل وحده.

سألت الأخ (فخر الإسلام) عن اسم والده الذي ذكر وذَكر الاخوة معه أنه (شيخ الإسلام) ظانا ان ذلك لقب له وان اسمه غير اللقب، فقال: والدى اسمه (شيخ الإسلام) والا فانه ليس عالماً كبيرا فضلاً عن ان يكون كبير المشايخ كما قد يفهم من لفظ (شيخ الإسلام)، وهذا الاسم مع اسمه هو (فخر الإسلام) يدل على تعلق هؤلاء الاخوة المسلمين بدينهم الإسلامي الحنيف رغم بعدهم عن الحواضر الإسلامية ورغم كيد الأعداء من المستعمرين السابقين ثم الشيوعيين الملحدين الذين تبعوهم.

وفي جولة في المدرسة ومرافق المسجد شاهدنا محلات الوضوء نظيفة جدا، وعليها لافته باللغة العربية، نصها (إن الإسلام نظيف فتنظفوا فأنه لايدخل الجنة الا نظيف)، ولا أدرى من أين جاء كاتبو هذه اللافته بها والنظافة المطلوب ايضاحها فإذا كان المقصود نظافة

الثوب والبدن المطلوبة في الصلاة فان هذا الكلام له وجه يفهم من الحديث ان النبى ﷺ مر على قبرين فقال: «**انهما يعذبان وما يعذبان في كبير، بلى انه كبير أما احدهما فكان لايستبرئ من بوله، وأما الأخر فكان يمشى بالنميمة**» اخرجه البخاري ومسلم.

والاستبراء من البول: التأكد من كونه لم يصب البدن او الثوب منه شئ ولم يغسل، واصله في التأكد من انقطاع البول قبل أسدال الثياب عليه، كما كتبوا الشهادتين (لا اله الا الله، محمد رسول الله) على ادارة المدرسة بخط عربي جميل.

ثم دخلنا الى المصلى الرئيسى في المسجد فوجدناه واسعاً نظيفاً مفروشا ببساط موحد (موكيت) ولكن فوقه أردية من الصوف، وذلك لشدة البرد في الشتاء مع العلم بأن أرض المسجد كلها من الخشب، وفي واجهة المسجد زجاج ملون جميل كتبوا عليه البسملة والآية الكريمة ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [**البقرة**: ١٤٤].

وجميع نوافذ المسجد ذات زجاج ملون بالارجواني والأزرق، وفي آخر المسجد ماسميته بصفوف العاجزين وهي صفوف من الكراسى التي ليس لها اذرع يضعونها في المسجد حتى يصلى عليها العاجزون عن السجود وأغلبهم من المسنين الذين اصيبوا بامراض في ارجلهم بحيث يصعب عليهم أن يثنوها، وهذه الصفوف من الكراسى موجودة في مساجد جميع البلدان الباردة مما جعلنى أتساءل عما اذا كان السبب في ذلك هو البرد وحده، لأنني لم أرها شائعة في

البلدان المعتدلة ولافي البلدان الحارة الا أنني رأيت بعد ذلك ان السبب هو البرد والعادات الغذائية لأهل المنطقة حيث اعتادوا على الاكثار من اللحوم، والاقلال من الخضروات والفاكهة لعدم توفرها في بلادهم وقد قرأت في رحلة ابن بطوطة وهو يتكلم على زيارته لهذه المنطقة في عهد السلطان محمد أوزبك ان النقرس وهو داء المفاصل الذى يصيب أول ما يصيب أصابع القدمين شائع في تلك البلاد وكان يسمى داء الملوك وذلك لكون الملوك في الزمن القديم يكثرون من أكل اللحوم لقدرتهم على ذلك، مع عدم معرفتهم بما يسببه الاكثار منها من ضرر وعدم فهمهم للفائدة الغذائية في تناول الفاكهة والخضروات.

وقد خصصوا قسماً واحداً من مؤخرة المسجد للنساء يصلين فيه.



[الشارع الذي يقع عليه مسجد نور الإسلام في حي سيفرني في قازان]

وفي داخل المسجد الدوائر التي اعتاد الاتراك على وضعها في مساجدهم يكتبون في دائرة منها اسم الجلالة (الله) ثم (محمد) ثم (ابوبكر) ثم (عمر) الى اخر الخلفاء الراشدين او آخر العشرة المشهود لهم بالجنة، وذلك منهم من أجل إظهار أنهم من أهل السنة، وأنهم يخالفون الرافضة الذين يسبون صحابة رسول الله ﷺ ؛ ولكنهم زادوا في هذا المسجد بأن كتبوا اسماء مشاهير الانبياء والرسل مثل إبراهيم وموسى وهارون ولوط واسماعيل عليهم السلام.

في المدرسة الإسلامية:

عدنا بعد الاطلاع على المسجد الى المدرسة لنرى فصول الدراسة فيها العامرة بالطلبة لأننا لم نمر بها من قبل فنزلنا الى طابق اسفل في المصلى فوجدنا فيه فصولاً دراسية واسعة فيها فتيات اعمارهن ما بين الثالثة عشرة الى الخامسة والعشرين، وكلهن قد لبسن لباسا إسلاميا ساتراً، وعلى وجوهن اشراق وصفاء لايوجد في وجوه الكافرات، ومن المفرح أننا نرى السبورة عليها كتابة بالعربية وتفسيرها باللغة التتارية ولكن بحروف عربية على خلاف ماتسير عليه الأمور رسميا في البلاد، حيث يكتبون اللغة التتارية بالحروف السيرلية المسماة بالحروف الروسية وهي حروف سلافية مخالفة للحروف اللاتينية التى تكتب بها سائر اللغات الأوروبية المعروفة كالانجليزية والفرنسية والايطالية، وقد أمتلأ المكان بالطالبات من بنات المسلمين في جو ذي مظهر إسلامي مفرح مما جعلنى أكثر اسئلتي عن عدد الطلبة والطالبات الذين يوجدون في هذه المدرسة لأنها كبيرة متعددة

الفصول، وقد اجابني مديرها بأن عددهم يزيد على (٨٠٠) بقليل.

واطلعنا ايضا على بعض الفصول الدراسية الأخرى ثم انتقلنا الى طابق ثالث فوق المدرسة فرأينا قاعة واسعة فيها فصل دراسي كبير، ولكن في جانب منه كراس موضوع بعضها فوق بعض أخبرونا أن هذه القاعة تستعمل للافطار في شهر رمضان حيث يحضر الناس طعامهم من بيوتهم فيفطرون هنا هم والفقراء والغرباء الذين يحضرون للصلاة.

واخيراً جلسنا في مكتب ادارة الجمعية التي تشرف على المسجد والمدرسة فرأينا المحاسبة وهي مسنة اسمها: زينب ناصر، وذلك على جارى العادة التي عرفناها من الجمعيات الإسلامية التتارية حيث تكون للنساء في النشاط الإسلامي نصيب مثل نصيب الرجال، أو أكثر، وذكرت في ذهنى بهذه المناسبة ماشهدناه في مدينة (غدانسك) المعروفة في بولندا حيث المسلمون كلهم من اصول تتارية ويراس الجمعية الإسلامية أمرأة هي الدكتورة (جميلة نورمان) كما كان عدد الحاضرين المسلمين في الجمعية عندما زرناها من النساء اكثر من الرجال.

هذا وقد اعلنّا لهم تبرع الرابطة بألفى دولار أمريكية سلمناها لهم فوراً لهذا المشروع الجليل، والحقيقة أن هذا المبلغ هو قليل بل ضئيل بالنسبة للحالة المالية في بلادنا ولكنه يعتبر عندهم كبيرا بسبب سقوط عملتهم الروبل وكونهم يشترون معظم الأشياء بها كما يدفعون اجور العمال بها أيضا.

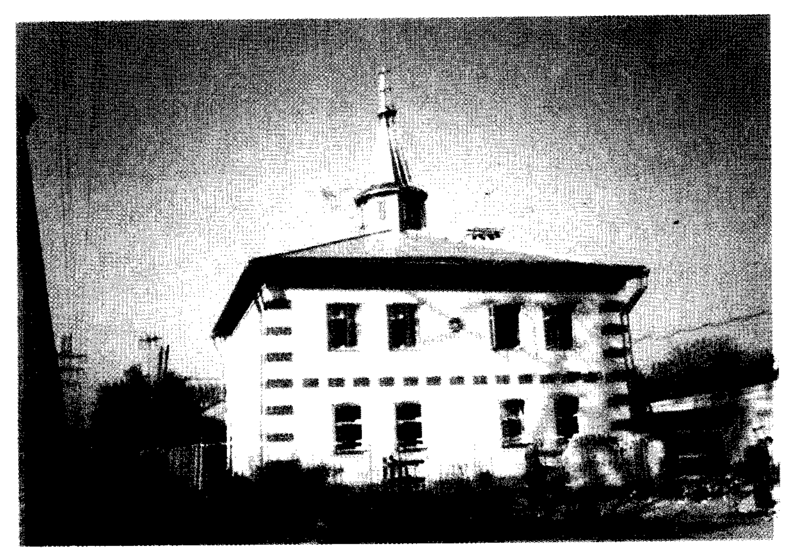
الى مسجد آخر:

تركنا مسجد نور الإسلام ورئيس جمعيته: فخر الإسلام بن شيخ الإسلام – ولم نترك نور الإسلام الحق إن شاء الله – ذاهبين إلى خارج المدينة مارين بضاحية تكثر فيها الأشجار العالية وتكثر الأسوار الخشبية على الأماكن فيها والمراد بذلك ان يكون السور مؤلفا من أعواد خشبية متراصة واقفة، واهم ما يميز الضاحية التي مررنا بها انها غير منسقة وكثيرمن شوارعها غير مزفتة، مع العلم بأن جمهورية (تتارستان) هذه تنتج مقادير مهمة من النفط.

مسجد رمضان:

وصلنا مسجد رمضان في حي يسمى (حى كيروف) على اسم احد الشيوعيين السابقين، ويقع المسجد في أطراف الحي هذا، بحيث يرى كأنما هو في منطقة ريفية، لأن المنازل فيه غير متراصة وتكثر البقع غير المبنية فيه، ومن ذلك منطقة خالية الا من بيوت خشبية من طابق واحد لسكنى بعض العسكريين.

أول مايراه المرء من المسجد منارته الجميلة التي بنوها على هيئة صومعة مربعة مثلما كان أهل الأندلس يبنون المآذن في مساجدهم مربعة يكون أسفلها أعلى من أعلاها ويسمونها صومعة وليست كالمآذن المألوفة في منطقة الشمال المسلم وفي بلادنا من كونها تكون مستديرة. والمسجد مكسو بالآجر الأحمر الجميل والإ فإن بناءه من الاسمنت المسلح القوي.



[مسجد رمضان في حي كيروف في قازان]

وجدنا في الاستقبال عدداً من الاخوة المسلمين المسؤولين عن المسجد على رأسهم الأخ (رستم بن أسعد الله) رئيس جمعية المسجد ويسمونه المشرف على المسجد؛ وقد ذكروا ان المسجد فتح للصلاة قبل شهرين مع أنه لم يكتمل، ولكنهم بحاجة إلى الصلاة فيه، ووقف العمل فيه بسبب قصور النفقة، فقد رأينا الطابق الأرضي منه كله بدون بلاط، اذ لم يستطيعوا تبليطه، ويسعون الى ذلك كما ان بعض الملحقات فيه لاتزال بحاجة الى اكمال.

وللمصلى الرئيس مدخلان يصعد اليه منهما على درج لاتزال الان بحاجة الى تبليط والمصلى جيد السعة، ذكروا ان عدد المصلين صلاة الجمعة مابين ١٣٠ الى ١٥٠ مصليا، رغم كون المسجد فتح حديثا، وأرض المسجد منحت من الحكومة مساحتها خمسة آلاف

متر مربع، وقد بنوا بجانب المسجد مدرسة جديدة البناء وهذا أمر جيد في هذه البلاد أن يبنوا بجانب المسجد الجديد مدرسة إسلامية لتثقيف أبناء المسلمين ثقافة إسلامية وقد بلغ عدد الطلاب الذين يدرسون في مدرسة هذا المسجد ٨٢ طالبا في فصلين اثنين، وخصصوا قسماً منها لتدريس النساء.

ومظهر المسجد كما قلت-جميل مهيب، بحيث يجزم من عاش مثلنا في بلاد تتولى حكومتها اكثر المشروعات الإسلامية أن ثمة حكومة قوية قامت على بنائه، مع أن النفقة عليه كلها من تبرعات الاخوة المسلمين في تتارستان وبعض المؤسسات الخاصة على قلتها، وضعف امكاناتها ولم ترد إليهم أية مساعدات من الخارج، ولاشك ان السبب في ذلك هو عدم معرفتهم بكيفية الاتصال بالاخوة المسلمين في البلدان العربية، وإلا لو كانوا فعلوا لجاءتهم المساعدة لأننى اعرف ان رابطة العالم الإسلامي تحرص على المساعدة في بناء المساجد في البلدان المحتاجة الى ذلك ومنها هذه البلاد.

وبما أن هدفنا من الزيارة المساعدة على اتمام بناء هذا المسجد وأمثاله ومعرفة النشاط المالي في بنائه فقد اعطيناهم ثلاثة آلاف دولار امريكية تبرعاً عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي وطلبنا منهم اذا انفقوها، ولم يجدوا غيرها ينفقون منه على اكمال المسجد أن يكتبوا إلينا بوساطة المفتي الشيخ عبدالله صفا للنظر في أمر ارسال مساعدة مجزية لهم، ودفعنا المبلغ بحضور المسؤولين عن المسجد والمدرسة وحضور رئيس الادارة الدينية في تتارستان الى المسؤول المالي وهو

شيخ مسن اسمه (مَنَّ الله بن هدية الله) وهومن جنود الله المجهولين للناس المعلومين لرب العالمين، اذ رأيناه يعمل في مكتب صغير لا يزيد على مترين في مترين قد شغل سريره جزءاً منه لانه ينام هنا أيضافهو لايفارق المكان والعمل في المسجد وللمسجد يستغرق كل وقته وكل جهده.

ومن الأشياء المؤثرة أن رجلاً مسنا دخل المسجد وهو يرتعش من الكبر ومعه نقود قد وضعها في ورقة وسلمها للمسؤول المالي وقال إنه جمعها من الناس، مع انه مريض هرم يرتعش جسمه ويبلغ من العمر ٨٨ سنة وذلك يساوي بتاريخنا الهجري ٩٠ سنة واشهراً، واسمه: (فاتح بن مصطفى) وشخص آخر اسمه (فخر الدين) ولقد عجبت من اسمائهم التي هي أسماء إسلامية قديمة ولكنها صحيحة المعنى جيدة التركيب، مما يدل على ان القوم يحبون المحافظة على المظاهر الإسلامية القديمة وانهم يشعرون بان الإسلام هو الذي يميز شخصيتهم وهو مصدر فخرهم واعتزازهم على الدهر، وهم على حالة من التقشف في العيش، فضلا عن المستوى المتدني للملابس، بحيث أن اكثرها يعتبر لباس الفقراء، واكثرها لباس المتوسطين وان لم يصل ذلك الى لبس الملابس المهلهلة ولكن ذلك يتجلى في ملابس النساء التي يعتنين بها في العادة بل يتغالين فيها.

ولاشك في ان مرجع ذلك الى الحالة الاقتصادية السيئة التي تتخبط فيها جمهورية روسيا الاتحادية بعد أن تركت الشيوعية، ولم تصل بعد الى الاستفادة من نظام السوق الحر على مستوى الشعب،

فقد استفاد من الحرية الاقتصادية – مع كثرة سكانها – أقلية من أهلها دون اكثرهم، وماتزال حكومتها تسيطر عليها طوائف من الموظفين من غير ذوي الخبرة فى الادارة، وحتى ذوو الخبرة في الادارة لا يستطيعون أن يعملوا بما يعرفون لأن الانتهازيين والمنتفعين من هذا الوضع المتردي لا يتركون لهم المجال في ذلك وما يزال الشعب غير قادر على معرفة كيفية محاسبتهم، بل ان هم كثير من أفراد الشعب والمسؤولين هو تثبيت الانتهاء من الشيوعية، وعدم العودة إليها.

ومررنا بالادارة الدينية لجمهورية تتارستان والمراد بالدين هنا الدين الإسلامي وحده لأن هذه الادارة معنية بشؤون المسلمين وحدهم وهي التي نزورها ونتعاون معها ورئيسها هو صديقنا ومرافقنا الشيخ عبد الله صفا، وإلاَّ فإن في هذه الجمهورية طوائف أخرى غير المسلمين مع أنها فى الأصل كانت بلاد مسلمة خالصة للمسلمين.

ويبلغ تعداد المسلمين فيها نحو٤٨٪ اذ هجَّر الروس اليها منذ استيلائهم عليها قبل اربعمائة سنة أعداداً كبيرة من غير المسلمين من الروس والأكرانيين والروس البيض وأكثرهم من السلافيين ومن غير السلافيين، بل انه قيل لنا ان السكان من غير المسلمين قد تفوق نسبتهم فى هذه المدينة المسلمة نسبة المسلمين وقد صارت لهم الاغلبية العددية على المسلمين فزادوا فيها على خمسين بالمائة ولكن الاخوة المسلمين من سكان القرى والأرياف أكثر.

وقد وُجدت حكومة الجمهورية وهي حكومة اسمية او مظهرية عندما كانت البلاد تعتنق الشيوعية فى عهد الاتحاد السوفيتي وكانت

جزءاً منه وهي قائمة على غير أساس ديني وانما على اساس العقيدة الشيوعية لاتريد ولا تستطيع حتى لو ارادت ان تقول شيئاً او تفعله فى هذا الصدد لأن الاخوة بين الشيوعين هي بزعمهم أعلى من أخوة النسب او الجنس، وعندما سقطت الشيوعية، وسرت الروح الوطنية فى الحكام وجدوا انفسهم فى ورطة سكانية كبيرة، اذ كيف يخلصون من نصف السكان الذين هم الروس تؤيدهم الحكومة الروسية التى تهيمن على البلاد، ولم تستطع هذه الحكومة التتارية الوطنية الا بأن تسهل الاقامة للتتاريين الذين يعيشون في سائر أنحاء الاتحاد السوفيتي اذا ارادوا ذلك، لأن الشعب التتاري عانى اكثر مما عانى أى شعب مسلم ابتلى بالسيطرة الشيوعية على بلاده وعلى مقدراته فقد تشتتوا فى انحاء الاتحاد السوفيتي وتبعثروا على هيئة جماعات صغيرة اضافة الى من هاجروا منهم الى البلدان القريبة من شيوعية وغيرها، ومن هؤلاء التتار من نفوا نفياً جماعيا الى مجاهل سيبيريا وسهول آسيا الوسطى مثل تتار القرم الذين نفاهم الشيوعيون على عهد (ستالين) طاغية الشيوعية السابق وقد ذكرت ذلك مفصلاً فى كتابي : «**بلاد القرم**».

مسجد نور الله:

كان مرورنا بالادارة الدينية من أجل الاطلاع على مسجد كان قد سقط في قبضة الشيوعية فدمرته ثم استعاده المسلمون وصاروا يجمعون المال لاصلاحه، بل بدأوا فى ذلك، وقد دفعتُ لهم بعض المساعدة فى ذلك الوقت، وصاروا يواصلون العمل على اصلاحه،

حتى كاد يكتمل وبخاصة أعلاه وجعلت الإدار الدينية مقرها فى جزء من الطابق الارضى فيه واسموه (**مسجد نور الله**)، ولا ادري ما اذا كانت تسميته هذه قديمة أم مستأنفة.

كان أول ما استرعى انتباهنا ونحن نصل المسجد أن راينا رجلاً يبيع كتباً على عربة ولديه زحام من الناس من المشترين والمطلعين وهي باللغة التتارية ذات الحروف الروسية أو بالروسية نفسها ومع الكتب مصاحف كريمة يشتريها الناس وان كانوا لا يستطيعون قراءة القرآن الكريم ولو قرأوه لما استطاعوا فهم معانيه، ولكنهم يشترونه محبة في القرآن الكريم وتبركا بوجود المصاحف لديهم وأملاً فى ان يتمكنوا هم أو اولادهم من تعلم العربية وفهم القرآن الكريم فى المستقبل، واللافت للنظر ان المزدحمين على هذه المطبوعات الإسلامية هم من سائر الاعمار ورأيتهم يشترون من الرجل؛ فقلت فى نفسي: إن الواجب يقتضي ان نيسر الكتاب الإسلامي مع ترجمة معاني القران الكريم باللغة التتارية وباللغة الروسية لمن يرغب الاطلاع عليها من المسلمين وغيرهم في هذه البلاد لان غير المسلمين يحتاجون الى من يصحح فى اذهانهم المفهوم الخاطئ عن القرآن الكريم وعن الإسلام بصفة عامة، فقد شوهت صورة الإسلام في اذهانهم نتيجة للتعصب الصليبي أيام حكم القياصرة الروس الطويل على هذه البلاد ثم تعصب الشيوعيين ضد الدين ذلك التعصب القائم على الالحاد.

صعدنا الى الطابق الثاني من المسجد حيث تقام صلاة الظهر فصعدنا مع درج طويلة وعالية حيث رأينا المسجد قد أكتمل بناؤه فى هذا الطابق على غاية من الجمال والاناقة، حتى إنهم طلوا أكثر

الأشياء فيه باللون الذهبي كالثريات الكبيرة والنوافذ التي جعلوا زجاجها ملوناً بديعاً .

جولة فى قازان :

سبقت لي رؤية مدينة قازان، ومع ذلك لم اكتف بتلك الرؤية لأنها لم تشمل المدينة كلها إضافة الى أنها قد مضت عليها قرابة خمس سنين، اذ كانت في عام ١٤١٠هـ.

كان الجو شامساً دفيئا يغري بالجولة ولذلك بدأنا السير بوقفة على جسر تقع مياه نهر إيتل (الفولقا) على يمينه ونهر قازان على يساره وتأملت هذا البحر الخضمّ من المياه العذبة التى لا يحتاجونها فى أغلب الاوقات لكون الامطار تسقط عليهم غزيرة ثابتة الموعد فى الصيف، كما تتساقط الثلوج عليهم باستمرار فى فصل الشتاء فقلت: سبحان الله الذي اعطاهم ولكنهم ذكروا لي ان الثلج يستمر سقوطه لاشهر متطاولة حتى يكادوا ينسون شهور الصيف حيث تعقم فيه ارضهم عن الانتاج، بحيث لايجدون ما يقتاتون به هم وانعامهم إلا ماخزنوه مما زرعوه او حصلوه منها فى وقت الصيف من ثمار وأعشاب، لذلك قلت: إن الذي غبطهم على الأول لاشك فى انه سوف يرثي لهم للثاني وقد اخبرونا بهذه المناسبة بان الامطار جاءتهم غزيرة فى هذا العام ويلتقي نهر قازان وايتل فى هذه المنطقة عند المدينة .

ونظراً الى كونى قد وصفت مشاهدتي عند زيارتى لمدينة قازان فى المرة السابقة في كتابي « **الرحلة الروسية** » فاننى لن أذكر هنا الا

ما رأيته جديداً او ما لم يذكر في السابق.

ولم نطل التجوال فى المدينة وانما عدنا الى وسطها حيث يكثر المشاه من المارة في شوارعها فلا يتخيل المرء وهو يراهم إلا أنه فى بلاد أوروبية، وذلك لكون القوم ذوى مظاهر اوروبية من البياض الناصع والشعر الأشقر، بل ربما كان الشعر الأشقر فى هذه البلاد اكثر مما يراه المرء فى باريس مثلا، ولكن الفرق واضح اذا تأمل المرء في مظاهرهم ميز الفرق بينهم وبين الأوروبيين من ناحية الصحة والنظارة، ومن حالة الغذاء التي يلمحها المرء على الوجوه فالقوم هنا تظهر على بعضهم علامات نقص التغذية.

وقد ادركنا الامام قبيل اقامة الصلاة واسمه (محمد صادق)، وهو مبعوث من ادارة الشؤون الدينية في تركيا لامامة المسلمين في هذا المسجد، ويعرف اللغة العربية معرفة لابأس بها، وقد أدى الصلاة معنا ١٦ شخصاً إضافة الى عددنا نحن مع مرافقينا الأربعة وهذا عدد لابأس به بالنسبة الى كون صلاة الظهر تقع في وقت العمل الرسمي؛ ومن المفرح ان نصف المصلين من الشبانّ الذين لم يكتمل الشعر في وجوههم بعد إذ كان اداء الصلاة مقصوراً في السابق – اى في زمن العهد الشيوعي – على كبار المسنين المتقاعدين.

وبعد الصلاة تجولنا في المسجد الذي يعتبر تحفة من التحف رغم الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمربها البلاد من الناحية الاقتصادية كما سبقت الاشارة الى ذلك، ثم نزلنا بعد الصلاة الى الطابق الارضى في المسجد الذي لايزال العمل يجرى في اصلاحه، وفي جزء

منه قد تم اصلاحه تقع مكاتب الادارة الدينية، وفي اجزاء أخرى مدرسة للنساء ومحلات واسعة للوضوء منها قسم منفصل تماما عن قسم الرجال حتى في الدخول والخروج اليه مخصص للنساء دون الرجال، ومخازن للكتب راينا فيها مقادير كبيرة من كتب تعليم العربية لغير العرب مرسلة اليهم من مصر وذكر لنا الشيخ المفتى عبدالله صفا انهم يوزعون منها على الناس في هذه البلاد ويخصون بذلك في المقام الأول المدارس وجمعيات المساجد، وان بعض الاخوة يشترونها شراء اذا لم يحصلوا عليها بالمجان؛ قال: وحتى بعض المدارس الحكومية نرسل لهم نسخاً منها ولا ادري كيف يكون ذلك اذا كانت تلك المدارس لا تعلم العربية.

في الادارة الدينية:

ومما سرني اني رايت في الادارة الدينية الآت مكتبية حديثة وهي آلة تصوير الأوراق واخرى للحاسب الآلي وآله كاتبة عربية واخرى روسية فقال الشيخ المفتى وهو يشير اليها: هذه كلها منكم فتذكرت اننا كنا قد ارسلناها اليهم ماعدا الآلة الكاتبة الروسية فانهم اشتروها من هنا بمبلغ مرسل من الرابطة، وقالوا واعادوا القول: ان هذه الآلات الحديثة لم تحظ بها اكثر الجهات الحكومية في البلاد، ولذلك كان وجودها لدى الادارة الدينية مزية ظاهرة؛ قالوا لنا ذلك اثناء تجوالنا على مكاتب الادارة الدينية في الطابق الارضي من هذا المسجد الجميل.

ثم جلسنا في الادارة الدينية نتذاكر احوال المسلمين في هذه

البلاد فكان مما استرعى انتباهنا بالاضافة الى الترميم الجيد في هذه المكاتب غرفة لتعليم اللغة العربية عن طريق المشافهة ومكتبة صغيرة في الادارة فيها كتب عربية وتتارية بالحروف الروسية والحروف العربية وكتب أخرى في الروسية، وفيها مصحف حديث الطباعة كتب عليه بالعربية : (طبع هذا القرآن المجيد من اصل المصحف الشريف المطبوع بقازان سنة ١٩١٣م) . وفي هذا التاريخ لم تكن الشيوعية قد بسطت سلطانها على البلاد اعنى عام ١٩١٣م، وقاموس عربي روسي في مجلدين وكتاب (معلم ثاني) لتعليم العربية ايضا، وذكروا لنا ان المشكلة التي تواجههم فيما يتعلق بالكتب الإسلامية ليس عدم إقبال الناس عليها وانما غلاء اثمانها بالنسبة الى امكاناتهم المالية اذ عليهم ان يشتروها لطلاب المدارس والفصول الإسلامية الذين لايستطيعون شراءها بأنفسهم .

المسجد الأزرق:

غادرنا وسط المدينة القديم حيث مسجد (نور الله) الذي يقع على شارع رئيسى في هذا القسم من المدينة اسمه شارع كيروف، ذاهبين الى المسجد الأزرق فسلكنا شارعاً رئيسياً واسعاً اسمه (شارع تتارستان) تقع عليه أبنية عالية أغلبها مما اسميتها بالعمارات الشيوعية ان صح التعبير لانها الابنية العالية التى تبنيها الحكومات الشيوعية شققاً سكنية صغيرة من اجل إسكان الناس فيها بأجور رخيصة تتماشى مع دخولهم المتدنية إبان العهد الشيوعي، وذلك لكون الحكومة هي الجهة الوحيدة المرخص لها ببناء المساكن، فلم يكن

الناس باستطاعتهم ان يبنوا لهم مساكن بأنفسهم وحتى لو استطاعوا ذلك فان الحكومة لاترخص لهم به؛ لذلك تبني مثل هذ الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابق في ضواحي المدن.

ووقفنا عند (المسجد الأزرق) وبلغتهم (هو زنقر مسجد) لهذا المعنى، وهو مسجد قديم، بل مركز إسلامي تليد يضم مساحة واسعة تجعله أشبه مايكون بالمجمع السكني المتكامل، فقد بني فيما بين عام (١٨٠٠، ١٨١٢م) اي ان بناءه قد استغرق اثنتي عشرة سنة ولذلك صادره الشيوعيون وشغلوه مع مرافقه بأشياء لهم، اما المسجد بمعنى المصلى الرئيسى فقد حولوه الى مصنع، وبذلك اسأوا اليه اكثر من الاساءة الى الابنية الأخرى التي تتبعه فقد حولوه الى طابقين بأن جعلوا فيه سقفا إضافيا لأن المسجد في أصل بنائه مرتفع كالعادة في بناء المساجد القديمة وغيرها من الأبنية المعتنى بها التى تعد لدخول أعداد كبيرة من الناس كالقصور.

وقد حاول المسلمون استرجاعه من السلطات بالطريقة المعتادة فلم يستطيعوا ذلك فعمدوا الى طريقة أخرى وهي أنهم عملوا تجمعا كبيرا من المسلمين واخذوا يتظاهرون أمام المسجد مطالبين باعادته مسجداً ومنعوا العمال من الدخول للعمل فيه، فاضطرت السلطات الى اعادته للمسلمين وذلك في أول ديسمبر من عام ١٩٩٣م ثم استعادوا مبنى آخر ملحقا بالمسجد في فبراير عام ١٩٩٤م، غير أن الأجزاء الأخرى او المنشاءات الملحقة به وان كانت منفصلة عنه فان بعضها لاتزال بيد الحكومة ولم تعد للمسلين ويقولون إنهم واثقون

أنهم يستطيعون أن يسترجعوها غير ان المشكلة التي تواجههم هي إيجاد الأموال اللازمة لترميمها لأنها صارت في حالة سيئة يستدعي اصلاحها وجعلها صالحة للاستعمال الحصول على أموال ضخمة، وهم الآن يعملون في اصلاح المسجد.

وتتألف المرفقات المذكورة من مدرستين كبيرتين؛ اي مبنيين لمدرسة ومنزل للإمام وارض واسعة جدا ملحقة بهذه المرافق وبيت آخر ولكل هذه الأبنية الى جانب الأرض صارت الآن ثمينة تساوى مبالغ كبيرة من المال، لأن موقعها في وسط المدينة القديم الجيد في حي يسمى (حي التتار)؛ كما يقع مقابلا للمسجد مبنى كبير وسط فناء واسع كان مدرسة إسلامية ايضا ولكن الحكومة جعلته مقرا لاحدى المدارس الحكومية ولايزال كذلك.

وقد تجولنا في المسجد وفي هذه المرافق كلها ورأينا بيت الإمام لايزال مشغولا بأربع أسر يعجب المرء من استطاعتها البقاء فيه، مع أنه مبنى قديم ولكن هذه هي حال الناس في البلدان الشيوعية: أن يكونوا معدمين، بحيث يريدون الحصول على اي سكن لهم ولأسرهم ولوكان ضيقا او غير ملائم، ولكونهم ليست لديهم وسيلة للحصول على سكن آخر؛ قال الاخوة المرافقون: المشكلة الآن أن هؤلاء الساكنين في بيت الامام يقولون لنا إننا مستعدون للخروج اذا وفرتم لنا مسكنا غيره وان الحكومة ايضا تقول: إنه لا مانع لديها من اخراجهم الاكونها لاتجد لهم مساكن بديلة، وهذا من اعجب العجب الا تستطيع حكومة من الحكومات توفير هذا العدد القليل من المساكن لشعبها.

وكنا قد رأيناحالات مماثلة في البلدان الشيوعية السابقة في روسيا الاتحادية وغيرها من ذلك بلاد القرم التي لاتمانع حكومتها في اعادة جميع المساجد التي صادرها الشيوعيون الى المسلمين ولكن شرط ان توجد لمن يشغلونها مساكن غيرها، ولكنها حكومة ضعيفة عديمة الامكانات حتى ان المسلمين يعترفون بذلك؛ والأسر التي تسكن في بيت الإمام مختلطة بعضها من المسلمين وبعضها من غيرهم.

ومن اللطيف في هذا الأمر أنه يوجد مكان خال في أسفل بيت الإمام حولته زوجة الامام الى مدرسة اي كُتَّاب تدرس فيه البنات الصغيرات مبادئ الدين الإسلامي.

والحي الذي يقع فيه المسجد يسمى (حى التتار) كما أسلفت، وكان بقاء التتار فيه اجبارياً في القديم حيث كانت السلطات الحاكمة لاتسمح لهم بالسكن في الحي الروسى، أما الآن فإن الأمر قد تغير وصار سكان الحي مختلطين من الروس والمسلمين الذين يقصد بهم هنا التتار.

الشمس والقمر في المسجد:

ولو كان المراد بالشمس المشرقة التي لاشمس غيرها لما احتاج الأمر الى هذا العنوان، ولكن المر اد به امرأة مسلمة مسنة تبلغ من العمر ٨٩ سنة بالتقويم الميلادي الشمسى ويساوى ذلك اكثر قليلا من احدى وتسعين سنة بتقويمنا العربي القمرى، رأيناها ونحن نتجول

على المنازل التي اقيمت على فناء المسجد وهي احد عشر مسكنا فيها ١١ أسرة الا مسكنا صغيراً من الخشب ليس فيه الا إمراة واحدة، خرجت الينا فاذا بها عجوز مسنة ومع ذلك لابأس بمنظرها لولا أنها ترتعش اذا سارت، او وقفت، قلت : اسألوها عن الذي سوغ لها ان تسكن في ارض المسجد بدون رضا المسلمين؟ فأجابت : انها تسكن هنا منذ (٢٥) سنة وانها تريد ان تنتقل منه، ولكنها لا تجد مكانا آخر تسكن فيه، وقالت إنَّ أمنيتها ان تنتقل من هذا المكان قبل أن تموت لأنها تعلم انه لايجوز لها البقاء فيه لأنه مسجد معد للصلاة وليس للسكن.

وذكرت ان اسمها (شمس قمر بنت زاهد الله) وهذا هو سبب هذا العنوان ولوكان العنوان : الشمس والقمر تغتصب المسجد لكان له وجه، وذكرت انها مسلمة بنت مسلمين وأنها تصلى، وأنه ليس لها من الأقارب الا ابنة واحدة تحضر لها الطعام ولكن لها حفيد واحد.

وقد وعظتها في انه ينبغي لها ان تترك المكان حتى يقتدى بها الآخرون، ولكون ذلك يساعد على أن يستفيد المسلمون من هذا المسجد فيصبح عامراً بالمصلين يذكر فيه اسم الله، بعد ان كان الشيوعيون لايذكرون فيه إلا اسم لينين وستالين، وقد وعدت بذلك ودعت لنا بالتوفيق.

وَجُلْنَا على مساكن أخرى مبنية في فناء المسجد بالآجر ولاتزال مسكونة ذكر الأخوة المرافقون وهم من المسؤولين في الإدارة الدينية التي هي مختصة بمثل هذه الأمور أنهم وعدوا بالانتقال في عام

١٩٩٥م بالاتفاق مع الحكومة التي ستبحث لهم عن مساكن.

وقد خرج بالفعل بعض السكان وهدمت الغرف التي كانوا بنوها في فناء المسجد هدمها المسؤولون القائمون على اصلاح المسجد.

أما منارة المسجد فقد هدم الشيوعيون أعلاها حتى يمحو أي أثر باق يدل على أن المكان كان في وقت ما مسجداً ولكن ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ⑧﴾ [**الصف**] فقد عقد الأخوة القائمون على المسجد العزم على اعادة بناء المنارة وانجزوا الرسوم اللازمة لذلك الا انهم يقولون: إن اصلاح المسجد نفسه أولى بأن يقدم على اصلاح المنارة.

اما المدرستان فان احداهما مبنية بناء قويا ومطلية بطلاء اصفر مزين بأبيض وهي الأحدث بناء من المدرستين وذلك أنها مبنية بالاسمنت او بالحجارة أو الآجر، اما الأخرى وهي القديمة فانها مبنية على طراز البناء القديم عندهم وهو البناء بالخشب نظراً لوفرة الاخشاب عندهم لكونه من إنتاج بلادهم ولكونه- أيضا - يتحمل البرودة الشديدة اكثر من الحجارة والاسمنت بمعنى انه لايوصل البرودة الى داخل المنزل كما تفعل الحجارة والاسمنت.

ويقع المسجد ومنشآته على شارعين احدهما اسمه (شارع ناريان) وهو الشرقي والثاني (شارع كريم حسن) وهو الشمالي، وقد التقطنا صوراً تذكارية في هذين الشارعين بعد أن رأينا المنشآت التابعة للمسجد من الاتجاهين.

وقد تيقنت بذلك مما قلته من قبل من أن الأخوة المسلمين

القدماء من اهل هذه البلاد الشمالية يجعلون مساجدهم بمثابة المراكز الإسلامية التى تشتمل على المدارس والمرافق والمؤسسات الإسلامية الاخرى، مثلهم في ذلك مثل اخوانهم المسلمين في البلدان الشرقية من تركستان الى الصين، وقد شاهدت ذلك ووصفته في كتبى التي ألفتها عن تلك المناطق؛ وقلت للإخوة المرافقين وفيهم المسؤول مباشرة عن إعمار ماتسلموه من المسجد وتوابعه: إن فخامة هذه المباني يجعل من اعادة عمارتها عبئاً مالياً كبيراً عليكم فقال: هذا هو الواقع وقد شعرنا به فأعلنا في الأذاعة والتلفاز اننا نحتاج الى تبرعات كبيرة قال: ولكن النتيجة ليست على قدر ما أردناه فقد تلقينا تبرعات غير كافية ونحن لا نلوم الناس لان الظروف الاقتصادية والمالية لهم ليست على مايرام.

فقلت له: إنه ينبغى لكم ان تعلنوا في العالم الإسلامي ذلك او على الأقل أن تكتبوا الى الجهات والمؤسسات الإسلامية التي تُعنى بأمور الاخوة المسلمين في الخارج لمساعدتكم، فنحن في رابطة العالم الإسلامي – على سبيل المثال – لم نعرف أي شئ عن الموضوع قبل أن نراه والا لكنا نظرنا في صرف مساعدة جيدة من الرابطة وكتبنا لأهل الخير والمتبرعين للمؤسسات الإسلامية في بلادنا للإسهام فيه.

ثم صعدنا مع سلم خشبى مخصص للعمال الى المصلى الرئيسي في المسجد في الطابق الثاني أي الذي فوق الارضي فوجدنا المسجد واسعاً مؤلفا من ثلاثة اقسام كل قسم بعد الآخر اذا بدأ المرء من عند المحراب، وكل قسم مفصول عن الآخر بجدار وباب واسع على

عادتهم في ذلك فمثلا جامع المرجانية وهو الكبير العامر منذ سنوات في المدينة هو كذلك مؤلف من ثلاثة اقسام يدخل من احدها على الاخر، وقد رأيناهم يصلحون المسجد الازرق هذا الا انهم تركوا العمل فيه قبل ثلاثة ايام لعدم وجود النفقة، اما الطابق الأسفل او الأرضي الذي يقع تحت المصلى الرئيسي فان فيه مرافق المسجد من محلات الدفء وغرف أخرى، وقد دفعنا لهم تبرعاً عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي ليصلوا به ما انقطع من العمل بسبب قصور النفقة مع وعد صادق -إن شاء الله- بأنهم ان احتاجوا الى زيادة مساعدة وكتبوا لنا بوساطة أخينا المفتى رئيس الإدرارة الدينية فإننا سوف نرسل لهم تبرعاً مجزياً، ان شاء الله تعالى.

حي باومن:

عدنا مرة ثانية الى المرور بشارع تتارستان الواسع، حتى وصلنا الى حي اسمه (باومن) ذكروا أنه سمي على اسم احد عتاة الشيوعية من رفقاء لينين واسمه (باوه من رايون) وهو يهودى و (الكلب أنجس ما يكون اذا اغتسل) كما يقال في المثل القديم، ولا أدرى لم يبقى اهل هذه المدينة على أسماء الطغاة من الشيوعيين الذين اذاقوهم عذاب الدنيا مع ان اكثر المدن التي كانت شيوعية قد غيرت تلك الأسماء حتى الذين تربطهم بهم رابطة قومية.

جامع اسكي طاش

والهدف من الذهاب الى هذا الحي هو رؤية مسجد هناك اسمه

(جامع اسكي طاش) بمعنى الحجر القديم لأن (اسكي) قديم بالتركية وطاش: حجر، وينطقون به ما بين تاش - بالتاء - وطاش بالطاء مع أن حرف الطاء لايوجد في التركية ولكن مثله في ذلك مثل التاء في طشقند التي صرنا نكتبها بالطاء وان كان اسلافنا العرب يكتبون اسمها القديم (شاش) فيقولون: بلاد الشاش.



[مسجد اسكي طاش في قازان]

لقد صادر الشيوعيون (مسجد اسكي طاش) في أول الثورة الشيوعية وبالتحديد في عام ١٩١٨م واتخذوه نادياً ثقافياً ثم استعاده المسلمون فبدأوا بتعميره بمبلغ مالى حصله لهم الشيخ الدكتور صالح السدلان من المملكة العربية السعودية، بل قالوا: ان هذا التبرع السخي هو الذي جعلهم يستعيدونه ويعيدونه الى ماكان عليه مسجداً يذكر فيه اسم الله؛ وقد

كتبوا عليه لافتة، بالعربية:« تتارستان قازان شهرى مسجد صالح السدلان » واعيد افتتاحه فى ١٨ اكتوبر ١٩٩٣م والى الشمال من المسجد مدرسة واسعة تتبعها أفنية واسعة كانت مدرسة إسلامية تابعة للمسجد والآن فيها مدرسة حكومية ثانوية.

وتتبع المسجد مساحات واسعة من الاراضي بجانبه تابعة للمسجد فى الأصل، ومقبرة جماعية، وفى جهة من الأرض التى كانت من ممتلكات المسجد ولازالت اراض خالية يأمل الاخوة المسلمون في استعادتها كما أشار اليه المسؤولون عن المسجد والمرافقون قائلين: هنا دفن جماعة من اهل قازان من علماء وزعماء ممن قتلهم (ايفان الرابع) قيصر روسيا عندما احتل قازان، وقال احدهم: بل ان القتلى هم من جيش خان قازان ابن ملكها قتلهم الروس هنا بعد التغلب على قازان، قالوا: وحفر الروس حفرة كبيرة رموهم فيها جميعا واهالوا عليهم التراب.

وايفان الرابع هو المشهور في الكتب العربية وغيرها بايفان الرهيب وهو عند الروس (ايفان المدهش) لأنهم لقبوه (قروزني) التي تفسر بمعنى رهيب ومدهش والأخير أقرب الى الصواب.

ثم دخلنا الى المسجد الذى كان واسعاً ولكن الشيوعيين قسموه الى غرف واسعة عندما استولوا عليه، فأبقى المسلمون على بعض تلك التقسيمات لكون عدد المصلين لا يحتاج الى كل مساحة المسجد، وخصصوا بعضها مدرسة إسلامية خالصة ذكروا ان الدراسة فيها ستبدأ من اول اكتوبر القادم والمراد بذلك كُتّاب صغير وهذا جيد

منهم أن يفكروا في إيجاد كُتّاب وحتى فصل دراسي في كل مسجد يُعلِّم ناشئة المسلمين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف ويرشد الكبار ايضا لأن الجميع لايعرفون من الإسلام شيئاً فقد وصلوا الى حالة يصدق عليها ما جاء في الأثر: « يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام الا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه »، بل إن أهل هذه البلاد لم يبق عندهم حتى ولا رسم القرآن، لأن الشيوعيين حرموا عليهم اقتناء المصاحف والكتب الإسلامية واحرقوا ما استطاعوا الوصول إليه منها، حتى اضطر بعض المسلمين الى اخفاء المصاحف والكتب الإسلامية في المقابر بدفنها مع الموتى حتى يأذن الله تعالى لها بالبعث والنشور، وهذا أمر تأكدنا من الحديث عنه في عدة بلاد من بلدان المسلمين التي ابتليت بالشيوعية.

كان يرافقنا في الإطلاع على المسجد الأخ (راوى بن شاهد الله) رئيس جمعية المسجد، ومعه بعض الأخوة العاملين في المسجد حيث قدم لنا الشاي والخبز في مكتب التعمير الملحق بالمسجد وافادوا بأن المسجد لايزال بحاجة الى اتمام ترميمه برفع الحواجز التي كان الشيوعيون قد أحدثوها فيه حتى يعود الى هيئته الأولى.

وقد قدمنا لهم تبرعاً رمزيا عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي للإسهام في الترميم وان كان لايكفى لكل ما ارادوه من ذلك.

المجرى المائي الفاصل:

ودعنا الأخوة الكرام أهل مسجد (اسكي طاش) تلفنا مشاعر من الأسى والفرح مبعث الأولى تلك الأحداث التي ذكرتنا باستيلاء

الغزاة المتعصبين بقيادة القيصر ايفان الرهيب على هذه البلاد المسلمة التى هي أبعد البلدان الإسلامية جهة الشمال أو لنقل إنها أقرب البلدان المسلمة الى القطب الشمالى وكان نفوذها، بل وممتلكاتها تصل شمالا الى ارض الظلمات التي هي الأراض القطبية سميت بذلك لكونها لاترى الشمس في الشتاء أشهراً أو أياما حسب بعدها من القطب نفسه او قربها منه.

أمَّا مشاعر الفرح فانها بإنهزام الشيوعيين، واستعادة مساجد المسلمين التي نرجو ان يستعيدوا معها ثقافتهم الإسلامية العتيدة، وبالتالى مجدهم السابق وذلك يوم أن يتخلصوا من ربقة الحكم الاجنبي ويملكوا أمرهم بأنفسهم.

وسرنا عائدين مع احدى ضواحى قازان فوصلنا الى مجرى ماء واسع كالنهر الصغير يسمونه (بولاق) ذكر الاخوة المرافقون باهتمام أن هذا النهر كان ذا معنى كبير في القديم حيث كان يفصل في السكن بين المسلمين والروس فما كان يمينه فهو مخصص لسكن الروس اي للمنازل التي سكن فيها الروس وما كان من جهة اليسار فهو مخصص للمسلمين والمراد بالمسلمين هنا المواطنون البلغار الذين صاروا يسمون الآن بالتتار؛ ولا تجيز الحكومة ان يسكن احد من المسلمين مع الروس فيما اذا استطاع احد منهم ذلك واراده.

كان ذلك في العصر القيصرى الروسى، وقد ألغى بعد الثورة الشيوعية والآن اختلط الفريقان في المساكن وغيرها في البلاد.

ومن الأشياء التافهة أنني كنت بحاجة الى دفتر صغير يقيد الأشياء التي يخشى عليها النسيان فدخلنا متجراً مهما عندهم فاذا به

فقير في بضاعته، وحتى البضائع فيه غير جيدة، ومع ذلك كان التشدد في الاجراءات عظيما فقد اشتريت الدفتر بنصف دولار ولايساوى عندنا ربع هذا الثمن لانه صغير جداً وقليل الورق واحتاج الأمر في اكمال الشراء الى جهد تمثل في كتابة (فاتورة) من عدة صور وأن ننتظر فراغ الموظفة التى كتبتها لوقت ليس بالقصير بالنسبة الينا، ثم وقفنا أمام الخازنة وهي أمينة الصندوق التى كانت تؤدى عملها بدون أي شعور بقيمة الوقت او بمجاملة المشترين فوقفنا عندها أيضا فترة .

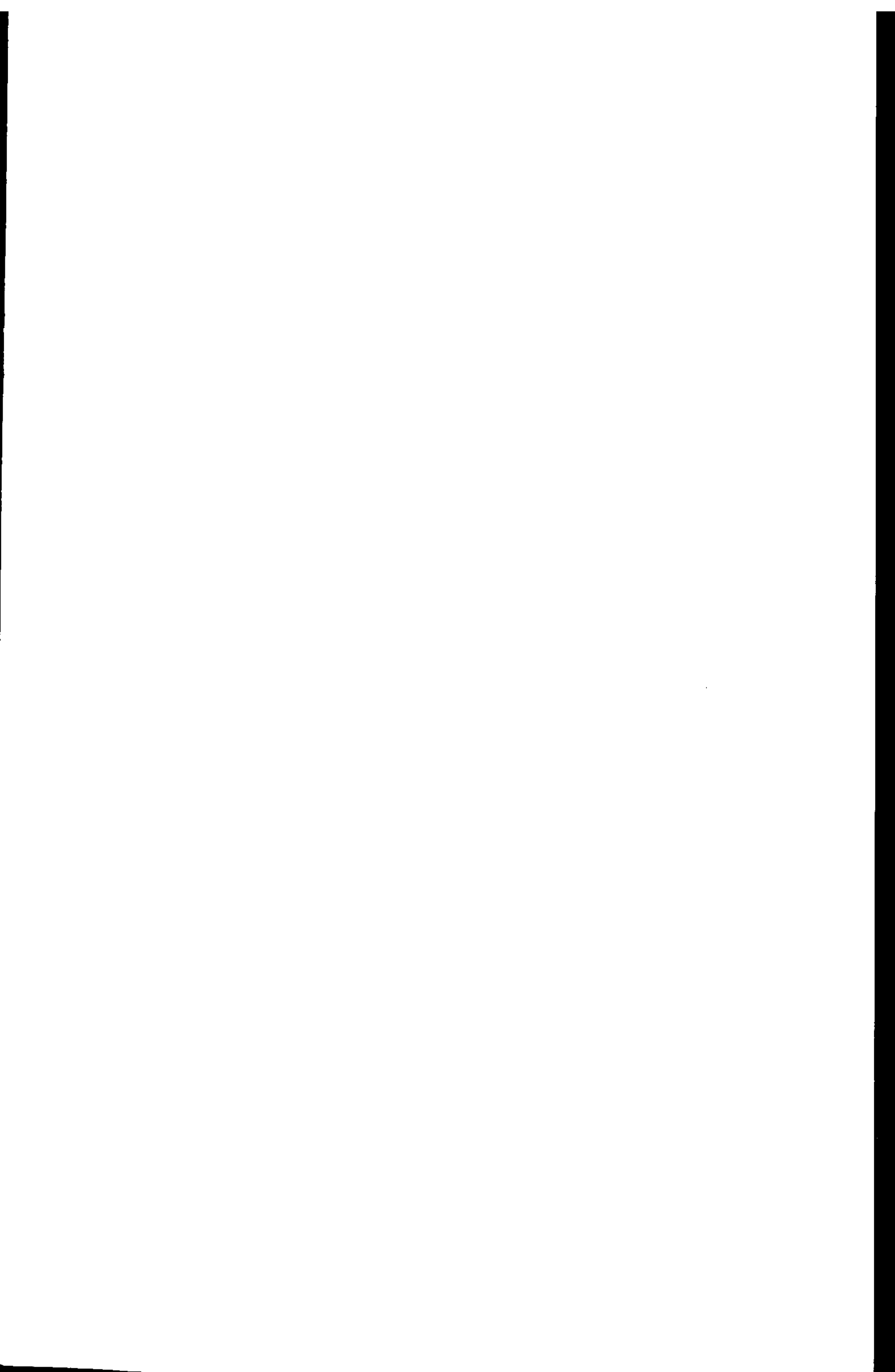
وعدنا الى وسط المدينة مع شارع (كارل ماركس) ابرز منظري الشيوعية وراسم خططها وشهرته تغني عن تفصيل ذلك فقد نسبت اليه الشيوعية نفسها فقيل (الماركسية)، ولم يغيروا اسم الشارع بعد أن سقطت الشيوعية وصار أهلها يتبارون في بيان مفاسدها ونشر مخازي الذين قاموا على تطبيقها في بلادهم، ورأيت في هذا الشارع الذي لم نقف فيه صورة مؤثرة لجماعات من الناس من رجال ونساء ينتظرون قدوم القطار الكهربائي (الترامواي) لكي ينقلهم الى الاماكن التي يريدونها .

ومع ان وسائل النقل العام متوفرة في المدينة مثل غيرها من المدن الشيوعية السابقة فانه يحدث أحيانا ان يحصل خلل فيها او اضطراب في مواعيدها فيقع ذلك بمثابة المصيبة على مستخدميها نظراً للفساد الادارى والعجز الحاصل في الدوائر الحكومية في هذه المرحلة الفاصلة بين الشيوعية والرأسمالية .

وقد عجبت لامتداد الشوارع بل لسعة مدينة (قازان) حتى عرفت ان الإحصاءات الحكومية التي اجريت عام ٨٩م تقول: إن سكان مدينة قازان يبلغ عددهم مليونا وخمسمائة الف من مجموع سكان جمهورية تتارستان الذين هم ثلاثة ملايين وثمانمائة الف وهذا معناها أن نحو ٤٥٪ من السكان موجودون في العاصمة.

ولاشك ان هذا عدد قليل جدا اذا عرفنا ان نسبة المسلمين في الجمهورية كلها هو نحو نصف عدد السكان واما البقية فانهم من غير المسلمين من المهاجرين او المهجرين اليها من أنحاء روسيا والبلدان الدائرة في فلكها مع ان هذه البلاد كانت تحكم المنطقة الروسية التي فيها موسكو وكانت تسيطر على معظم الأراضي الروسية الشرقية ولكن أهلها المسلمين تعرضوا في تاريخهم الطويل بعد الاحتلال الروسي وفي عهود القياصرة الى حملات من الابادة والتنفير والتغريب اضافة الى ما شاهدته في عدة اماكن يقطنها هذا الجنس المسلم الذي يسمى بالتتار من ان المسلمين ليس من عادتهم أن يتزايدوا أكثر من غيرهم الا بنسبة ضئيلة فتعدد الزوجات عندهم لايوجد والوعي بزيادة النسل حتى من زوجة واحدة ليس منتشراً مثلما هو منتشر في اوزبكستان على سبيل المثال.

ولاشك في ان هذه ناحية نقص ينبغي التفكير في تغييرها وسوف تاتي بقية من الحديث في هذا الموضوع - إن شاء الله - .



بلاد البلغار

ربما يتذكر القارئ الكريم ما قلته في مقدمة الكتاب من كون هذه البلاد كانت بلاد البلغار المسلمين وقلت إنّ اهلها كانوا ولا يزالون هم البلغاريين ولكن الروس اطلقوا اسم التتار عليهم لكونهم من رعايا حكومة التتار المسلمة، وقلت: اني ذكرت أنها بلاد التتار تمشياً مع المعروف الشائع.

غير أنني أقول هنا: إن مدينة (بلغار) التاريخية لا تزال تحتفظ باسمها التاريخي وبالأوراق الرسمية وغيرها حتى اليوم، وان الغرض من الزيارة اليها هو زيارة لمنطقة مسلمة قديمة تميز اهلها بكونهم أسلموا في اوائل القرن الرابع الهجري حباً في الإسلام من دون حرب او غزو، بل من دون اى ضغط.

والغرض الآخر من الزيارة هو الاطلاع على مسجد في هذه المدينة التاريخية التي لاتزال خرابا يبابا ولكن نشأت بقربها بلدة سارع اهلها المسلمون بإنشاء مسجد كبير فيها وارسل لنا المفتي الشيخ عبد الله صفا يطلب المساعدة على بنائه حيث إن أهله قد بذلوا الوسع في جمع التبرعات وقطعوا اكثر مراحل بنائه ولكنهم يعانون من قصور النفقة.

ولا شك ان منظر المنطقة التي حول مدينة (بلغار) التاريخية – التي لا تزال تسمى بهذا الاسم– يدل على ان المنطقة كلها هي منطقة بلغارية وهذا امر مسلم به تاريخيا، ويدل عليه القياس العقلي في الوقت الحاضر لأن التاريخ لم يسجل ان أهل بلغار أبيدوا عن آخرهم بسبب من الأسباب او أجلوا عن بلادهم جلاء جماعيا، وانما تغيرت

تسميتهم فصاروا يسمون التتار بعد ان كان اسمهم (البلغار) وقد نسي اسم البلغار الا في بطون كتب التاريخ وفي آثار هذه المدينة التي تُسمى مدينة (بلغار) حتى الوقت الحاضر.

ولضحالة المعلومات عن هذه الجهة من بلاد الإسلام الشمالية النائية في أذهان اخواننا وابنائنا في البلدان العربية ولعدم معرفتهم بتاريخها رأيت ان انقل نصاً مطولاً من كتاب كتبه أحد أبناء هذه الطائفة البلغارية من المسلمين وهو من أهالي قازان، وقد كتب كتابه باللغة العربية وطبعه في المنطقة نفسها ، اذ كانت طباعته في المطبعة الكريمية والحسينية في مدينة أورنبورغ التي هي الآن اقليم من اقاليم جمهورية روسيا الاتحادية، الخارج عن الحدود الادارية لجمهورية تتارستان ولكنه كان مركزاً ثقافياً للمسلمين، بل كان مجالاً للثقافة العربية الإسلامية، واسم المؤلف هو: محمود، الرمزي، واسم كتابه «**تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار**»، وقد تم طبعه في عام ١٣٢٥هـ اى قبل الحكم الشيوعي في روسيا.

وقد حظر تداوله في زمن الحكم الشيوعي واصبح اكثر ندرة من المخطوط، وقد بحثت عنه طويلاً حتى وجدت نسخة منه في مدينة « أوفا » عاصمة جمهورية بشكيريا عام ١٤٠٦هـ حصلها لي أحد الأخوة واستكتمني ذلك الأمر.

فوجدت الكتاب في مجلدين يقعان في ١٢٤٩ صفحة، وهو كنز ثمين لتحقيق ما ورد في كتب التراث العربي القديم وتطبيقه على ما يعرفه اهل المنطقة عن بلادهم، اضافة إلى رجوعه إلى مصادر تركية

وهي الكتب التي ألفها علماء المنطقة او ما جاورها في تاريخها باللغة التركية أو اللهجة التي يتحدث بها اهل المنطقة من تلك اللغة، كما انه رجع إلى كل الكتب التي ألفت عنها بالعربية مثل كتاب المرجاني وهو الشيخ شهاب الدين افندي المرجاني الذي نسب إليه جامع المرجانية في قازان ولم أطلع عليه،

ولندرة كتاب (تلفيق الأخبار) وصعوبة الاطلاع على نسخة منه حتى في المكتبات العربية فضلاً عن الحصول على نسخ منه، ولكونه جمع فأوعى في تعريف البلغار وما كتب عنهم في اللغة العربية رأيت نقل ما ذكره هنا بنصه الا أشياء تخرج عن المقصود او لا حاجة إليها فقد حذفتها فأصبح ما نقلته عنه أشبه بالملخص وإن كان المحذوف قليلاً، قال - رحمه الله -:

«إعلم أن لفظ بلغار كما أنه كان علماً لبلدة مخصوصة كذلك كان يطلق على سكنة تلك البلدة ونواحيها وما يجري فيه حكمها كما يجري فى سائر اسامى البلدان الكبار مثل بخارى وخوقند والروم كما قال بعض السياحين بلغار اسم الجيل والامة واسم الناحية والمملكة واسم المدينة فلذلك ترى من تصدى لبيان احوالها يطلق تارة لفظ (بلغار) ويريد به بلدة مخصوصة ويطلقه اخرى ويريد به مملكة وناحية ويطلقه ويريد به قوما مخصوصين كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فاحفظه وضبطه (بُلْغَار) بضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وبعدها الف والراء المهملة هذا هو الصحيح وان قال فى القاموس انه على وزن قُرْطَق يعني بغير الف (بُلْغَر)

والعامة تقوله بلغار يعني بالالف لكن صاحب البيت ادرى بما فيه ويقال له ايضا : برغار وبرغر بالراء بدل اللام على الوجهين (وبلار) أيضا بفتح اللام وحذف الغين حتى قال البعض انه الاصل فيه والبقية محرفة منه ويقال له ايضا (بلكان) بالكاف الفارسية بدل الغين والنون بدل الراء كماسيجئ كل ذلك - ان شاء الله - ولكن الاول هو الصواب والمشهور وعلى الالسنة مذكور وفي الكتب مسطور.

فاذا عرفت ذلك فاعلم ان عادة المتأخرين من المؤرخين - خصوصا في تاريخ مملكة غير معلومة- قد جرت بالبحث اولا عن احوال ارض البلدة او الكورة اوالناحية المقصودة بالبيان وبيان سمتها وموقعها وطولها وعرضها ويسمى هذا عندهم جغرافيا ثم يثنونه ببيان اهلها وسكانها وبيان احوالهم وعاداتهم وطرق معاشهم ودياناتهم ويسمى عندهم اتنوغرافيا بالتاء اوالثاء ولاعلينا ايضا ان نقتفى آثارهم فى ذلك لكونه انفع وافيد فيما هنالك مع قولهم : ان التشبه بالكرام فلاح.

فنقول : إن الارض التى بها قوم (بلغار) ومدينتهم وما جرت فيه احكامهم وكثر فيه جولانهم اعنى ما يطلق عليه مملكة بلغار فهى وراء جبال قفقازيا متوغلة فى الشمال وهى غير بلغار طونة الآن وإن كانتا في الأصل متحدتين ولايتعلق غرضنا ببيان بلغار طونة الا استطرادا كما سيجيء فيمكن لنا أن نحدها بحسب حكمهم في غالب الاوقات والاحوال شرقا بجبال اورال ونهره المسمى عندنا معاشر المسلمين بنهر جايق وغربا بملتقى نهري اوفا وولغا الذي فيه الآن نيزني نووغورود وما يحاذيه من طرفي الجنوب والشمال وجنوبا بولايات

ستراطاو وبنزا وطامبوف وطولا وشمالا الى آخر المعمورة اعني البحر المتجمد الشمالي فإن السيّاحين والجغرافيين الذين وردوا الى بلغار حين كانت معمورة لم يذكروا وراءبلغار سوى ارض الظلمة وذلك لعدم طلوع الشمس فيها في بعض ايام كل سنة وكثرة الامطار والثلوج والمشاجر فعلى هذا يكون بعض بلاد برداس داخلا فيها ولكن لابأس بذلك فإن هذا التحديد تقريبي لاتحقيقي فإن تلك المملكة قد اتسعت احيانا جدا حتى استوعبت جميع الاراضي المذكورة الى اقاصي طونة وجبال بلقان واطراف قسطنطينية كما سيجيء وقد تضايقت جدا بحسب التقلبات والتطورات حتى اضمحلت بالكلية او كادت وعرض عليها اسم آخر احيانا كما ستقف عليه – إن شاء الله تعالى– ونحن انما حددنا ما تطاول فيه جولانهم واشتهر باسم «بلغار» وامتد فيه دورانهم وجولانهم.

أما الحد الشرقي فارجو أن يكون قريبا من التحقيق فإن المفهوم من كلام اكثر السيّاح ان قوم باشقرد كانوا في حكومة بلغار ويؤيده انتساب القوم المذكورين الى بلغار قديما وحديثا وإن كان كلام بعض السيّاح يوهم خلافه واما الحد الغربي فارجو ان يكون ايضا قريبا من التحقيق وسيجيء في كلام كارامزين مؤرخ الروسية ما يدل عليه.

والحد الشمالي ايضا لايبعد من التحقيق وانما الكلام في الحد الجنوبي والأمر فيه سهل وقد بينا فيه عذرنا واما نفس بلدة بلغار فقد كانت في قديم الايام من المدن القديمة البناء مشهورة معمورة مقصودة بالتجارة من جميع الجهات وكما انها كانت من المدن المتقدمة

بحسب البناء والحدوث كانت أيضا من المدن المتقدمة بحسب تمدن اهلها وتقدمهم في المعارف بالنسبة الى اكثر بلاد أوروبا واقدم البلاد إسلاما من بلاد اوروبا بعد بلاد الاندلس.

واما الآن فهي خربة مابقي منها شيء سوى بعض آثارها مثل منارة بعض جوامعها وبعض الابنية وآثار سورها واطلالها الدارسة.

واما موقعها : فانها كانت في نهاية بلاد اوروبا الشرقية وأواخر المنطقة المعتدلة الشمالية وباعتبار تقسيم المتأخرين واقعة في جهة الشرق الشمالي من نهر ادل المشهور الآن عند الروسية ومن يشاكلها بنهر وولغا «الفولقا» على بعد نصف فرسخ منه بعيد ملتقى قطعتيه الكبيرتين اعني وولغا وقاما وباسم آخر جولمان حيث العرض الشمالي خمس وخمسون درجة الا شيئاً يسيرا والطول الشرقي ست وستون درجة وخمسون دقيقة على ما يظهر من خرائط الروسية كافة وهم(١) يعدون الطول من ساحل المحيط الغربي تبعا لليونانيين القدماء فيكون الطول من جزائر الخالدات ستا وسبعين.

وقال الملك المؤيد ابو الفدى في تقويم البلدان ان مدينة (بلار) يقال لها بالعربي (بلغار) هي بلدة في نهاية العمارة الشمالية وهي قريبة من شط اتل من البر الشمالي الشرقي وهي وسراي في بر واحد وبينهما فوق عشرين مرحلة وهي في وطأة من الأرض والجبال عنها اقل من يوم وبها ثلاثة حمامات واهلها مسلمون احناف ولايكون بها شيء من الفواكه وحكى لي بعض اهلها أنه في اول فصل الصيف

---

(١) هذا متقدموهم واما المتأخرون منهم فيعدونه من بطربورغ. اهـ منه.

لايغيب الشفق عنها ويكون ليلها في غاية القصر.

وهذا الذي حكاه صحيح موافق لما يظهر بالاعمال الفلكية لأنه من عرض ثمانية واربعين ونصف يبتديء عدم غيبوبة الشفق في اول الصيف وعرضها اكثر من ذلك فصح ماتقدم على كل تقديره اهـ.

واختلف فيمن بناها وانها متى بنيت قال في روضة الصفا إنه بناها بلغار بن كمارى بن يافث بن نوح عليه السلام وان اهلها من ذريته فسميت البلدة والمملكة وذريته باسمه وقيل بنيت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعصرين وقيل بناها ذو القرنين حين خرج من الظلمة ومات بها وقيل غير ذلك.

وحيث إنه لم يوجد تاريخ لذلك لايمكن التكلم بالظن والحسبان فيما هنالك ولا فائدة في سلوك مالا يعرف من المسالك.

واما احوالها الاتنوغرافية اعني احوال اهلها فقد أُخْتُلِف فيهم ايضا كمثل الاختلاف المتقدم فقيل: إنهم من الترك وقيل بل قوم متولدون بين الصقالبة والترك، وقد مر آنفا نقلا عن روضة الصفا انهم من ذرية بلغار بن كمارى بن يافث فيكونون من ذرية ابن اخي الترك ان قلنا ان الترك ولد يافث من صلبه على ماهو الصحيح ومن ذرية اخي الترك ان قلنا انه ابن كومر بن يافث على ماذهب اليه البعض كما سيجيء بناء على كون (كمارى وكومر) شخصا واحدا.

قال فيها -أي في روضة الصفا-: إن كمارى بن يافث كان رجلا متعيشا محبا للصيد وكان يركب دائما وكان له ميل تام الى

المتنزهات فانتهى سيره مرة في اثناء اصطياده الى حدود بلغار فرآها ارضا طيبة الهواء وصحراء منتزهة فاستوطن بها وكان له ابنان احدهما بلغار والآخر برطاس فاختار كل منهما محلا لنفسه وعمر فيه العمائر باسمه وصار كل منهما يصطاد الثعلب والسمور والسنجاب وصنعوا من جلودها البسة حسنة اهـ.

وقال ابو الغازي بهادر خان في تاريخه إن يافث بن نوح استوطن بحدود ادل[1] وجابق ومات بها ثم ارتحل ولد الترك الى طرف الشرق اهـ. فعلى هذا يكون بلاد بلغار اصل وطن يافث جد الاتراك وغيرهم ولنذكر هنا ماذكره الجغرافيون والسّياحون من المسلمين وغيرهم في حقهم من المعلومات.

قال ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري القرطبي الاندلسي بعد بيانه مملكة الخزر ويتصل بهذه «يعني مملكة خزر» مملكة البرغر «يعني البلغار» وملكها الآن مسلم اسلم بعد العشرة وثلاثمائة برؤيا رآها وذلك ايام المقتدر وكان هذا الملك يغزو القسطنطينية في نحو خمسين الف فارس ويشن الغارات الى بلاد رومه والجلالقة والافرنج ومنه الى قسطنطينية نحو من شهرين وهم امة شداد لاتطاق والفارس منهم يقاتل امة من الروم ولايمتنعون منهم الا بالجدران والليل عند البرغر في غاية القصر سائر السنة يزعم احدهم انه لايقدر ان يطبخ قدره حتى يصبح ويتصل بهؤلاء الروس اهـ قوله سائر السنة الخ لايخفى ما فيه.

---

(١) ادل هو إيدل أو إيتل او نهر الفولقا.

وقال المسعودي في مروج الذهب : ومدينة البلغر على ساحل بحر مانطش وارى انهم في الإقليم السابع وهم نوع من الترك والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم اليهم إلا ان ذلك من بوادي غيرهم من الترك « يعني الاقوام القزاقية » والقواقل مخفرة منهم وملك البلغر في وقتنا هذا وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مسلم اسلم في ايام المقتدر وذلك بعد العشر والثلاثمائة وذلك لرؤيا رآها وقد كان له ولد حج وورد مدينة السلام يعني بغداد وحمل معه المقتدر لواء وبنودا ولهم جامع وهذا الملك غزا القسطنطينية في نحو خمسين الف فارس فصاعدا فشن الغارات حولها الى بلاد رومية والاندلس وارض برجان والجلالقة والافرنجة ومنهم الى القسطنطينية في خليج آخر من البحر الرومي لامنفذ له الى غيره وانتهوا الى بلاد حرفيدية واتاهم في البحر جماعة من البلغر ينجد ونهم واخبر وهم ان ملكهم بالقرب وهذا يدل على ما وصفنا من ان البلغر تتصل سراياها الى ساحل بحر الروم وكان نفر منهم ركب في مراكب الطر سوسين فاتوا بهم الى بلاد طرسوس. والبلغر امة منيعة عظيمة شديدة البأس ينقاد اليها من جاورها والفارس ممن قد اسلم مع ذلك يقاتل المائة والمائتين من الكفار ولايمنع اهل القسطنطينية منهم في ذلك الوقت الا سورها وكذلك من في هذا الصقع لايعتصم منهم الا بالحصون والجدران والليل في بلاد البلغار في نهاية من القصر في بعض السنة ومنهم من زعم ان احدهم لايستطيع ان يفرغ من طبخ قدره حتى يأتي الصباح انتهى.

قلت مراده ببحر مانطش هو بحر ازاق[١] فقوله ان البلغر على

---

(١) هو البحر الأسود.

ساحل بحر مانطش خطأ بل بينهما مسافة بعيدة وقد خطأه ياقوت الحموي في معجم البلدان ولكن وقع في نسخته[١] لفظ برغر بدل بلغر ولذا قال بعد ان ذكر جميع ماذكره المسعودي قلت: إن جميع هذه الصفة هي صفة بلغار وما اظنها إلا واحدا وانهما لغتان فيه وليس فيه ما انكرته إلا قوله ان البرغر على ساحل بحر مانطش وما اظن بينه وبين ساحل بحر مانطش الا مسافة بعيدة انتهى ماذكره الحموي.

قلت قد تقدم منا ان بلغار يقال له ايضا برغر وبرغار وقد مر اطلاق برغر في كلام ابي عبيد البكري ايضا.

وقال منجم باشي في تاريخه: بلغار وهؤلاء ايضا من اولاد يافث ويقال لهم ايضا برغر وبرغار منسوبون الى الصقع الذي يسكنون فيه.

وقال شمس الدين الدمشقي واما البلغر فمنتسبون الى الصقع وهم مسلمون أسلموا ايام المقتدر وبعث ملكهم الى المقتدر يطلب منه فقيها يعرفه قواعد الإسلام فاجابه الى ذلك ثم وصل جماعة من البلغر الى بغداد يريدون الحج فاقيم لهم من الديوان الإقامات الوافرة وما استعانوا به وسألهم سائل من اي الامم انتم وما البلغر فقالوا قوم متولدون بين الترك والصقالبة.

وقال في موضع آخر: وعد صاعد الاندلسي فيهم اي في الترك الخزر والبلغار اهـ.

---

(١) اعني نسخة مروج الذهب الذي بيد الحموي.

تنبيه، قال ابن الاثير في الكامل في اثناء ذكره حوادث سنة ثلاث وثلاثين واربع مائة وفيها وصل جماعة من البلغار الى بغداد يريدون الحج فاقيم لهم من الديوان الاقامات الوافرة فسئل بعضهم من اي الامم هم وما البلغار فقال هم قوم تولدوا بين الترك والصقالبة وبلدهم اقصى الترك وكانوا كفارا فاسلموا عن قريب وهم على مذهب ابي حنيفة -رضي الله عنه اهـ- .

قلت هذا الكلام إما مبني على اشتباه عام ورود البلغاريين الى بغداد على ابن الاثير او على تعدد ورودهم اليها مرة في العام الذي ذكره المسعودي اعني بعد الثلاثمائة وان لم يذكر التاريخ، ومرة العام الذي ذكره ابن الاثير فإن المسعودي قال ان ذلك في زمن المقتدر ولاشك ان موت المقتدر سنة ٣٢٠هـ فبين ماذكره المسعودي وماذكره ابن الاثير ازيد من مائة سنة واما ما ذكره شمس الدين الدمشقي فيحتمل كلا منها لانه ماذكر التاريخ ولكن سياق كلامه حيث ذكر ورودهم الى بغداد بثم عقيب ذكر اسلامهم يوافق كلام المسعودي وان الفاظه وعباراته مطابقة لالفاظ ابن الاثير وعباراته والله سبحانه اعلم وعلمه اتقن واحكم.

وقال في رسالة الانتساب: وارض البلغار بلاد الاتراك الإسلامية أسلموا في الدولة العباسية في خلافة المأمون والواثق وأسلم مرة في خلافة القائم بامر الله ثلاثون الف خركاه[1] هـ.

قلت الظاهر من كلام ابن الاثير ان هؤلاء الذين أسلموا في عهد

(١) الخركاه: الخيمة الكبيرة.

القائم كانوا من اهل دشت القبجق[1] فانه قال في حوادث سنة ٢٣٥هـ أسلم عشرة آلاف خركاه من كفار الترك وكانوا يصيفون بنواحي بلغار ويشتون بنواحي بلاساغون اهـ والخليفة وقتئذ هو القائم بامر الله.

وقال ابو علي احمد بن عمر بن دستة وقيل داسة في كتابه المسمى بالاعلاق النفيسة: الفصل الثالث في ذكر بلكارا: وبلكار متاخمة لبلاد برداس وهم نزول على حافة النهر الذي يصب في بحر الخزر المسمى اتل وهو بين الخزر والصقالبة وملكهم يسمى المش وهو ينتحل الإسلام وارضوهم غياض ومشاجر ملتفة وهم حلول فيها وهم ثلاثة اصناف صنف منهم يسمى بوصولا والصنف الآخر اسفل والثالث بلكار ومعاشهم كلهم في مكان واحد والخزر تتاجرهم وتبايعهم وكذلك الروسية اليهم يصيرون بتجاراتهم وكذلك كل من كان منهم على حافتي ذلك النهر يختلفون بتجاراتهم اليهم كالسمور والقاقم والسنجاب وغيره، وهم قوم لهم زرع وحراثة يزرعون كل الحبوب من الحنطة والشعير والدخن وغير ذلك واكثرهم ينتحلون دين الإسلام وفي محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وائمة والكافر منهم يسجد لكل من لقي من محبيه وبين برداس وبين هؤلاء البلغارية مسيرة ثلاثة ايام يغزونهم ويغيرون عليهم ويسبونهم ولهم دواب ودروع وسلاح شاك، وهم مؤدون الى ملكهم الدواب وغير ذلك واذا

---

(١) يعرف دشت القبجق الآن بصحراء القازاق.

تزوج الرجل منهم اخذ[١] الملك منهم دابة دابة واذا جاءتهم سفن المسلمين للتجارة اخذوا منهم العشر، وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين واكثر اموالهم الدلق وليست لهم اموال صامتة وانما دراهمهم الدلق[٢] يتروج الدلق الواحد فيهم بدرهمين ونصف وانما يحمل الدراهم المدورة البيض من نواحي الإسلام يبتاعونها منهم.

وقال الشيخ زكريا بن محمد بن محمود القزويني في كتابه عجايب[٣] المخلوقات وغرايب الموجودات: بلغار مدينة على ساحل بحر مانطش قال ابو حامد الاندلسى هى مدينة عظيمة مبنية من خشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط وحولها من امم الترك مالايعد ولايحصى وبين بلغار وقسطنطينية مسيرة شهرين وبين ملوكهم قتال ياتى ملك بلغار بجنود كثيرة ويشن الغارات على بلاد[٤] قسطنطينية والمدينة لاتمتنع منهم الا بالاسوار حكى ابو حامد الاندلسى ان رجلا صالحا دخل بلغار وكان ملكها وزوجته مريضين ميؤسين من الحياة فقال لهما ان عالجتكما تدخلان في دينى قالانعم فعالجهما فدخلا في دين الإسلام وأسلم أهل تلك البلاد معهما فسمع

---

(١) ولعل مراده بذلك ان اخذ العوائد الميرية مختص بالمتزوجين.

(٢) الدلق يقال له بلغة أهل قزان تين والمراد جلده وهو حيوان مثل الفأرة البرية ولهذا يقال بين أهل قزان إلى الآن للكابيك الروسي تين.

(٣) له كتابان كلاهما مشهوران بهذا الأسم إلا ان احدهما يختص باسم آثار البلدان أو آثار البلاد وهو مطبوع وهذا منقول عنه وإنما بنينا الأمر على المشهور في التسمية. ا هـ منه.

(٤) قلت وهذا وما مرّ عن المسعودي والبكري كله صريح في ان بلغار قزان هجموا على القسطنطينية مراراً ولا ذكر له في كتب الافرنج وإنما المهاجم عليها في كتبهم بلغار طونة بعد استيطانهم هناك في حدود سنة ٢٧٥م إلا ان نقول إن علاقتهم لم تنقطع من هناك بالكلية في عصرهم واظن ان مصدر هذا القول هو المسعودي فقط والباقون نقلوا كلامه من غير تحقيق فلا يبعد ان يشتبه على المسعودي البلغار وسنشير إلى ذلك فيما بعد أيضاً إن شاء الله تعالى. ا هـ منه.

بذلك ملك الخزر فغزاهم بجنود عظيمة فقال ذلك الرجل الصالح لاتخافوا واحملوا عليهم وقولوا الله اكبر ففعلوا ذلك وهزموا ملك الخزر ثم بعد ذلك صالحهم ملك الخزر وقال انى رأيت فى عسكركم رجالا كبارا على خيل شهب يقتلون اصحابى فقال الرجل الصالح اولئك جند الله وكان اسم ذلك الرجل بلار فعربوه وقالوا بلغار هكذا ذكر القاضى البلغارى فى تاريخ بلغار وكان من اصحاب امام الحرمين وملك بلغار فى ذلك البرد الشديد يغزو الكفار ويسبى نساءهم وذراريهم واهل بلغار اصبر الناس على البردوسببه ان اكثر طعامهم العسل ولحم القندز[1] والسنجاب.

وقال في تواريخ البلاد والعباد الذى الف فى عهد السلطان محمد جابى ابن يلدرم بايزيد وهو بلسان تركى مامعربه: بلغار هذه محاطة من الجوانب الاربع بالكفار وقد حفظها الله سبحانه في وسطهم وملك البلغار من اولاد الاسكندر قيل الاسكندر[2] لما خرج من الظلمة اقام فى بلغار الى ان توفى بها واهل بلغار ارباب الديانة واصحاب المهابة والشهامة وسيرتهم حسنة طيبة والواجب على كافة اهل الإسلام ان يمدوهم بالدعاء حتى ينتصروا على الكفار

وقال فى مجمع الأنساب ما معربه: البلغار واقعة بين المغرب والشمال وقريبة من القطب الشمالى ولهم مدينتان يقال لاحداها

---

(١) هذا وان صح في حق الكفار منهم لكنه غير صحيح في حق مسلميهم فأنه حرام.

(٢) قلت ارادبه ذا القرنين بناء على الغلط المشهور بين الناس من ان ذا القرنين هو الاسكندر وهو غلط صريح وخطأ محض وان قال به الجم الغفير والجمع الكثير. اهـ منه.

سوار وللاخرى بلغار وبينهما مسيرة يومين وبينهما نهر وبساحل ذلك النهر مشاجر كثيرة وهم كلهم مسلمون يحاربون الكفار دائما وفى غاباتهم يكثر وجود الثعلب والسنجاب والقندز اهـ.

وقال ابو عبد الله الغرناطى: البلغار ذات الجانبين بيوتهم من الخشب وهى على ساحل نهر اتل وجامعهم فى السوق والسوار ايضا على ساحل ذلك النهر وبيوتهم من اللبد ولهم مزارع والخير بها واسع

وقال ايضا: ولسان الخزر والبلغار واحدة ولكن لسان البرطاس مغايرة وبلغار اسم مدينة وبها المسجد الجامع واهلها مسلمون وبقربها ايضا مدينة يقال لها سوار وبها ايضا مسجد جامع ويكون بهما عشرة الاف بيت وابنيتهم من الخشب ومن مدينة الاتل (وكانت مدينةبموضع حاجى طرخان) الى بلغار نحو مسيرة شهر من البر ويصعد من مقدار شهرين وينزل من بلغار الى مدينة الاتل فى مقدار عشرين يوما

وقال ابو عبيد البكرى وبلاد بلكان متاخمة لبلاد فرداس بينهما ثلاثة ايام ومنازلهم على شاطئ نهر اتل وهم بين فرداس وصقلاب وهم قليلو العدد نحو خمسمائة اهل بيت وملكهم يسمى المس وهو منتحل للإسلام والخزر تتاجرهم وتبايعهم وكذلك الروس

قلت: قد تقدم عنه فى اول الفصل فى وصف بلغار ما يخالف ذلك وقد ذكر البلغار بلفظ برغر وهنا بلفظ بالكان ولا ريب انهما واحد ولكن قوله قليلو العدد غير صحيح مخالف لما ذكره هو وغيره كما لا يخفى ولعل ذلك صدر عنه على سبيل الذهول، او فى العبارة سقطة والله سبحانه اعلم.

وقال ابو حامد الاندلسي: لباس البلغار والخزر والبجاناك قراطق[١] تامة ولباس الروس قصير والبشجرد فى طاعة البلغار والتجارة فى بلغار فى السمور والسنجاب والقاقم والفنك والثعلب والارانب والشمع والنشاب والعسل والبندق والرقيق والغنم والبقر وغراء السمك واسنان السمك والكهربا والكيمخت والسيوف والدروع والخلنج.

وقال فى خريدة العجايب: أرض البلغار وهى ارض واسعة ينتهى قصر النهار عند البلغار والروس فى الشتاء الى ثلاث[٢] ساعات ونصف ساعة قال الجو اليقى شهدت ذلك عندهم فكان طول النهار عندهم مقدار ما اصلى اربع صلوات كل صلاة فى عقيب الأخرى مع الاذان وركعات قلائل والاقامة والتسبيح وعماراتها متصلة بعمارت الروم وهم امم عظيمة ومدينتهم تسمى بلغار وهى مدينة عظيمة يخرج واصفها الى حد التكذيب.

ثم قال مع ذلك فى محل آخر: وبلغار مدينة صغيرة ليس لها اعمال كثيرة وكانت مشهورة لانها كانت ميناء لهذه الممالك فاكتسحتها الروس واتل وسمندر سنة ٣٥٨هـ فاضعفتها.

قلت عزا الفاضل المرجانى ذكر هذه الغزية الروسية الى ابن الأثير وابن حوقل ونحن راجعنا الكامل لابن الاثير مرارا كثيرة فلم نر فيه ذكر هذه الوقعة فى العام المذكور وانما ذكر فيه حرب الروس مع بلغار

---

(١) قراطق جمع قرطق بضم وسكون وفتح معرب كورته وهي القميص وهي اعني كورته مستعملة في التركية الى الآن.

(٢) علم من ذلك ان ساعتهم كانت اطول من ساعة عصرنا والا فأقصر الأيام هناك ست ساعات ونصف ساعة.

طونة صرح بذلك على ماسننقل عنه فعزوها الى ابن الاثيروهم واما كتاب ابن حوقل فليس عندنا حتى نحكم عليه بشئ واما صاحب الخريدة فلم ادر من اين اخذها فاناالانرى للروس فى العام المذكور مع البلغار الذى نحن نبينها الآن حربا اصلا والله سبحانه اعلم.

قال الفاضل رفاعة بك: ومن هؤلاء الناس الذين كادوا ان يكونوا مجهولين لليونانيين والرومانيين حتى روم بوزانطيا خرجت اسراب متبربرة عرفت باسم بلغار واوار وخزر وماجار وغير ذلك ولم تتفق الفضلاء الى الآن على اصول هؤلاء الاقوام والظاهر انهم مختلطون من قبائل الفنية والاتراك.

وقال وامة البلغار على كلام البوزنطيين فرع من امة الاوغرة ولكن يظهر منهم ان شبههم بالاتراك اتم من شبههم بهذه الامة ولاشك انهم (بلغار) استفادوا اسمهم من اسم النهر الذى كانوا فى اول امرهم يسكنون عليه لان اقليمهم الاولى المسماة البلغارية الكبرى كان يتصل به نهر الاتل (المسمى ايضا وولغا فأراد أنهم استفادوا اسم بلغار من وولغا وهذا وهم منه) ويظهر بقرب قزان بقية من آثار دار ملكهم ثم سكنوا (يعنى طائفة منهم) على نهر قوبان ثم على نهر طونة وهناك تغلبوا فى نحو سنة ٥٠٠ ميلادية على أسلاوون الصربيين المستوطنين باسفل نهر طونة ثم تغلب عليهم الاوارة ثم خرجوا من اسرهم سنة٦٣٥ ميلادية فدخلت تحت طاعتهم فى ذلك الزمان امة القوطر غورة التى هى بقية من الهونة استوطنت جهة بحيرة نيوتيده المسماة الان بحر ازاق وبلغارية طونة[١] التى هى قطعة من

---

(١) يريد ببلغار طونة أهل جمهورية بلغاريا في البلقان.

تلك السلطنة العظيمة مكثت مدة طويلة تخشى سطوتها سلطنة بوزنطيا (القسطنطينية) .

وقال ومن الامم المتجاوره لاسقوتية امة الجية[1] (سيتيا) وهى امة تقرب من جنس الصقالبة وكانت هذه الامة ساكنة فى سالف الزمان فى البلاد المسماة الآن بلاد بلغار ثم بعد ذلك عدت نهر ايستر (يعنى طونة) .

وقال : وعلى شاطئ نهر وولغا المذكور فى الكتب العربية نهر اتل جعلت العرب مقام امة الخزر وهى تتاربة ومنها نصارى ووثنى ومحمدي وعلى حدود الخزر امة البلغار واكثر الجغرافيين يتكلمون عليها فتارة يجعلونها بلغار وتارة بلارويجعلون قاعداتها على نهر اتل وانقاضها الباقية على ثمانين ويرسة من سنير الى الان تدل على عظم شانها فى سالف الزمان وبعض المشارقة يرى انها ابعد مدن الدنيا شمالا .

وقال وامة الخزر يسميها البوزنطيون باوغرة ابيض ظهرت اولا بين بحرى الخزر وازاق ثم لما تخلصت من كونهم مأسورين تحت حكومة الهونية وبلغار مدة يسيرة أمتد حكمها الى نهر تبييسة وبقيت مدة القرن السابع والثامن ارجح الامم فى تلك الجهة وبقى اسمها الى القرن ١٢ من الميلاد .

وقال فى بيان اواره ولكن لم تمكث هذه الامة النهابة على سطوتها وشدة بأسها زمنا طويلا بل ضعفت بالحروب مع البلغار ثم سقطت بقوة كارلوس مانوس سنة٧٩٦ وكان مبدأ سلطنتهم سنة٥٦٦ ـ ١هـ ما انتخبناه من كلام رفاعة بك .

---

(١) زعم ان الجية غير لا سقوتيه وهذا وهم فان الجية هي الاسقوتيه كما حققناه . ١هـ منه .

وقال كارامزين[1] بعد بيان سر ماطة وقد ظهر فى تلك الاثناء قوم يسمون اوغر وبلغار ولم يكن المغاربة يعرفونهم قبل وهم على قول اليونا نيين من جنس الهون فخرجوا من اوطانهم التى كانت فى قرب وولغا واورال واستملكوا ما بين البحر الاسود وازاق واقليم قريم وشرعوا من سنة ٤٧٤ ميلادية فى نهب اقليم ميزيد (اى البلغارية الحاضرة) وفرا كيه حتى وصلوا الى اطراف القسطنطينية ثم ذكر ظهور اسلاوون[2] فى تلك المدة خلافالما تقدم وهجومهم معا الى القسطنطينية فى عهد القيصر يوسطنيان سنة ٥٢٧ وسائر معاملاتهم معهم ثم ذكر امة اوارة من طرف الشرق وغلبتهم على البلغار ومعاملاتهم مع القيصر فى حدود سنة٥٦٨ ثم قال ان ملك بلغار(قوارات خان) خرج فى سنة ٦٣٠ ميلادية مصادفة سنة ٩ هجرية من طاعة حكومة اوار وتبعيتهم وقسم قوته على تسعة أقسام كبيرة وملكوا الداركية ويانونية مدة كثيرة وحاربوا في اقليمي كارنيتيه وبوهميه مع باواريا واسلاوون محاربات عظيمة وحكم (قوارات خان) في قرب بحر ازاق[3] مع المودة والموافقة بالروم ولكن خالف اولاده وصيته الحكيمة وقسموا مملكتهم فيما بينهم فبقى كبيرهم (وات باى) في قرب دون وعبر ثانيهم (قاتراق) إلى طرف آخر من النهر المذكور وذهب رابعهم إلى حكومة اوار في يانونيه (هنغرية)[4] وذهب خامسهم إلى ايطاليا وثالثهم المسمى اسياروخ اقام اولا بين

---

(١) هو مؤرخ روسي شهير نقل المؤلف عنه كثيرا في كتابه: (تلفيق الأخبار).
(٢) يعني السلاف.
(٣) هو المعروف الآن بالبحر الأسود.
(٤) هي بلاد المجر.

نهرى طونة ودينستر ثم غزا في سنة ٦٧٩ اسلاوون[١] المقيمين بميزية واسس هناك حكومة بلغارية قوية (وهي البلغارية الحاضرة) .

قلت هذا صريح في ان تفرق بلغار طونة من بلغار قزان كان في التاريخ المذكور وهو المصادف سنة ٦٠ هـ وهذا مخالف لما مر عن المسعودي الا ان نقول إنهم اتحدوا بعد ذلك ايضا والله اعلم[٢] وعلى كل حال فقد افترقت امة البلغار على فرقتين اما في اول خروجهم من اصل وطنهم على ما يومئ إليه اول كلام كارامزين في التاريخ المذكور آنفاً أو بعده ويقال لمن بقى في اصل مملكتهم البلغارية الكبرى ولهؤلاء المهاجرين الى جهة طونة البلغارية الصغرى وربما يقال للاولى البلغارية الداخلة وللثانية الخارجة وربما يقال للاولى البلغار البيض لتمدنهم بقبول الايمان والإسلام وللثانية البلغار السود لتسودهم بسود الجهل والكفر وربما يقال للاولى بلغار وولغا[٣] واتل وقزان وللثانية بلغار طونة وربما يقع الناس في الغلط بعدم التمييز بينهما فيخلط وقائع هذه بوقائع تلك حتى ان ابن فضل الله العمري مع علو كعبه في الجغرافيا وطول باعه في علم التاريخ وانفراده في عصره بمعرفة الممالك وامتيازه بتخطيط ما فيها من المسالك قال : ولقد كان في السرب والبلغار من قديم دار إسلام وإيمان ذكر هذا المسعودي في مروج الذهب واما الآن فقد تبدلت بايمانها كفرا وتداولها طائفة من عباد الصلبان ١هـ .

---

(١) يعني السلافيين .

(٢) ولكن هذا مجرد احتمال ؛ واقوال كافة الافرنج في هذا الباب دالة على تفرقهم في التاريخ المذكور وعدم اتحادهم بعد ذلك فعلى هذا يحمل قول المسعودي على اشتباه احدى طائفتي البلغار بالأخرى كما ذكرناه قبل والله اعلم بالصواب .

(٣) أى بلغار الفولقا .

انظر كيف اشتبه عليه الامر ولم يدر ان ماذكره المسعودي وغيره عن هذه البلغار وانها باقية على ماهي عليه من التمسك بعروة الايمان وحبل الإسلام لم يغيرها عما كانت عليه اتحاد الكفرة اللئام وتبقى كذلك - إن شاء الله - إلى آخر الايام بموجب وعده سبحانه ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** (٨) ﴾ [**الصف**]، ولم يتفطن لما وصف المسعودي به البلغار من عدم غيبوبة الشفق فيها ولم يتنبه ان هذا الوصف لبلغاراتل لالبلغار طونة ولم يتأمل فيما ذكره غير واحد ان بين بلغار وقسطنطينية مسافة شهرين او لم يعرف ان هذا الوصف ايضاً هو وصف بلغار قزان لابلغار طونة ومنشأ الغلط هو الاشتراك في الاسم وعدم التأمل في الاوصاف والموضع وانما ذكرت هذا هنا لئلا يقع المطالع في الغلط.

قال ابن الاثير في الكامل بعد ذكره ما جرى بين الواسيلي الثاني قيصر الروم وبين البلغار في حدود سنة ٣٠٠ وهؤلاء البلغار غير الطائفة المسلمة فان هؤلاء اقرب إلى الروم من المسلمين بنحو شهرين وكلاهما يسمى بلغاراً اهـ.

فعلى هذا يخطر بالبال ان ما ذكره المسعودي سابقاً ومن تبعه من غزو بلغار القسطنطينية في التاريخ المذكور هناك لا يكون غزو بلغاراتل بل غزو بلغار طونة فقط وكانه لم يكن له علم بكون بلغار طائفتين وان التي غزت القسطنطينية هي بلغار طونة لا بلغار اتل والله سبحانه اعلم.

ولما افترق بلغار طونة من بلغار قزان تحولوا من حالة المجوسية إلى النصرانية ولا ادري في اى زمان كان ذلك التنصر فعلى قول الفاضل

الشهاب القزاني كان ذلك في سنة ١٨١ هجرية وكان اسم ملكهم في ذلك الوقت باغار فتسمى بعد التنصر ميخائل وقال بعض مؤرخي عصرنا كان ذلك في حدود ٣٥٠ على يدياني[١] زيمسكس الاول (اظنهاشمسية) ولم ينفع الروم تنصرهم اصلا بل كانوا يحاربونهم دائما وقد كانوا ينصرونهم قبل ذلك حتى استعان بهم اليون حين حاصر مسلمة بن عبدالملك القسطنطينية ولما تنصر بلغار طونة تركوا ألسنتهم وعاداتهم الاصلية واخذوا السنة اسلاوان[٢] وعاداتهم بسبب كثرة اختلاطهم معهم فهم يعدون إلى الآن من اسلاوان بحسب العادات واللسان لا بحسب الجنس ونحن لا نبين في هذا الكتاب أحوالهم بل احوال بلغار قزان كما ذكرنا قبل.

قال كارامزين بعد بيان هجوم بلغار طونة إلى قسطنطينية واسرهم امبراطور لا تين في سنة ١٢٠٥م مصادفة سنة ٦٠٢هـ وبلغاراتل لم يكونوا مائلين إلى الغزاة قلت قد مر اول كلام كارامزين مقارنة بلغار باوغر واكثر الجغرافيين لم يجدوا مصداقاً للفظ اوغر وهو لفظ تركي معناه اللص والسارق ولعل هؤلاء الذين قد خرجوا من اصل بلاد بلغار كان لصوصهم وقطاع الطريق قد خرجوا للنهب والغارة وطبيعة بلغار طونة تدل على ذلك وبقي في اصل[٣] بلاد

---

(١) وهو المشهور في تواريخ الإسلام بدمستق.

(٢) يعني السلافيين.

(٣) ومن الآفة العظيمة قول بعض مشاهير ادباء عصرنا بعد بيان إسلام بلغار اتل ولكن البلغار تركوا وطنهم الأصلي في ذلك الوقت ثابتين على ديانتهم الاصلية يعني الوثنية وهاجروا إلى شبه جزيرة بلقان فلا ادري ان المسلمين في اصل مملكة بلغار هل هم فئة من قوم بلغار بقوا هناك او قوم من التتار الذين اخرجوهم من هناك لا يدري ذلك ١هـ. وخطأه من وجوه ظاهر فان خروج بلغار من هناك ليس بعد إسلامهم كما عرفت ولا شبهة في كون المسلمين في تلك الديار من قوم بلغار عند احد وكونه آفة ان المقلدين ربما يصدقونه او يقعون في الشبهة لشهرة القائل والله الهادي للصواب ولعمري ان في اثر هذا القائل خبطا كثيرا لا يحصى في مثل هذه المسائل ولا يخفى على اربابه. ١هـ منه.

بلغار ارباب التمدن والاستقامة والخيار كما يدل على ذلك طباعهم في جميع الازمان.

وربما اطلق لفظ اوغر واوغرة على ما جار حتى قال كارامزين لما هلكت الوينغرية في دينستر سنة ١٢٣١ ميلادية بقي منه مثل في غاليتسيا وهو لعب دينستر باوغر لعباً مدهشا ١ﻫ فعلم من ذلك ان هذا الاسم كان يطلق على ما جار حتى السنة المذكورة وظني انه محرف من لفظ ايغور لا غير والله اعلم.

ثم رأيت في تاريخ عاصم نجيب افندي انه قال ان بعض المؤرخين يرون ان الفاظ اونغر واو نغاريا وانكروس منحرفة من لفظ اون واويغور لكن المجار ينكرون في هذه الاعصر كونهم من اويغور ويدعون انهم من جنس بلغار والله اعلم.

نعود الى كلام كارامزين قال: وبلغار قزان كانوا يرسلون الميرة إلى مملكة سوزدل ويشبعون اهلها وكانوا يوصلون بضائع الممالك الإسلامية المتمدنة ومصنوعاتهم إلى الروسية وربما يوجد على بعد ٩٠ ويرسة من قزان و٩ من وولغا الكتابة الأرمنية الباقية من القرن الثاني عشر من الميلاد السادس من الهجري وهذا يدل على ان الارمن المشهورين بالتجارة كانوا يبادلون هناك بضائع الشرق بجلود الروسية وفروتهم والسختيان العالي المشهور بالبلغار في جميع الاقطار باق ومستعمل ومقبول عند الكل إلى الآن واسمه يدل على انه من مخترعاتهم واعلى السختيان يستعمل في الروسية الى الآن ببلاد قزان وكذلك يوجد في خرابة بلغار الكتابة العربية من سنة ١٢٢٢ الى سنة

١٣٤١ ميلادية وتلك الكتابة مكتوبة على قبور اهل شروان وشماخي ويجد الفلاحون بقرب خرابة بلغار في بعض الاوقات حلى النساء من الذهب وربما يوجد فيه دراهم العرب وربما يوجد دراهم غير مكتوبة بل فيها نقط ولا شك انها دراهم الاميين فتدل امثال هذه الحالات الخطيرة على ان البلغار المذكورة كانت سابقاً على غاية المعمورية.

وقال ايضا كان يعيش على شطوط وولغاواتل قوم بلغار من مدة مديدة ولعلهم ارتحلوا هناك من سواحل دون (تن) هربا من طاعة خوانين خزر الذين كانوا اقوياء في العصر السابع الميلادي وهم قد تمدنوا بمرور الايام والدهور وشرعوا في التجارة وكانوا يتاجرون الروسية بواسطة الانهر الكبيرة: وفارس وسائر الممالك الآسيوية الغنية بواسطة بحر الخزر.

انتهى ماذكره الشيخ محمود الرمزي عن البلغار وما رأيت من نقل كلام علمائنا الاوائل بهذا الاستيعاب والنقد والفحص مثله فجزاه الله خيرا.



المشاهدات البلغارية

يوم الخميس: ١٧ / ٤ / ١٤١٥هـ، ٢٢ / ٩ / ١٩٩٤م.

من قازان الى مدينة بلغار:

وتبعد مدينة بلغار عن قازان نحو ٢٤٧ كيلو مترا، ومررنا في طريقنا اليها بقرى واماكن فيها مسلمون ومساجد واخذنا من احد الاماكن القريبة من (بلغار) شخصا من كبار المسلمين من اهل المنطقة ليكون عونا لنا فى الحصول على المعلومات التى نطلبها.

كان تحركنا من فندق تتارستان في قازان في الساعة التاسعة من هذا الصباح على حافلة صغيرة سيئة المظهر لكن تبين انها جيدة وقادرة على السير في الطريق الذي لم يعد كله مزفلتا، وانما فيه اماكن تحتاج الى اصلاح واخرى تصلح.

وكان المرافقون على هذه الحافلة عدداً من الاخوة على رأسهم المفتي رئيس الادارة الدينية في تتارستان الشيخ عبد الله صفا ونائب المفتي الشيخ نور الله والشيخ مارس بن جلال الدين، والياس ابن المفتي وهو شاب تزوج حديثا ودرس العربية في الرياض واثنان اخران، اما سائق السيارة فانه مسلم ولكنه مثل سيارته صبور على الطريق الا انه ليس صافيا، فرغم كونه مسلماً عريقا من هؤلاء الذين يسمون بالتتار فانه ذكر انه لا يصلى قال لنا ذلك بصراحة، الا انه لم يقل انه يفعل ذلك عن عدم رغبة او عزوفاً عن الدين الإسلامي، وانما هو كأمثاله من المسلمين الضائعين تحت الحكم الشيوعي الملحد في هذه البلاد وما جاورها.

واسم هذا السائق: (البرت بن محمد جان صالح) فحتى اسمه

من أسـمـاء الضـائعين فـهـو اسم مـسـيـحي او لنقل انه اسم روسي (البرت) رغم عراقة اسم والده(محمد جان) وجده: صالح، وسالته عن السبب في تسـميته بهـذا الاسم الغريب عن المسلمين، فـقـال: هكذا اسمي ومثلي كثير وقال: انا بطبيعة الحال لم تكن لي يد في اختيار اسمي، فقلت له الك اولاد؟ قال؛ نعم: قلت ما هي اسماؤهم ففهم قصدي من ذلك، وقال: كلهم اسميتهم بأسماء إسلاميه: وهما ابنتان إحداهما اسمها (الصو) و (ال) معناها ملون وصو : الماء فمعنى اسمها اذاً : الماء الملون والمراد بذلك الملون باللون الجميل كما اخبرنا المرافقون وهذا باللغة التتارية المشتقة من اللغة التركية القديمة.

قال والاخرى اسميتها :(مدينة) على اسم مدينة الرسول ﷺ .

ومظهره في اللون والشعر يشبه اسمه فهو اشقر الا ان وجهه خال من الصفاء والإشراق مثل كثير من ذوي اللون الاشقر في هذه البلاد.

سرنا في شوارع قازان ومعنا ثلاثة ممن يحسنون العربية ومنهم ابن المفتي الذي تعلم العربية حديثا في الرياض واسمه :إلياس وكان كثير المقارنة لما في هذه البلاد بما في الرياض وفكرته على وجه العموم جيدة جدا عن الحياة في الرياض والتقدم الذي شاهده بل عايشه هناك.

مررنا بأشجار الشوارع فأسرع الاخوة المرافقون يقولون ان هذه الاشجار التي ترونها في قازان لا يثمر منها شيئ وانما فائدتها أنها تنقي الهواء وتوفر الاكسجين.

فبادرت هؤلاء الاخوة قائلا : وماذا عن الشتاء حيث تذهب اوراق هذه الاشجار؟ هل تكون ايضا منقية للاوكسجين مع انها هي تعتبر ميتة وان لم يكن موتها حقيقياً ولكنه كإيقاف الحياة الذي يعبر عنه بالسبات الشتوي عند بعض الحيوانات والحشرات، ولم يجيبوا على ذلك.

مر السائق على محطة لبيع وقود السيارات فبقينا فيها وقتاً على غير طائل ثم وضع في سيارته مع ما استطاع خزان الوقود فيها حمله واخذ ايضا وعائين كبيرين (جالونين) من باب الاحتياط كما أخذ من المحطة زيتا لسيارته ايضا وقد عجبت لسوء رائحة البنزين عندهم مما يدل على انه ليس نقيا نقاء البنزين الممتاز عندنا، وقد أرجعوا سبب تعطلنا عند المحطة بكثرة السيارات وقلة المحطات مع العلم بان سعر البنزين عندهم رخيص فهو تنتجه بلادهم وغيرها من مناطق المسلمين مثل باشقر دزستان «بشكيريا» المجاورة وغيرها من انحاء روسيا الاتحادية.

ولم نغادر ضواحي قازان الا قرب العاشرة بعد ان مررنا بضواح من ضواحيها بعيدة عن مركزها حتى تبدو كانما هي القرى المنفصلة .

ريف تتارستان:

وقفنا بعد مغادرة قازان في ريف خالص مثلما عليه الحال في اكثر المدن الشيوعية حيث يبدأ الريف بعد مفارقة ضواحي المدينة، وكأنما يحده حد معين، وذلك لصعوبة بناء منازل خاصة للأ فراد في الريف المزروع وإنما يكون ذلك للفلاحين الذين يبنون بيوتهم في

الارض التي يزرعونها من المواد الأولية المتوفرة هي الخشب بصفة رئيسية، لانهم يعتنون به في بعض الاحيان ويطلونه حتى كأنما هو البيت الاسمنتي المعتاد .

وتجلت طبيعة الريف الخضراء في هذا الفصل الصيفي الماطر، وقال الياس الذي عاش فترة في الرياض انه لا توجد هنا ابل فسألتهم عن الياك وهو حيوان رايته في البلدان الباردة جدا مثل منغوليا والتبت ويعتبر من فصيلة البقر ولكن له شعر كثيف فذكروا انهم لا يعرفونه .

وقال احدهم: الإبل في الحقيقة مصنع لحم ضخم، فقلت نعم، ويزيد من اهمية ذلك كونها تعيش في البلاد الجافة فتحول الشجر الجاف والشبيه بالجاف الي كتل من اللحم والشحم حتى الماء فانه لا تشترط ان يكون عذبا، بل انها تشرب الماء الملح ايضا وتأكل الاشجار الملحة المسماة بالحمض واذا فقدت الملوحة في الماء والاشجار ذهب طيب لحومها ونكهته الجيدة.

وذكرت بهذا ما نشره بعضهم من كون لحم الابل أقل اللحوم الموجودة في جزيرة العرب(صمغيات) وهي المادة التي تتخلف في الدم بعد هضم الشحوم وتسمى بلغة الطب الكلسترول وقلت في نفسي: كأن ذلك بسبب الملوحة في أشجار الصحراء التي ترعاها الإبل وكذلك ملوحة المياه التى تشربها، والله أعلم.

وهنا مررنا بقطيع كبير من البقر فذكروا أن اللحم كثير في بلادهم وان كيلو اللحم الواحد يباع بأربعة الآف روبل وذلك اقل قليلا من دولارين امريكيين ومن سبعة ريالات سعودية، وهذا رخيص

بالنسبة الى الاسعار العالمية غير انه غالٍ بالنسبة الى دخولهم المتدنية.

موسم جني البطاطس:

مررنا بجماعة كبيرة من الناس في حقل للبطاطس ذكروا انهم جاءُوا لمساعدة اهل الحقل على جمع البطاطس وذكر الاخوة المرافقون في هذه المناسبة ان موسم (جمع البطاطس) موسم مشهور عندهم يحدث احيانا ان تأمر الحكومة طلبة المدارس من ذكور واناث بالخروج الى الحقول لمساعدة الزراع على جمع البطاطس وذلك لكثرته وعدم وجود آلات زراعية حديثة لجمعه، وعلق الياس بن المفتي على ذلك بقوله: لقد خرجت مدرستنا مرة للمساعدة في جمع البطاطس فتعرفت على الفتاة التي تزوجتها منذ شهر اثناء ذلك العمل.

وهذه الأهمية لجمع البطاطس ناتجة عن أهمية البطاطس في الغذاء لديهم فبلادهم باردة وهم يخزنون البطاطس بطرق قديمة معتادة عندهم لمؤونة الشتاء، وقد رأيت مثل ذلك في سيبريا عندما زرت مدينة (ايركسئك) وتجولت في الضواحي الريفية منها ورأيت الفلاحين هناك الذين يعتمدون على قطع صغيرة من الاراضي ينصبون فيها لهم بيتا من الخشب، ويزرعون البطاطس في فصل الصيف ثم يخزنون ذلك لمؤونة الشتاء ويجعلون إدامه الزبد والسمن الذي يحصلون عليه من حيوانهم المحدود وهو مثل بقرة وبقرتين اللتين تحتاج أيضا الى خزن العلف لها في فصل الصيف للشتاء.

وهذا هو عماد حياتهم المحدودة الاغراض في تلك الأصقاع الباردة النائية.

وذكر الشاب الياس أن مساعدتهم للفلاحين على جمع البطاطس تستمر ما بين اسبوعين وثلاثة يوفر الفلاحون لهم الطعام وتعطيهم الحكومة مكافأة لا تستحق الذكر لتفاهتها.

وذكرت بهذه المناسبة - أيضا - ما رأيته في اذربيجان من كون الحكومة تفرغ طلاب المدارس في موسم جني الزيتون في البلاد للمساعدة على جمع حبات الزيتون التي تحتاج الى صبر وعدد كبير من الايدي، وذلك يتم أكثره في مزارع الحكومة الواسعة، وفي الاراضي العامة التي تديرها الجمعيات التعاونية الشبيهة بالحكومية.

قرية سوبوري :

أخذ الشاب الياس ابن المفتي عبد الله صفا يشير باهتمام الى هذه القرية، ويقول: لقد تعرفت على زوجتي بها ثم تزوجت منها قبل شهر، وهي قرية للمسلمين بيوتها من الخشب تختلف ما بين الجودة في المظهر وبين عدم الجودة بسبب تأثر الخشب بالعوامل الجوية وعدم تجديد طلائه. وسقوفها من الصفيح وهي مسنمة غير مسطحة، وبجانبها ماء مجتمع غير صاف.

نهر ميشا :

وغير بعيد من هذه القرية وصلنا الي نهر (ميشا) وهو نهر متوسط السعة تنتهي مياهه الى نهر ايتل (الفولقا)، وقد اجتزنا فوقه على جسر قديم.

قرية روسية:

مر الطريق بقرية روسية على اليسار لمثلنا فرأينا فيها منظراً لم يكن مالوفاً في البلاد الشيوعية من قبل وهو منظر كنيسة مشرفة في مكان منعزل عن بيوت القرية، أما البيوت فإنها مبنية من طابق واحد وكلها ذوات سقوف من الصفيح على هيئة سنام وذلك من أجل ان تنزلق عنها الثلوج في الشتاء وهي متفرقة وواضح انها ضيقة المساحة، وتلتف حولها الأعشاب الخضراء مثل بقية المنطقة ومع ذلك فان رؤية الحيوان هنا ليست كثيرة ربما كان ذلك لعدم وجود رأس المال اللازم عند الفلاحين، وعدم الخبرة عند سائر الناس بكيفية تربية الحيوان تربية تجارية والاستفادة من تصدير لحمه وجلده.

ولك ان تعجب مثلنا من الواقع الذي شاهدناه في دولة الاتحاد السوفيتي التي كنا نعتقد انها مثل الولايات المتحدة الأمريكية في التقدم الزراعي واستعمال التقنية الحديثة لما نعرفه ويعرفه غيرنا من قوة الصناعة الحربية فيها، ولكننا عندما شاهدنا الامور فيها على حقيقتها وجدنا العكس من ذلك وعرفنا ان اكثر ما سمعنا عنها ليس صحيحا وانما ضخمته الدعاية المركزة وان مستوى معيشة السكان واستعماله في التقنية هو اقل من كثير من مستوى البلدان الناقصة النمو التي تسمي بالدول النامية، وذلك مع وفرة الامكانات الضخمة في هذه البلاد فمثلا أرى الآن التبن وبقايا القصب في حقول القمح الحصيد متروكة تكفي للاسهام في طعام الماشية وهي غارقة في الاعشاب البرية النافعة التي تنبت كثيفة بسبب امطار الصيف الغزيرة وحتى اوراق

الاشجار التي بدأت بالتساقط هي ذات مقادير ضخمة يمكن ان يسهم الصالح منها للعلف في علف الحيوان ولكنهم لا يحتاجون اليها.

قرية ايمان كسكا :

مررنا بقرية زراعية اسمها (ايمان كسكا) ظننت اول الامر ان اسمها مأخوذ من الايمان ولكن الاخوة ذكروا ان اصله من اسم شجرة يقال عنها (امان) بكسر الهمزة، وتقع في منطقة زراعية خصبة.

وقفنا في شارعها العام الذي هو الطريق الازفلتي الذي نسير معه عند امرأة تبيع تفاحاً طازجا قطع لتوه من شجره الذي يكثر في المنطقة وهو من التفاح الابيض الذي ينمو بل يوجد في بلادهم اكثر من التفاح الاحمر المعتاد.

وقد اشترينا منها مقداراً كثيرا لا لشيئ الا لكونه يانعاًطريا رخيصاً اذْ قدر الاخوة أن الكيلو الواحد قيمته تساوي ريالا سعودياً وربع الريال وذلك بالتقدير والا فانها تبيعه جزافاً وليس عندها ميزان، وقد نفعنا نفعا عظيما اذ غسلناه بعد ذلك وصرنا نأكل منه طول الطريق حتى العودة إلى قازان.

وقد التقطت صورة تذكارية في شارعها العام الذي تقع عليه البيوت المسنمة، وابرز المناظر في القرية اكوام ضخمة من التبن المتخلف من القمح ذكروا انهم يضيفون هذا التبن الى الاعشاب التي يخزنونها لعلف الماشية في الشتاء.

وقرية قل يانجي :

هذه قرية روسية رغم ما يوحي به اسمها بأنها تتارية اذ الاسم يلوح عليه الطابع التركي لا الروسي مما يجعلنا نتذكر ان هذه البلاد كانت بلغارية خالصة للبلغار المسلمين الذين كانوا يتحدثون لهجة تركية متفرعة من اللغة التركية القديمة التي يسميها بعضهم بالجغتاوية وبعضهم يسميها (الألتاوية) نسبة الى جبال (التاى) المشهورة في تركستان الشرقية .

وبيوت هذه القرية الروسية من الآجر الابيض وبعضها من الخشب، وفيها كنيسة رثة المظهر ويدل ذلك على عدم العناية والاهتمام بها، وقبل الوصول اليها بقليل رأينا حقلا واسعاً للبنجر مع أننا لم نر من قبل حقولا واسعة في المنطقة للبنجر، وبقرب القرية ماء مجتمع على هيئة بحيرة صغيرة، ولا تبعد هذه القرية الصغيرة كثيرا عن قرية(إيمان كسكا) السابقة وهي مثلها في كون الاشجار قد غرست على جانب واحد من الطريق وهي التي يقصد منها الجمال والمنفعة للطريق وتغرسها البلديات او مصلحة الطرق في العادة .

لم نقف في قرية (قل يانجي) وانما واصلنا سيرنا مع الطريق الازفلتية التي كانت السيارات بها اكثرها من الشاحنات الخشنة واقلها من سيارات الركوب الصغيرة التي هي بطبيعة الحال من الصناعة الروسية الوطنية واكثرها من طراز (لادا) الذي يشبه (فيات) الايطالية اضاف اليه الروس ما يكسبه قوة، وما يجعله صالحاً للعمل في هذه الاصقاع الشمالية الباردة .

وهنا شاهدنا الحرائق مشتعلة في القصب المتخلف من القمح يحرقونه من اجل ان تخلو الارض منه فتصبح صالحة لزراعة القمح في الموسم القادم، وذكروا ان إحراق هذه البقايا من القمح والاعشاب اسهل عليهم من قطعها وازالتها، ثم ان الرماد المتخلف عن الحرق يفيد في تسميد الارض، وعادتهم ان يبذروا القمح قبل فصل الثلج ثم يتركونه يسقط عليه الثلج فيغطيه وهو يستمر طويلا حتى اذا حل الدفء في الربيع وربيعهم يتأخر عن ربيعنا وذابت الثلوج نبت القمح ونما حتى يؤتى أكله وهو احسن عندهم من القمح الذي يبذر في إقبال الدفء ولا ينزل عليه الثلج، وهذه الحرائق رأينا بعضها مشتعلا وبعضها رأينا آثار الحرق فيه وسط مزارع واسعة من مزارع القمح فقالوا لنا ان هذه مزارع حكومية واسعة وليست للأفراد.

النهر العظيم:

وصل بنا الطريق الى منطقة تجمعت عندها السيارات يتجول عندها عدد من الشرطة فظننتها مركز تفتيش واذا بها ميناء أمام مياه ضخمة كأنها مياه البحر الخِضَمّ ولم نكن رأيناها على البعد لان الطريق كانت تحول بينها وبينه ربى خضر حتى وصلناها .

واشار القوم وهم يترجلون من السيارة قائلين: هذا نهر (قاما) انه لابد لنا من ان نركب نحن وسيارتنا على العبارة حتى نقطعه.

ونهر (قاما) بالجيم المصرية وهي القاف المضرية هو نهر كبير ولكن غطى على كبره في هذه المنطقة كونه يجاور نهر ايتل (الفولقا) ثم يصب فيه بالقرب من مدينة قازان اي انه اعتبر احد روافد نهر ايتل

ولوكان في منطقة منفرداً مثل انفراد نهر النيل لكان له تاريخ حافل يسمع به الناس كما يسمعون عن نهر النيل.

انني لا استطيع ان اقول انه اكبر او اصغر من النيل الا في رأي العين من هذه النقطة بالذات ومن نقطة أخرى رأيناه منها فوجدته اكبر واوسع من نهر النيل، ومع ذلك لا يعتبرونه هنا الا رافداً واحداً من روافد نهر ايتل (الفولقا) الذي يعتبرونه نهر الانهار في هذه المنطقة الغنية بالمياه.

اصطفت السيارات من جميع الانواع امام ميناء العبارة النهري الذي لا يدل على العناية وبخاصة من ناحية التجميل والعناية المظهرية والخدمات البلدية ان كانت خدمات مدينة من المدن تصل اليه فنحن رأيناه منفصلاً عن غيره.

كان ميناء العبارات خالياً عندما وصلنا فصرنا مثل بقية الواصلين نتجول سيراً على الاقدام واخبرونا ان العبارة هما: عبارتان تسير في كل نصف ساعة واحدة منها من ميناء الذهاب بالنسبة الى مدينة قازان والاخرى من ميناء الاياب اي من الضفة الاخرى للنهر.

والضفة الاخرى بعيدة في النظر وهذا هو في رأي العين ومع ذلك هو نهر لا بحيرة، ولا يكاد من يراه يصدق بذلك، بل لاشك انه مثلي سيظن ان هذه المياه هي مياه بحيرة تنتهي اليها مياه احد الانهار الكبيرة.

والميناء خشبي، بل كل ما فيه من الخشب وذلك لوفرة الاخشاب واعتياد القوم على استعمالها في منشآتهم الكبيرة منذ القدم كما كان مؤرخونا العرب قد نقلوا لنا ان المنازل في (بلغار) هي من الخشب.

موقعنا من النهر:

كان مما استرعى انتباهنا هنا لافتتان كلتاهما بالروسية غير ان في احدهما ما يمت الى العربية بصلة وهي الارقام العربية التي نسميها نحن بالافرنجية وهي المستعلمة الان في اوروبا وفي أنحاء العالم كله حتى في الصين واليابان، فليس للروس ارقام اخرى.

وتقول هذه اللافتة يبعد هذا المكان عن قازان ٧٧ كيلومترا وهي لافتة عن يمين الطريق المتجهة الى قازان اي عكس اتجاهنا فموقعنا من النهر - اذاً - يبعد بهذه المسافة (٧٧ كيلومتر) عن مدينة قازان وهي تعادل المسافة ما بين وسط مدينة جدة ووسط مكة المكرمة، واللافتة الثانية باللغة الروسية وحدها فسرها لنا اخواننا بانها (يمنع مرور اي سائق لا يحمل الاوراق الرسمية) والمراد بالمنع منعه من ركوب العبارة مع سيارته واذا منع من ذلك لم يستطع السير في طريقه لأنه لا توجد وسيلة أخرى لعبور هذا النهر العظيم.

وكان المنظر هنا هو منظر بائعات التفاح الذي تنتجه هذه المنطقة وهن فلاحات قد اذهب القشف وخشونة العيش ما يكون في وجوه امثالهن البيضاوات من تطرية او تمليح، والتفاح غير جيد ولم ار غيره يباع هنا مما جعلني استنتج انه الفاكهة الوحيدة المتوفرة في هذا الفصل من السنة وهذا صحيح.

ولقد قال اسلافنا الأوائل الذين ذكروا بلاد البلغار بأنها لا تنتج فاكهة ولا شك ان ذلك كان قبل استنبات اشجار التفاح وغرسها في البلاد.

رأيت الإخوة يدفعون رسم نقل السيارة والركاب في العبارة ولم اعرف مقداره الا عند العودة.

مدن كثيرة تحتاج الي جسر:

كثر ورود السيارات فاصطفت صفين حيث طال الصف الواحد وهي تنتظر قدوم العبارة فعلق الاخوة المرافقون على ذلك قائلين: السبب في كثرة السيارات ان هناك العديد من المدن خلف هذا النهر بعضها بعيد عنه وبعضها قريب ولايوجد جسر على هذا النهر فالناس مضطرون لركوب العبارة هذه.

وهنا تبادر الى ذهني السؤال عن السبب الذي جعل الحكومة لا تفكر في مشروع مد جسر على النهر مع ان عرض النهر كبير أظنه لايقل عن ثمانية كيلومترات، وقلت: ربما يوجد مضيق في النهر اي مكان في المجرى اضيق من هذا يمكن ان يقام عليه جسر فيسلكه الناس والسيارات حتى وان زاد عليه الطريق الإسفلتي عدة كيلومترات او عشرات من الكيلومترات فهو أسهل وأسرع من انتظار هذه العبارة وضياع وقت في ركوبها وهي تدب دبيباً على الماء، وما يتطلبه ركوبها من اجراءات طويلة وذكر الاخوة ان اضيق نقطة في عرض هذا النهر هي ستة كيلو مترات اما عرضه الذي تقطعه العبارة فاوسع من ذلك كما انه لا عبارة في الشتاء.

وقال الاخوة عندما طرحت عليهم هذه الفكرة ان الجسر لايحتاج اليه في الشتاء الذي يمتد أشهراً لان مياه النهر تتجمد فيسير الناس عليها كما يسيرون على اليابسة، وقال الشيخ مارس بن جلال

الدين: لقد لبثت طويلاً اتردد بسيارتي في الشتاء على ظهر هذا النهر مثلما اسير على غيره من الطريق لان وجه الارض مثل وجه الماء تجمله الثلوج الناصعة حتى يبدو المنظر جليلا رهيبا، لان البياض يجلل أى شيء يقع عليه بصرك.

قالوا: ولذلك لا يحتاج الى العبارة في الشتاء ولسبب اخر ان العبارة لا تستطيع ان تسير في مياه النهر لو اراد أهلها ذلك لكون المياه تتجمد فلا تستطيع سفينة أن تمخر عبابها.

وجاءت العبارة:

فتوقفت عند ميناء خشبي فيه جسر قصير من الخشب بارز الصقت به العبارة طرف مدخلها الذي كان واقفا في مؤخرتها فأسرع الناس راجلين وعلى السيارات يدخلون في جوفها وظننت ان ذلك خوفا من ان تسرع بالإقلاع قبل تكاملهم وتبين ان ذلك غير صحيح اذ لبثت طويلا واقفة وانما كانوا يسارعون في الدخول حذراً من ان يمتلئ ظهرها بالسيارات فيضطروا لانتظار العبارة التالية اما نحن فقد دخلناها راجلين وصعدنا الى ظهرها في جو بديع ذي شمس صافية تماما وسط مياه النهر غير الصافية وان كان الانسان يرى بعض الاسماك تجول في الماء ورأيت بهذه المناسبة صيادين قد طرحوا شباكهم في شاطئ النهر غير البعيد وقال الاخوة ان الصيد الآن يكون ثمينا لأن الناس قد يصادفون سمكاً من سمك الكافيار الغالي الذي ياتي مع النهر عكس تياره حيث يدخله من بحر الخزر المعروف الان ببحر قزوين وهو الذي يصب فيه نهر ايتل (الفولقا) فيصعد من البحر

الى النهر فيصطادونه، وتشبه الاسماك السابحة في مياه النهر طيوراً بحرية سابحة في هوائه وسألتهم عما اذا كانوا يصطادونها فأجابوا بالنفي وعللوا ذلك تعليلا غير مقبول بكون الناس يكتفون بالدجاج عن هذه الطيور وان مستوى المعيشة المنخفض عند بعضهم وغلاء الدجاج عندهم الذي يباع بمثل ثمنه عندنا او اقل من ذلك، وانما ظني ان سبب عدم صيدها هو منع الحكومة مع صعوبة الحصول على بنادق الصيد وذخيرتها عليهم.

وابطأنا في العبارة حيث لم تتحرك من مكانها وقال بعضهم انها لابد من ان تظل في مينائها نصف ساعة ولو انتهى تحميلها في خمس دقائق، وظني انها بقيت اكثر من ذلك.

وفي الساعة الثانية عشرة تحركت العبارة تتهادى على صفحة المياه العميقة من نهر (قاما) التي تشبه مياه البحر العميق وهذه العبارة خشبية الداخل والخارج، بعيدة العهد بالاصلاح والترميم وليس اشد خشونة منها الا خشونة عمالها الذين رأيت فيهم امرأة تبدو مسترجلة لكون عمل العبارة خشنا شاقاً.

وتتالف العبارة من طابقين معظمها مكشوف على هيئة سطح وفيها قسم فيه غرف لا أرى الناس يدخلونها، وانما يصعدون معها الى سطح العبارة الذي فيه مقاعد خشبية عديدة يستريح عليها الركاب اذا ملوا الوقوف وهي افضل من الجلوس في السيارة حيث يتمتعون بمرأى المياه الواسعة وبالنسيم البحري البليل.

وكان اول ما فعلوه قبيل قيامها ان اطلقوا حبالا قوية كانوا قد

ربطوا بها العبَّارة إلى كتل من الخرسانة في الميناء قد وضعوا في جوانبها اطارات فارغة من اطارات السيارات لكي تمتص الصدمات، وعندما سارت الباخرة كان يتبعها نهر من المياه التي تمخرها كالذيل الفضي الضخم لها وترفرف عليها اسراب من طيور النورس المائية التي تهاجر من الجنوب إلى الشمال اذا كان الوقت صيفا في الشمال ثم تعود في الخريف الى الجنوب لتتمتع بصيفه الطويل حين يكون الوقت شتاء في الشمال، وهي تفعل ذلك بما يسميه علماء الطبيعة بالغريزة وهي الهداية الالهية التي لم يبذل احد من الناس جهداً في ان تعرفها تلك الطيور، وقد فهموا ان الطيور هي تفعل ذلك بحثا عن النهار الطويل الذي يمكنها فيه لأن تحصل على غذائها من الحشرات والاسماك الصغيرة وغيرها عندما تبحث عن غذائها في الصيف، اما نهار الشتاء فانه يكون قصيراً لا تتمكن فيه من الحصول على الغذاء اليومي اللازم لها فسبحان الذي ﴿**أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ [**طه**: ٥٠].

ومن المناظر المميزة – وعبارتنا تفارق الميناء – منظر الربى الخضر المحيطة بالجهة الشمالية من النهر تبتعد وعبارة أخرى قادمة تقترب، ورجل قدترك القسم الاعلى من جسمه عاريا اغتناما للشمس مع ان الجو بالنسبة الينا وامثالنا يعتبر بارداً وبخاصة اذا تحرك الهواء النهري الندي وسفن محملة ببضائع واشياء ثقيلة تقطع النهر ايضا لاشك في انها قادمة من اماكن بعيدة وليست من الضفة المقابلة لان مياه نهر (قاما) هذا صالحة للملاحة ولذلك رأيت من بين هذه السفن واحدة

من ناقلات (البترول) الصغيرة، وقد أسرعت العبارة في سيرها عندما امعنت في مياه النهر،حتي صارت تطلق رذاذا لذيذ الوقع على الوجوه والأيدى في هذه الشمس الصاحية.

وركاب العبارة كلهم من ذوي اللون الابيض، بل الأشقر ما بين فلاحين جاءُوا على حافلات اوشاحنات خشنة ومدنيين مع سياراتهم الا ان الرفاهية والتنعم بعيدة عن الجميع فالجد وعدم المغالاة في الملابس والاحذية هو الطابع الغالب عليهم.

غداء العبارة:

كان المفتي الشيخ عبد الله صفا - رعاه الله - قد حمل معنا في هذه الحافلة الصغيرة من قازان طعاما وشرابا كان منه الماء المعدني وشراب الفراولة الأحمر القاني، والشاي الجاهز المحفوظ في الزمزميات.

وقد دخلنا سيارتنا اثناء سير العبارة وتغدينا غداء جيداً من الفطاير والكعك اللين (الكيك) وشربنا من هذا الشراب الجيد، وذلك لعدم وجود المقاصف أو المقاهي في الطريق اذ لم أر منها حتى واحداً في مكان بارز على الطريق اما اذا كان يوجد منها شئ فانه قليل وفي مكان منزوٍ.

وقد عرفت انها تكون معدومة في الطرق في البلدان الشيوعية لكونها وسيلة من وسائل الترف التي لا يليق بالشعب العامل الركون اليها كما يزعمون مع انها موجودة في بلاد الذين يعملون اكثر من عملهم او انهم يعملون مثلهم ولكنهم ينتجون اكثر منهم كالامريكيين والاوروبيين الغربيين.

ولم نطل اللبث في السيارة وإنما اخذنا ما بقي من فتات الفطائر والخبز الذي معنا فرميناه الى تلك الطيور (النورسية) الخفاقة وقفنا على ظهر العبارة نراقب الضفة الاخرى للنهر التي نقصدها وهي تقترب وهي في شمول الخضرة كالضفة التي غادرناها غير ان هذه التي هي الجنوبية ارضها مستوية وليست ذات ربى كالضفة الشمالية .

وعلى ذكر الشمال والجنوب اقول : ان مدينة بلغار التاريخية تقع الى الجنوب من مدينة قازان ولذلك كنا منذ أن غادرنا قازان نتجه جهة الجنوب، وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الواحدة كانت العبارة ترسو على الضفة الجنوبية للنهر بعد ان امضت احدى وثلاثين دقيقة في قطع عرض هذا النهر العظيم نهر (قاما) الواسع، واسرعت السيارات بالخروج من العبارة كانما افلتت من عقال؛ وانطلق الطريق ونحن نرى من اليمين واليسار روافد للنهر على هيئة مسايل للمياه او نقل انها نهيرات صغيرة متجهة اليه تصب في مياهه التي لن تشعر بها لضخامتها مثل مياه هذه النهيرات الصغيرة؛ وقد نمت اشجار القصب على تلك النهيرات وتكاثفت الاعشاب الوحشية وهي الطبيعية التي لم تستزرع، وبين هذه الاعشاب المختلفة مجامع للمياه على هيئة بحيرات صغيرة غير متصلة بالنهر العظيم ولا بمايصل اليه من مياه النهيرات .

ناحية اليسكي:

وصلنا بعد قليل من مفارقة شواطيء نهر قاما الى ناحية اسمها (اليسكي) أهم ما فيها اكوام التبن المكومة في حقول القمح الحصيد الذي أخذوا الحب منه .

ومن اللافت للنظر ان حاصداتهم او حاصديهم لا يستقصون حصد القمح من اصوله بل يتركون مقداراً من القصب في الارض ربما كان ذلك لعدم مبالاتهم بالتبن لرخصه لديهم بسبب كثرة الاعلاف من الاعشاب وغيرها، او لعدم قدرتهم على ذلك.

القمح العجيب:

رأيت بعض الحقول فيها نبات قد اطل من الارض لتوه فاخبروني انه القمح بذره اهله الان مع انهم لن يحصدوه الابعد شهور طويلة عندما تذوب الثلوج في الصيف وذكروا انهم بذروه الآن ويحصدونه ثم ينزل عليه الثلج فيدفنه حتى يخيل لمن لايعرف امره على حقيقته انه قد مات وانه لانشورله بعد موته، غير انه يحيا بعد ذلك الموت ويجود حتى يحصدوه في الصيف.

وهذا امر عجيب ولكني تذكرت ما كان قومنا يقولون في امثالهم «ياالله بركة مجرود والاّ مصرود» يسألون الله ان يبارك في زرعهم والمراد به القمح كما يبارك في الزرع المجرود وهو الذي اصابه الجراد والمصرود الذي اصابه الصِّرد وهو البرد الشديد وذلك ان الجراد لايأكل شيئاً من جذور الزرع ولامن اسافله والبرد لا يقضي عليه وانما يقتل اوراقه الغضة التي ما يلبث الزرع ان يخرج اوراقاً بديلة عنها اذا ذهب عنه البرد، مع ان البرد الشديد عندنا هو الريح الباردة وهو ايضا القفصة التي يراد بها البرد الشديد من دون ريح ولا ينزل الثلج فيها عندنا وان كان قد ينزل الصقيع في الليالي الشديدة البرد.

قالوا: وقد اعتاد الزراع عندنا على ان يحصدوا هذا القمح مع

قطع الاعشاب المجاورة له قبل سقوط الثلج الذي يبدأ بالتساقط بعد شهر من الان اي في النصف الثاني من شهر اكتوبر، ويقطعون الاعشاب وقد نقول يحصدونها لارتفاعها عن وجه الارض اكثر من متر مثل اكوام ضخمة من الاعشاب نراها الان قد كوموها واعدوها لعلف الماشية في الشتاء.

وانطلقت السيارة في جو زراعي خصب كل مافيه يدل على ذلك، وتخيلت الشتاء الأشهب الكالح عندهم فتذكرت متوسط البرودة المعتاده عندهم ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر! وفي هذه المنطقة الخصبة بالذات، اما الطريق فانه أزفلتي ولكنه ضيق كثير الحفر والنقر ولكنهم يسعون في اصلاحه الان وقد رايتهم يفعلون ذلك في اكثر من موقع فيه.

هذا وقد واصلنا السير فقلت القرى في الطريق رغم الخصب الظاهر في المنطقة ومن مظاهر ذلك ان رايت اكواما من التبن المتغير للسواد ذكروا انه من تبن الموسم الماضي اتى عليه ثلج الشتاء ومطر الصيف دون ان يحتاجوا اليه لكثرة التبن الجديد ففسد القديم، وما زالت مزارع القمح الواسعة تغطي المنطقة والمراد بذلك اثار القمح الحصيد.

بلدة بازارني ماساجي:

وصلنا الى بلدة اسمها (بازارني ماساجي) وهي واسعة متناثرة المنازل بيوتها من طابق واحد متفرقة، حتى تبدو على البعد اشبه بالخيام وفي وسطها بعض البيوت الخشبية من طابقين، وهذه القرية

زراعية معظم اهلها يشتغلون بالفلاحة وقد رأيت امرأة على قدميها حذاء جلدي ثقيل يصل الركبة في ارتفاعه وهو ضروري هنا لوقاية الارجل من الثلج والماء البارد، ووقفنا في احد شوارع هذه البلدة الخالية من الزفت ومن اي مظهر آخر من مظاهر العناية البلدية، وقد مرت بنا شاحنة (قلاب) فاثارت عاصفة من الغبار لم تهدأ الا بعد فترة والتف علينا جماعة من الصبية البيض بل الشقر وتبين انهم كلهم من أبناء المسلمين ويحملون اسماء إسلامية واضحة وسألت احدهم عن اسمه؛ فقال (رسلان عثمان) ومن اسماء الآخرين التي اخبرونا بها عندما سألتهم: فاتح وابراهيم ورايف وريس.

وكانت الوقفة عند بيت اخ مسلم تبين فيما بعد انه نافع لنا اذ أخذنا الى موقع مدينة بلغار التاريخية وعشانا في بيته فيما بعد، وبيته ريفي تزين اطرافه اشجار التفاح الثقيلة بالثمار فهذا اوان ادراك التفاح في هذه المنطقة.

ومع الإهمال في الشارع والمرافق العامة في البلدية فان اكثر بيوتها تبدو ذات مظهر جيد كبيت هذا الاخ المسلم المبني من الآجر وسياجه الخارجي الذي يضم في داخله فناء البيت هو من الأخشاب القصيرة، وقد خرج الينا صاحب البيت مرحباً وهو الاخ (سلطان احمد) تتاري من هؤلاء الذين يسمون بالتتار وهم البلغار الذين لاتربطهم رابطة من شبه أو لون بتتار المغول، وفي البيت اشجار قديمة من اشجار التفاح وخضرة ليس فيها مما يؤكل شئ وهذا عجيب في امرهم حيث تكثر الامطار في فصل الصيف ولا يستغلون ذلك في

زراعة بعض الخضروات التي يمكن ان تنمو في بلادهم وان تثمر قبل ان يحل موسم البرد الذي يقتلها، وقال الشاب الياس: ان هذا الفصل الدفئ ينقضي بسرعة ثم ينزل الثلج فلا ينتفعون من الأرض بأي شئ.

قال ذلك لكونه يعرف من احوال بلادنا التي عاش فيها نحو السنتين ان ارضنا لا ينقطع عطاؤها حتى في الشتاء، ولم يقله بقية المرافقين الذين يظهر انهم اعتقدوا حتى من دون تفكير ان اكثر البلدان كبلادهم يموت ماعليها من خضروات واشجار في فصل الثلج الطويل.

مغادرة بازارني ما ساجي:

تبعد (بازارني ماساجي) ١٤٠ كيلو مترات من قازان وما زالت في الطريق الى مدينة بلغار بقية طويلة.

ركب معنا الاخ سلطان بن احمد في سيارتنا لنواصل سيرنا تجاه مدينة بلغار، وفي طرف البلدة اعترضتنا امرأة تكلمت بلغتها المشتقة من التركية القديمة بحدة ففسروا كلامها بأنها تقول لقد انتظرنا المساعدة على بناء المسجد مدة طويلة فمتى تاتي ؟

وقلت في نفسي: انها ستأتي أقرب مما تتصورين، وقلنا لها علناً: انها قريبة بعد ان نزور الارض التي حصلوا عليها لبناء المسجد وذلك بعد العودة من زيارة مدينة بلغار .

سكان البلدة:

هذه البلدة مختلطة السكان إذ يبلغ مجموع سكانها خمسة

الاف وخمسمائة نسمة منهم ثلاثة الاف وخمسمائة من المسلمين والبقية من غير المسلمين من الروس وغيرهم ممن يمتون اليهم بصلة النسب او اللغة، ومعنى هذا ان الغلبة في سكانها هي للمسلمين ومع ذلك لم يتمكنوا من بناء مسجد فيها وان حصلوا على الارض وصاروا يسعون في جمع التبرعات لبنائه، ورأيت فيها شيئاً استرعى انتباهي واعاد الى ذهني مناظر مشابهة في اماكن باردة اخرى وهو منظر أسراب كثيرة من البط الأبيض الكبير يتهادى في شوارع القرية الترابية او يسبح في مناقع المياه فيها، وهذا امر رأيته في معظم القرى المسلمة من بلاد القوقاز وبخاصة في بلاد الشركس وقد ذكرت ذلك في كتابي «**بلاد الشركس الاديغي**» كما كنت قد رأيت مثلا له في القرى الإسلامية في بلاد ما وراء النهر.

ولا شك في ان اتخاذ البط من قبل المسلمين يقابله اتخاذ الخنازير من قبل غيرهم، مع اننا لم نلاحظ في هذه المنطقة وجود اي خنزير فيها، وربما كان المسيحيون او غير المسلمين يراعون مشاعر المسلمين في عدم وجوده، مع كونهم أي الكفار يأكلونه اذا وجدوه.

ومن المناظر التي تسترعي الانتباه منظر انابيب المياه اوهي انابيب الابخرة الساخنة قد نشروها في البلدة ولكنهم لم يدفنوها تحت الارض كما نفعل نحن في انابيب المياه، وانما جعلوها عالية فوق ارض الشارع بنحو نصف المتر، وتلك عادة في البلدان الروسية والبلدان الشمالية التي يسيطر عليها الروس حيث تعمل الحكومة على مد انابيب الأبخرة الحارة من اجل التدفئة في الشتاء في انابيب مكشوفة

فوق سطح الارض وذلك لشدة البرد في تلك المناطق، وهذا شئ لا يتصوره المرء منا في الوقت الحاضر لان الوقت يعتبر صيفا عندهم وجميع من نراهم من الناس هنا يرتدون الملابس الخفيفة.

كانت مغادرتنا قرية (بازارني ماساجي) في الساعة الثانية والنصف ظهراً وشاهدنا اعمدة الكهرباء تماشي الطريق وفي خارج المدينة نساء قد اجتمعن في وضع لا يدل على الارتياح في انتظار وصول الحافلة لتنقلهن الى ما يريدن الذهاب اليه.

ومازالت المنطقة منطقة زراعة القمح يظهر ذلك من اكوام التبن الضخمة التي ترى من الطريق في اي اتجاه.

وقد نوه المرافقون بأن جميع المزروعات هنا لاتسقى وانما تشرب من الامطار الصيفية او من ذوب الثلوج في الشتاء ونوهوا بأن زمن الثلج يستمر من ٥ اشهر الى ٦ وعلى هذا يكون نصف الزمن عندهم شتاء ومررنا برجل واقف عند سيارة له متعطلة ورثينا لحالته لانه لا توجد خدمات للسيارات على الطرقات والهواتف قليلة ووسائل اسعاف السيارات السريعة بطيئة او غير موجودة الا ان الشئ الطيب هو غلبة الامان حتى في هذه البرية فالسرقات قليلة والاعتداءات المسلحة أقل.

وعاد الحديث الى الخصب وانتاج الارض فقلت لهم ما لم يفهموه وهو ان بعض البلدان المتقدمة في الادارة مثل الدانيمرك طورت المجال الزراعي حتى غدا يدر عليها مداخيل ضخمة مثل المداخيل الصناعية عند الدول الصغيرة الاخرى وقلت لهم ان

والخبره الجيدة ان تستفيدوا فائدة عظيمة من ارضكم هذه عن طريق تربية الحيوان واستغلال ماتنتجه من البان وزبدة الى جانب اللحوم التى يزداد سعرها في العالم يوما بعد يوم .

وكثرت الحرائق التي اشعلها المزارعون في مخلفات القمح وفي الأعشاب الوحشية التي في الحقول من اجل تطهيرها من ذلك تهيئة لزراعتها المقبلة.

قرية جغاصوما:

مر بنا الطريق بقرية زراعية اسمها (جغاصوما) كان من المناظر فيها اسراب من الغربان لا ادري سبب وجودها هنا وجرار زراعي يحرث ارضاً غير واسعة.

هذا وقد دخلنا الى منطقة اسمها (سمسك) كتب اسمها عليها باللغة الروسية مثل جميع اللافتات المكتوبة بالحروف الروسية دون استثناء وان كان القليل منها باللغة التتارية بالحروف الروسية.

قرية نيكولسكي:

وصل بنا الطريق الى قرية روسيه اسمها (نيكولسكي) تقع على نهر صغير اسمه (نهر بزدانه) ، وقد واجهنا عندها أول شرطة يسألون الناس في الطريق ولم يخبرنا المرافقون عن الغرض من سؤالهم للسائق وبعض الركاب ولكن ليس مهما لانه لم يترتب عليه شئ.

واصلنا السير ولم نتوقف فكان من الاشياء الظاهرة في الطريق

شاحنات روسية عريضة وهي التي عرفتها في بلدان الاتحاد السوفيتي حيث تكون خشنة قوية لم يراع فيها جمال المنظر ولا انسيابية الحركة بقدر ما روعيت فيها القوة.

ولم تنقطع مظاهر الزراعة الواسعة واهمها حقول القمح الحصيد الذي هو ملك للدولة وبقيت منه اكوام التبن الضخمة وبجانبها اكوام الاعشاب التي جمعوها للاعلاف وكلها تظهر على البعد كأنما هي البيوت المتفرقة.

واستمر الطريق وشعرنا بأنه قد طال اكثر مما قدرنا، وقلت فى نفسي: ان (بلغار) تستحق ذلك ثم رجعت باللوم الى نفسي على هذا الخاطر الذي يستحي المرء منه اذا ذكر ان أسلافاً من أسلافه قد انفقوا كثيراً من المال والجهد والوقت وساروا أحد عشر شهراً في الطريق إلى بلغار مع المشقة والخوف من اللصوص، والمغيرين ومعاناة قسوة البرد وربما يأتي ببيان ذلك في آخر الكلام على بلغار – إن شاء الله تعالى –.

وكان من أجمل المناظر التى ترى فى حافات الطريق الزهور الربيعية التى يصح ان توصف هنا بأنها الزهور الصيفية لأن صيفهم هو ربيعهم وربيعهم الذي يوافق زمنه زمن ربيعنا هو شتاء او كالشتاء فى برده وثلجه ومن اللافت للنظر اني رأيتهم قد بنوا على الطريق محطات للحافلات بلبن الآجر الأزرق اللون، ولكننى لم اصادف حافلة واحدة في هذا الطريق لا سائرة ولا واقفة.

حدود بلغار:

وصلنا حدود المنطقة التى تقع فيها مدينة بلغار التاريخية وهذا هو المراد بحدود بلغار وإلاَّ فإنَّ حدود دولة بلغار الإسلامية هي واسعة بحيث تشمل جمهورية تتارستان هذه كلها وما كان منها شمالا حتى منطقة القطب الشمالي، ووجدنا عند مدخل المنطقة على الطريق عدداً من رجال الشرطة اطلعوا على أوراق السيارة ثم سمحوا لنا بدخول المنطقة دون اي تعقيد.

كان وصولنا الى بلغار في الساعه الثالثة من بعد الظهر، وكان اول ما يميز مدخل منطقة المدينة نصباً من حديد أبيض مكتوباً عليه اسمها باللغة الروسية، وكنيسة من الصفيح الخفيف.

وقد تأثرت جدا اذ المفروض ان يكون في مدخل المدينة مسجد على الطراز المعماري القديم المعروف في هذه المنطقة وذلك بأن تاريخها كله انما هو تاريخ إسلامي مجيد، ولم يحدث قط ان حكمها المسيحيون بعد إسلام اهلها الا بعد ان سقطت دولة المسلمين في قازان .

هذا بالنسبة الى المنطقة واما بالنسبه الى المدينة فانها منذ ان اجهز عليها القائد الروسي بجنوده وهو باسيل الثالث امير امارة موسكو في عام ١٤٣١م لم تقم لها قائمة غير ان دولة المسلمين في قازان، استمرت حتى قضى عليها القيصر ايفان الرابع المسمى عندنا بايفان الرهيب في عام ١٥٥٢م وبأمره أقيمت كنيسة بجانب المسجد الجامع، بل ان بعض الاحجار التى كان الجامع مبنيا بها أخذت بعد

هدمه وبنيت به الكنيسة وسوف يأتي الكلام على ذلك في المشاهدات عندما نصل الى وصف مابقي من الآثار التاريخية فيها.

إننا نقول إنه لا بد ان يبنى مسجد هناك ونحن نعرف ان نفوذ الاخوة المسلمين في بلادهم ضعيف في الوقت الحاضر وانه كان اكثر ضعفا في الماضى القريب الذي صاحب الحكم الشيوعي، وكان اكثر من ذلك ضعفا او في مثله في العهد القيصري الروسي بعد سقوط قازان الى قبيل العهد الشيوعي، ولكننا املنا في ان يعمد المسؤولون الروس الى بناء المسجد من أجل الوفاء للحقيقة التاريخية، ومجاملة لمن يزورون المنطقة من المسلمين الاجانب والمواطنين من خارج (تتارستان).

وصلنا البلدة الجديدة ويسمونها (بلغار) أيضا على اسم المدينة التاريخية فوجدنا بيوتها متفرقة اشبه ماتكون بالخيام مع انها من الاخشاب والآجر الابيض ذات سقوف من الصفيح، ولاحظت كثرة الغربان والبط فيها رغم مابين هذين النوعين من الطيور من تنافر مما لم أر له مثيلا فيما يتعلق بالغربان الا في مطار الجنوب في موسكو عندما اقلعنا منه كما تقدم .

لوحة تذكارية:

وقفنا عند لوحة تذكارية واضحة مكتوبا عليها مايلي بالروسية (آثار قديمة، دولة بلغار كانت في القرن العاشر، يحفظ من الحكومة).

اى أن أوامر الحكومة تقتضي المحافظة على هذه الآثار وقد

رأيناهم فيما بعد قد حافظوا عليها بالفعل؛ كما كتبوا المعنى نفسه باللغة التتارية الشائعة في هذه الجمهورية ولكن بالحروف السيريالية المسماة بالحروف الروسية وهي حروف سلافية مخالفة للحروف اللاتينية.

العواصف والعواطف:

بينما كنا نقف عند اللوحة التذكارية كانت تهب على ذهني، بل في ضميري كله عواطف كأنها العواصف من الأسى والحزن على ما وصلت اليه حال أهل الإسلام حتى آل الامر بهم الى سقوط دولة مسلمة، بل ذات تاريخ مجيد في الإسلام وكانت تمثل اقصى أمم الإسلام من جهة الشمال واقربها الى القطب الشمالي، وكانت قد انضمت الى حظيرة الإسلام عن طيب خاطر وبدون غزو او فتح كما سبق فيما نقلناه وتأتي تتمة لذلك فيما ننقله بعد ذلك إن شا الله تعالى.

بينما كنت كذلك واخوتي المرافقون؛ كانوا يذكرون انهم يعانون مثله إذ هبت علينا عاصفة قوية ولكنها قصيرة العمر من عواصف البرية كأنها هي عواصف الصحراء عندنا في آخر فصل الصيف الذي يسميه عوام الكتاب عندنا بفصل الربيع.

فعجبت من تشابه الامر وارجو الايسرع القارئى الكريم فيحكم بأن هذا من سذاجة الرأي او من التجوز في القول فقد تخيلت هؤلاء الاخوة المسلمين على خيولهم وهم ينادون بكلمة التوحيد: الله اكبر، الله اكبر، كما تخيلت ملكهم (المش بن بالطوار) الذي هو أول ملك يسلم منهم وهو يستقبل رسول الخليفة العربي المسلم المقتدر بالله

الذي وصل الى بلادهم بناء على طلب منهم من أجل ان يعلمهم أمور دينهم فوصل اليهم بعد أن قضى فى الطريق إليهم اكثر من أحد عشر شهراً.

ثم تصورت هدم المسجد الجامع وتخريب هذه العاصمة المسلمة ومحاولة محو آثارها الإسلامية عند تخريبها حتى تصور المتصورون من الاعداء والاصدقاء أنها لن تقوم فيها للإسلام قائمة ولن ترتفع في جوها منارة ترمز الى توحيد الله، ولكن الله اخلف ظنهم وها هو المسجد الجامع الجديد فيها يشاد بهمة الاخوة المسلمين من أهلها وهو المسجد الذي سنزوره بعد زيارة آثار المدينة التاريخية.

وتجاوزنا بلدة بلغار الحديثة متجهين الى آثار المدينة التاريخية فرأينا عند حافة هذه البلدة أيضا كنيسة نظيفة المظهر ذات مبنى معتنى به، وقد طلي أعلاها باللون الأخضر.

فى مدينة بلغار التاريخية :

وصلنا الى فراغ من الارض عندما غادرنا بلدة بلغار الحديثة التي يسميها بعضهم قرية بلغار لصغرها وسرنا فيه نحو ١٨٠٠ متر واذا بنا نصل مساحة محجوزة بسياج من الحديد وقفنا عندها فاستقبلتنا اخت مسلمه اسمها (رويلة بنت رشيد) وهي من اهل بلغار المسلمين الذين صاروا أقلية قليلة في موطن امجاد البلغار المسلمين.
و(رويلة) خبيرة بأمر هذه الآثار تشرح من أمرها ما خفى على السياح، كما كانت الأخت رويلة ترتدي لباساً عصرياً ولكنه سابغ وتضع على رأسها منديلا يستر شعرها وهو ما لاتفعله هنا إلا المسلمات.

وقفنا عند بوابة قصيرة لايزيد طولها على متر واحد لأن السياج كله كذلك.

تاريخ مدينة بلغار:

قالت الأخت الدليلة رويلة: لقد اعتنق البلغار المسلمون الدين الإسلامى فى عام ٩٢٢ للميلاد وبنوا مسجد بلغار التاريخي هذا الذي ترون بقاياه في القرن العاشر الميلادي، وكان بناؤه من الخشب في أول الامر لأنهم هكذا كانت بيوتهم من الخشب.

قالت: وعند ما احتل القيصر (ايفان قروزني) مدينة قازان عام ١٥٥٢م كانت مدينة بلغار خالية تماما من السكان ولم يكن يأتي اليها الا بعض السكان من أجل الصلاة في مسجدها للتبرك.

الكنيسة من احجار المسجد:

الاخت رويلة موظفة في مصلحة الآثار ولذلك كانت تتجنب في اثناء الشرح ايضاح بعض الاشياء المعروفة في المنطقة التي كان مرافقونا يعرفونها.

ومن ذلك أنها قالت - ونحن نقبل على كنيسة ظاهرة باقية على هيئتها القديمة، وهي بجانب بقايا المسجدالتاريخي -: لقد بنيت هذه الكنيسة في عام ١٧٣٧م عندما زار القيصر الروسي بترو الاكبر هذه المدينة لمدة ثلاث ساعات أمر ببناء الكنيسة وكان تاجر روسي من المقيمين في قازان اسمه ميخائيل قد قدم تكاليف بنائها الى القيصر ورغب أن يأمر القيصر ببنائها على أن يتحمل التاجر نفقات البناء.

وقالت : لقد وجد ابن فضلان وهو الكاتب العربي الذي رافق البعثة التي بعثها الخليفة المقتدر اليهم عندما وصل في ١١ مايو عام ٩٢٢م عندهم خمسة مساجد أوقالت لقد بني في عهد ابن فضلان خمسة مساجد ولكن لم يبق الآن لأي منها أثر او حتى معرفة موقع الا هذا المسجد القديم الذي بقاياه ظاهرة .

وكانت المساجد القديمة الخمسة كلها من الخشب ولكن هذا المسجد التاريخي مبني بالحجارة بناء قوياً في القرن الثالث عشر كما يتضح ذلك من بقاياه التي تشاهدونها .

واقول إن وصول ابن فضلان اليها كان في ١٢محرم من عام ٣١٠هـ بناء على طلب ملكها المسلم (المس بن بالطور) الذي هو أول الملوك الذين أسلمو من اهلها، وكانت الدليلة تتكلم بلهجتها البلغارية او لنقل التتارية فكان يصعب على الاخوة المرافقين متابعتها في فهم ما تقوله مع أنهم مجاورين لها فاضطررنا الى ان يترجم لنا أحدهم ما تقوله بالعربية ثم اضطررنا الى ان نتكلم معها بالانكليزية بحكم عملها في شرح حال هذه الآثار بالانكليزية للسياح من الاوروبيين والامريكيين .

وقالت الدليلة : لقد خرب هذا المسجد (باتو خان) وهو حاكم مسلم غزا المدينة وظني انها بذلك تريد أن تبعد التهمة عن الروس في تخريبها لان الثابت تاريخياً انه غزاها واضرم النار في بعض منازلها الخشبية ولكن المسجد مبني من الحجار بناء قوياً وليس من المستساغ

عقلاً أن يخرب حاكم مسلم جنده ايضا مسلمون مسجداً قويا لمجرد خلافه مع أهل البلدة التي يوجد فيها .

والدليل على عدم صحة ما نسب الى (باتو خان) من تخريب المدينة ما ذكرته الدليلة نفسها من كونه أشعل النار فيها عام ١٣٧١م واقام فيها خمس سنوات؛ فكيف يقيم فيها خمس سنوات اذا كان خربها تخريبا؟ فضلاً عن كونه يهدم مسجدها وانما الذي فعله فيما يظهر أنه أحرق جزءاً منها لكي يتغلب على مقاومة اهلها ثم استقر فيها ٥ سنوات عندما تغلب عليهم.



[المؤلف عند عمود باق من اعمدة المسجد]

والمفهوم المعروف لنا الآن ان الذي خرب مدينة بلغار ذلك الخراب الذي لم تعمر بعده هو (باسيل الروسي) .

والشئ الذي لم تقله الدليلة ولكن قاله لنا احد المرافقين بالعربية : ان اساسات الكنيسة وحيطانها بنيت بحجار مأخوذة من المسجد ولا مجال للشك في ذلك لانني رأيت انا وبقية المرافقين حجارة في أسفل جدران الكنيسة عليها كتابات بالحروف العربية التي كان يكتب بها القوم لغتهم وبعضها ظاهر منه أنها ربما كانت آيات قرانية غير أننا لم نتأكد من ذلك بسبب اختفاء بعضها في داخل الجدار.

وقالت الدليلة : لقد كان المسجد الجامع هذا في وسط المدينة ولا نرى الآن أى شئ مهما من منازلها حوله لأنها كلها كانت قد أحرقت.

وعادت الدليلة لتقول : لقد استخدمت بعض حجارة المسجد التي كانت ساقطة في بناء الكنيسة لان الكنيسة بنيت بالحجارة مثلما بنى المسجد.

المسجد التاريخي:

صعدنا إلى المسجد التاريخي أوبأ لاصح أن يقال فيه بقايا المسجد التاريخي او (أشلاء المسجد التاريخي) مع درج حجرى خشن نحو المتر حيث لازالت بقايا المسجد وعمود او عمودان منه باقية كأنما لتشهد على ما فعله الخلاف والتنازع بين المسلمين الذين مكنوا لعدوهم بذلك من أنفسهم ويقع ملاصقاً للكنيسة.

وقد قال احد الذين رأيناهم في المكان : ان هذا المسجد كان يرتفع ٢٥ متراً قبل هدمه،

وكان التاجر ميخائيل قد طلب من القيصر ان يبنى برج الكنيسة

بحيث يعلو على منارة المسجد او على الأقل لا يقل عنها علواً في ذلك الوقت .

والمسجد وأسع جداً لا تزال حدوده موجودة بل ظاهرة ذكرت الدليلة أنه كان يتسع لألف مصل وانه عندما جرى الاحتفال بمرور الف سنة على اعتناق أهل هذه المنطقة الدين الإسلامي قبل سنتين صلى فيه بالفعل نحو الف مصل، هذا مع ان أرضه غير مستوية ولكنها قد اكتست بساطا من الاعشاب البرية الخضر جعلت الصلاة عليه مريحة، ولاتزال بقايا حجارته ساقطة بأكوام كبيرة لم تنقل وهى من الحجارة المهذبة .

تجب اعادة بناء المسجد:

هذا المسجد بيت من بيوت الله ذكر اسم الله فيه قرونا متطاولة وهو يمثل قلب الحضارة الإسلامية لأمة مجيدة اخنى عليها الدهر وقد أهين حتى بنيت بحجارته التي نقشت عليها الجمل والكلمات العربية الإسلامية أساسات كنيسة مجاورة لالشئ إلا لكي توجد الكنيسة بجانب المسجد وتغطى عليه والا فانه لم يكن يوجد سكان مسيحيون في المكان عندما بنيت الكنيسة ولا يزال الامر كذلك حتى الآن .

ولذلك كنت أفكر فيما ينبغى أن نفعله تجاه هذه الأثار الإسلامية لالكى نخلصها وننقذها، وانما من اجل ان نشرح حالها ونوضح ما كان من أمرها لأبنائنا وأبناء المسلمين حتى يأخذوا العبرة والموعظة لئلا يتكرر في مكان آخر من العالم الإسلامي الواسع ماحدث هنا لهذا المسجد .

وقلت: إن اول شئ يجب أن نفعله هو أن نعيد بناء المسجد كما كان فالسياح من المسلمين وغيرهم يأتون اليه كل يوم فيصلي منهم من تدركه الصلاة فيه وقد يتطوع متطوع بالصلاة حتى في غير أوقات الصلاة المفروضة، ثم ان في ذلك رفعاً لمعنويات أبناء المسلمين في هذه البلاد وتذكيراً حياً بماضيهم المجيد بدلاً من ان يروه مهانا محطماً.

وبناء المسجد واعادته الى ما كان عليه ليس غريباً على الاخوة المسلمين في الحواضر الإسلامية الذين يملكون ثروات طائلة وأموالا جمة، وعندهم من الرجال الاكفاء الذين يستطيعون ان ينفذوا ذلك بطريقة مناسبة بل مشرفة، ويمكن ان يستصدروا الاذن من السلطات بأن يبنوا فندقا اوحتى نُزُلا صغيراً لأقامة السياح غير بعيد من المسجد يكون موقوفا على المسجد ويخصص زيعه لمصلحة المسجد.

وبينما كنت افكر ذلك ونحن في بطن المسجد أو لنقل في وسط أشلائه، رأيت الدليلة المسلمة تشير إلى ناحية ملاصقة للمسجد، وتقول: إنهم الان - تريد المسلمين واظنها تعني حكومة تتارستان - بدأوا بإعادة وبناء منارة المسجد ليعيدوها كما كانت على علو ٣٠ متراً لتكون أعلى من برج الكنيسة الذي بنى معاندة للمسجد بخمسة أمتار، وقد صبوا أساس المنارة بالاسمنت المسلح القوي في مكانها القديم من المسجد.

شواهد تاريخية:

لبثنا فترة اكثر مما قدرته الدليلة ، واكثر مما اعتاد غيرنا ان يلبث

في المسجد لذلك نادتنا للقيام بجولة على بقية آثار مدينة بلغار .

الأثر الأول : كان الذهاب الى مبنى أشبه ما يكون بالمحقن المقلوب اوالمقبب تقبيبا حاداً وهو مبنى بالحجارة والطين وقالت الدليلة : انه ضريح وتبين انه بالفعل مقبرة لجماعة ربما كانوا من الملوك والأمراء القدماء ولكنها ذكرت أنه من غير المعروف اسم الشخص الذي دفن فيه او صفته، وظني ان ذلك غير صحيح لأن المكان قديم ولن يخفى على علماء الآثار أمره اوحتى مجرد تقدير البناء المقام عليه، ويبعد عن موقع المسجد والكنيسة بنحو ٨٠ متراً وقد كتبوا عليه باللغة العربية العبارة التالية : (**الضريح الشمالي القرن الرابع عشر**)، وهو مقبرة بدون شك اذ راينا قبوراً في داخله لاتزال شواهدها باقية فوقها كما رأينا قبوراً أخرى في خارج المبنى ليست عليها شواهد وظني أن شواهدها قد نقلت الى مكان آخر .

دخلنا الضريح الداخلي فوجدنا فيه كنوزاً اثرية من شواهد القبور التي عليها كتابات بالحروف العربية وليس عليها كتابة بأية حروف أخرى غيرها، وبعض هذه الحروف باللغة العربية كلها، وبعضها بلغة القوم وهي اللغة البلغارية وهي احدى فروع اللغة التركية القديمة المسماة بالجغتاوية، او الالتائية وهي تختلف عن لغة تتارستان التى يتكلم بها اهل قازان الآن، ولا يتكلم بهذه اللغة الآن الا بقايا البلغار الذين منهم الدليلة؛ هكذا اخبرتنا الدليلة وهكذا اخبرنا غيرها .

ولا يقلل من أهمية هذا الكنز الأثري الذي هو اشبه بمعرض اللّوحات الاثرية العربية الا ضيق الوقت بالنسبة الينا وعدم وجود اى

نور في المكان الخالي من النوافذ وحتى بابه فانه كان ضيقا لا يسمح بنفاذ ضوء كبير.

وسألت القوم عما اذا كانوا يعرفون دراسة متكاملة لهذه الشواهد والنصوص المكتوبة بالحروف العربية فنفوا ذلك وظني انه لابد من ان توجد دراسة لها وان كانوا لا يعرفونها؛ ولهذا السبب لم نستطع الاهتداء الى تاريخ أكثرها لما ذكرت واكثرها بلاشك عندي من مخطوطات القرن السابع الى التاسع الهجريين، عرفت ذلك من معرفتي الشخصية بالخطوط العربية القديمة التي حصلت عليها من كوني عملت في اول عمل لي في وظيفة (قيم مكتبة جامع بريدة) وفيها مخطوطات عديدة.

ثم اخذت أجمع مخطوطات عربية من البلدان العربية ومن داخل المملكة وبخاصة من المدينة المنورة عندما نقل عملي اليها في عام ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

وعرفت من ذلك ملامح المخطوطات العربية في قرون مختلفة.

وقد قرأنا على احد الشواهد كتابة عربية واضحة (هُوَ الْحيُّ الَّذي لا يَموتُ) وتاريخها ٩٨٤ والمراد بذلك من التاريخ الهجري لأنها من خطوط القرن العاشر الهجري، ثم قرأنا نصاً عربيا آخر عليه تاريخه ظاهر واضح بالخط النسخى المستعمل في العصور الوسيطة مؤرخا في عام ٧١٠ للهجرة.

ومن الطريف ان المدير المسؤول عن المنظمة كلها وهو روسي حضر الينا وقال وهو يشير الى هذا النص المكتوب عليه تاريخه العربي

الواضح ٧١٠هـ ان هذه الكتابة قد مضت عليها الان سبعمائة سنة.

فقلنا في اذهاننا: إننا اعرف بها منك

كنيسة الضرار:

مثلما خرب المسجد وعطل عن الصلاة سلط الشيوعيون على الكنيسة فعطلوها عن العبادة، بل غيروا طبيعتها وان لم يغيرو بناءها فجعلوها متحفا من المتاحف، وهي بالفعل متحف صغير، إذْ مساحتها الداخلية ليست واسعة ولا تقارن مطلقا بمساحة المسجد وقد اسميتها كنيسة الضرار اذْ يسمى المسجد الذي يقام بجانب مسجد آخر - لالشئ الالكى ينصرف الناس عن الصلاة في المسجد الاول - بمسجد الضرار.

اما هذه الكنيسة فهى كما قلنا انما اقيمت لصرف أنظار الناس عن وجود المسجد ولمضاهاته بقصد وجود رمز الديانة المخالفة له بجانبه.

رأينا لافتة قرب الكنيسة مكتوبا عليها بالروسية والانكليزية (برج الأجراس الكنيسة الاسبينية ١٨٤٧- ١٨٤٩ .

قبل أن أدخل الكنيسة حمدت الله في سري على كون ابن فضلان، بل ومن بعده من علماء المسلمين وكتابهم لم يعيشوا إلى هذا العصر الذي انتصبت فيه كنيسة بجانب المسجد المعطل، بل المهدم الذي استعملت احجاره المحلاة بالكتابة العربية الإسلامية في بنائها.

ودخلناها مع الداخلين الذين كان كثير منهم من السياح واغلبهم من انحاء روسيا وفيهم نسبة من المسلمين أو لنقل: انهم من انسال المسلمين.

وكانوا قد قسموا الكنيسة – على ضيقة مساحتها – الى قسمين رئيسين عرضوا في كل واحد منهما اشياء مما يعرض في المتاحف وكلها من هذه المنطقة وبخاصة ما يتعلق بتاريخ البلغار وسكانها القدماء المنقرضين فكان من اظهرها الادوات المستخدمة في نحت الصخور، هذا مع العلم بأن اوائلهم كانوا يبنون بيوتهم من الخشب المتوفر في المنطقة وهو مناسب للجو البارد، ولكن يظهر ان متطلبات الحياة المدنية التي اصبحوا عليها واتصالهم بالآخرين من المسلمين المتقدمين جعلتهم يعدلون عن اتخاذ بيوتهم من الاخشاب الى البناء بالحجارة، ولكن في الابنية المهمة التي لم نر باقيا منها الا المسجد والمبنيين الآخرين اللذين وصفت احدهما وسيأتي الكلام على الآخر فيما بعد – إن شاء الله – كما عرضوا عظاما مستخرجة من المنطقة لحيوان المأموث وهو ضخم يعيش في الماء يقال: ان الحيتان من انساله أو هو من أجدادها سيان.

كما عرضوا ايضا عظاما آدمية بشكل واضح وسافر لاقوام ذكروا أنهم ماتوا في القرنين التاسع والعاشر بمعنى ان بعضهم عاش في القرن التاسع وبعضهم في القرن العاشر للميلاد.

ومن تلك العظام جمجمة كاملة وعظام ارجل وأيد، وظني انهم استخرجوها من المقابر الموجودة في المنطقة وسيأتي شئ مما يقوي هذا الظن.

كما عرضوا مصنوعات جيدة قديمة من صناعات ذكروا أنها من دولة (التون اورده) او القبيلة الذهبية وهي الدولة المسلمة التي

استمرت قرونا حية قوية في منطقة نهر إيتل (الفولقا) وجنوب روسيا وشمال قازان، وقالت الدليلة معلقة على ذلك : إن أسرار الصناعة الاولية قد اكتسبها الروس من المسلمين وهذا واضح من الناحية التاريخية، لان المسلمين هم الذين احتك بهم الروس من الاقوام المتمدنة المتقدمة في تلك العصور .

وقد عرضوا من مخلفات دولة (التون اورده) مجوهرات ذهبية وادوات من ادوات الزينة، ثم انابيب من الفخار تستخدم لإسالة الماء فيها كالأنابيب الموجودة الان من الحديد وهو متقنة الى درجة عجيبة، كما عرضوا رسما كبيرا يوضح شكل المدينة في القديم على ارضية خضراء الا انه مجمل غير مفصل، وانموذجاً لمحكمة شرعية سارعت الدليلة الاخت (رويلة) تقول إن هذه المحكمة لا تصدر أحكاماً بالقتل او قالت لم تصدر عنها أحكام بالقتل وعللت ذلك بقولها : ان القوم كانوا متقدمين في مضمار المدنية .

ولا شك في ان بعض الشعوب ذات التقاليد العريقة تكون فيها عقوبات معنوية او لنقل : اجتماعية ربما تكاد تعادل القتل في قوة اثرها في النفوس فتمنع كثيراً من الجرائم الى جانب كون القوم في اول عهدهم مسلمين متمسكين بالإسلام مما يقلل من الجرائم عندهم؛ كما وضعوا رسماً لاحد بيوت البلغار القدماء الخشبية ورسماً آخر أهم منه ويمثل فيما يقولون جيش البلغار في ثلاثة رسوم كبيرة ورسماً آخر لسوق المدينة .

ونظراً لصعوبة تصويرها بالمصورة التي احملها فقد طلبت من

الدليلة ان تجد لنا كتيبا فيه شرح لهذه الامور كلها كما هو المعتاد في مثل هذه المواضع المهمة فاعتذرت بأن ذلك لايوجد الا باللغة الروسية فطلبت منها ان نشترى صوراً لبعض هذه الرسومات فذكرت ان ذلك لايوجد، وهذا ايضا من التقصير لأن المعتاد في مثل هذه المواقع السياحية المهمة أن توجد صور وحتى بطاقات بريدية ممتازة الصور فيها ليشتريها السياح ويرسلوها الى ذويهم او ليحتفظوا بها بمثابة التذكارات .

وفى ركن من المتحف الذي هو الكنيسة عرضوا أسلحة غريبة ذكروا أنها من اختراعات البلغار القدماء، او من انفراداتهم منها سكين صغيرة حادة تحذف حذفا بطريقة خاصة تتطلب مهارة عالية فتصيب العدو من بعد قبل ان يصل سلاحه الذى يكون بيده الى رامي السكين؛ وكذلك مطرقة لها ثلاثة رؤس يحملها المقاتلون من الفرسان تمنع المهاجمين من التقدم.

وقد حفل المتحف أيضا بكتابات عربية وأخرى بلغارية بحروف عربية منها شاهد على قبر تقول الكتابة العربية عليه: (الحمد لله العلي الكبير، الحاج أول محمد مولتكا رحمة الله عليه رحمة واسعة). ذكرو أنه كتب في بداية القرن الرابع عشر ولم أجد عليه تاريخا ولكن يظهر من خطه انه من خطوط القرن التاسع الهجري.

وشاهد ثانٍ عليه كتابة عربية طويلة مؤرخة تاريخا عربيا واضحا فى عام ٧٠٠ للهجرة؛ وثالث عليه كتابة عربية أيضا ولكنها طمست فى بعض المواضع اولها(الحكْمُ للهِ ٱلعَليِّ ٱلكبِير)، هو أول ... وفي

آخرها تاريخها واضح أيضا وهو فى عام ٧٢٠ للهجرة، كما عرضوا صورة كتابة عربية مؤرخة في عام ٧٠٠ هـ أيضا .

وعندما رأيت هذه الكتابات العربية التى دلت على ان هذه المنطقة الإسلامية القصية من الوطن الإسلامي القديم كانت مجالا مهما من مجالات الثقافة الإسلامية التى أداتها اللغة العربية وذكرت أن إخواننا المسلمين المعاصرين من أنسال البلغار او من أخلافهم المسمين بالتتار يتوقون الى اعادة مجد الثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد ولكنهم لا يجدون التعضيد والتأييد اللازم من بعض المسلمين القادرين على ذلك قلت في نفسي : لاحول ولاقوة الابالله (ربَّنا لا تؤاخِذْنَا بِما فَعَلَ السَّفهاءُ مِنَّا) وصممت على أن ابذل جهدى فى التعاون معهم ومع اخوانهم المسلمين في بقية هذه الاصقاع الشمالية النائية بقدر الاستطاعة و ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [**البقرة** : ٢٨٦]، ثم عرضوا بعض مخلفات الرسوم للذين خلفوا المسلمين فى هذه المنطقة .

مشهد شهده ابن فضلان:

قالت الدليلة : انه يمكن لمن يرغب القاء نظرة عامة من مكان مرتفع على المنطقة أن يصعد مع هذا السلم داخل برج الكنيسة . وصعدت مع احد الرفاق وهو الأخ حسن ازميرلي ولم يصعد الاخرون وكان الصعود مع سلم حديدي حلزوني أملس صعب المرتقى لأنه لم يوضع فى الأصل من أجل ان يصعد فيه وانما من أجل ان يكون مظهراً لوجود الكنيسة ولينافس منارة المسجد؛ اضافة الى كونه قد صار أملس يصعب الامساك به بسهولة .



[نهر الفولقا كما يبدو من مكان عالٍ في مدينة بلغار التاريخية (تصوير المؤلف)]

وفى رأس البرج الذي يبلغ ارتفاعه ٢٥ متراً ألقيت نظرة على المنطقة متمثلا مشاعر الكاتب ابن فضلان عندما رحل الى هذا المكان قبل الف عام، وألقى نظرة عليها هي نظرة فريدة بالنسبة الى نظرائه من الكتاب والمثقفين في مدينة بغداد فى ذلك الوقت نظراً لبعد المسافة، وقلة المعلومات عنها لولا ان الله هدى اهلها البلغار الى الإسلام وارسلوا الى خليفة المسلمين المقتدر بالله يطلبون ارسال وفد يعلمهم أمور دينهم ولولا ذلك لاستمر الجهل بأحوال هذه الأمة المجيدة فى تلك العصور.

ورأيت نهر ايتل (الفولقا) من رأس البرج متسعا جَمّ المياه اوسع فى رأي العين من نهر النيل عند القاهرة.

ويقع على بعد نحو (٢٥٠٠) متر من موقع البرج الذي ذكر

الاقدمون انه كان وسط المدينة القديمة .

كان المنظر مؤثراً وجميلاً اختلط ذلك فى ذهنى بما ذكرته فكان منظراً من المناظر التى لا تكاد تمحى من الذاكرة.

الأثر الثاني:

قلت ان المباني القائمة منذ العهد الإسلامي هي ثلاثة أهمها وأكبرها المسجد الجامع التاريخي وإن كان أكثره متهدماً والثاني هو المبنى الذي ذكرته من قبل وذكرت أنهم كتبوا عليه بالعربية «**الضريح الشمالي**» اما الثالث فإنه هذا الذي نتجه الآن إليه وقد كتبوا على بابه باللغة العربية أيضاً: «**الضريح الشرقي،القرن الرابع عشر**»؛ كما كتبوا العربية تحت الروسية.

وهذا المبنى أشبه ما يكون بالقبة المخروطة الشكل، وجدنا فيها قبوراً خالية من المقبورين، ذكر احد الحاضرين من غير المرافقين أنهم - يريد بذلك السلطات الحاكمة كما فهمنا منه- يكشفون على القبر فان وجدوه قبراً لأحد المسلمين تركوه وارجعوه كما كان وان كان لوثنيين - وهذا تعبير يعبرون به عما كان عليه هؤلاء القوم قبل أن يعتنقوا الإسلام - أبعدوه ،ولا أدري إلى أين يبعدونه ولكنني أظنهم يحفظونه في المتاحف.

ولكنني رأيت ما يناقض ذلك لأن القبور الموجودة داخل هذه المقبرة هي خالية من المقبورين ومتروكة على حالها قبل أن يدخل إليها الميت، وهي مثل القبور عندنا تماما من دون أي اختلاف فهم

يلحدون للميت لحداً ولا يشقون له شقاً في القبر مما يقطع بأن الذين حفروها هم من المسلمين.



[الصلاة على ارض جامع بلغار المهدوم]

ثم ان العبارة المكتوبة على المبنى وانه الضريح الشرقي من القرن الرابع عشر (الميلادي) تدل أيضاً على أنها قبور للمسلمين لأن اهل البلاد قد اسلموا في القرن العاشر الميلادي وهو أول القرن الرابع الهجري، اللهم الا اذا كانت القبور التي رأيناها محفورة خالية قد أعدها حافروها من المسلمين للدفن ولم يدفن فيها أحد فإن هذا محتمل وان كان بعيد الاحتمال.

ولم يكن اللبث في داخل هذا المبنى الذي هو مقبرة أيضا طويلا لأنه لا نوافذ فيه ولا نور وحالته من ناحية العناية غير جيدة.

الأذان لأيتام المسلمين :

عدنا إلى المسجد الجامع فصعدنا مع درج حجري له آخر من جهة الشرق التي هي ايسر القبلة لأن قبلتهم هي جهة الجنوب.

وأذن أحدنا في وسط أشلاء المسجد بأقصى ما يستطيع صوته أن يبلغ ثم أقمنا الصلاة وصلينا الظهر والعصر جمعاً في هذا المسجد القديم، وحتى الذين معنا صاروا معتبرين من المسافرين لبعد مدينة بلغار التاريخية عن بلادهم.

كان يوجد في المنطقة أعداد من السّياح وقفوا يتفرجون برؤيتنا ونحن نؤدي الصلاة، ثم جلسنا قليلاً للراحة على بساط أخضر واعشاب نظيفة ريانة فوق أرض المسجد التي هي مرتفعة على ظهر الأرض التي حولها ولذلك صارت بعيدة عن أي شيء تأتى به الريح، فما شعرنا الا بامرأتين مظهرهما مظهر الاوروبيات ومعهما طائفة من الاطفال من ذكور واناث هم أيضا في مظهر الاوروبيين من حيث اللون واللباس كنا ظننا أول الامر انهما من المدرسات وأن الأطفال الذين معهما هم من طلبة احدى المدارس جاؤا بهم لكي يشاهدوا الآثار، ويتعرفوا عليها كما هي العادة في كثير من أنحاء العالم.

ولكن المرأتين تقدمتا إلينا وقالتا باللغة الروسية: إننا رأيناكم على البعد تصلون فعرفنا أنكم من المسلمين - وكنا نلبس الملابس العالمية المسماة بالملابس الأفرنجية -، وهؤلاء الأطفال هم من أيتام المسلمين أحضرناهم إلى هنا لمشاهدة الآثار والترويح عن انفسهم، ونرجو ان تسمعوهم صوت الأذان، او ان استطاع أحدكم أن يقرأ آيات من

القرآن حتى تتنزل على قلوبهم السكينة والطمأنينة.

فانبرى رفيقنا الأخ (نور الإسلام) يتلو من القرآن الكريم تلاوة شجية بصوته الذي كان جيداً يندى بالخشوع والروحانية، فأصغى الجميع له من أيتام وغيرهم ثم طلبوا الدعاء منا ثم تحدثنا إلى المرأتين عندما عرفنا انهما من المسلمات وأنهما قدمتا مع هؤلاء الأيتام من مدينة في تتارستان اسمها (يارشلي)، كان اسم احد المرأتين (قل جوهر بنت فاتح) واسم الأخرى (بي نصري بنت نجيب) كما انضمت إليهما عجوز مسلمة اسمها (خديجة بنت عبدالرحمن) وسلمنا على الأطفال وصافحناهم كلهم وشجعناهم، وجعلنا مع ذلك شيئاً هو (٣٠٠) دولار أمريكي اعطيناها المرأتين والجميع ينظرون وقلنا لهم اقسموها على هؤلاء الأيتام، فأعظم الجميع ذلك واكبروه، لأنهم لم يكونوا يظنون انهم سيحصلون على شيء ولم يؤملوا فيه وإنما كانوا يقصدون الدعاء وسماع القرآن الكريم؛ ثم التقطنا صوراً تذكارية مع الجميع.

بلدة بلغار الحديثة:

ركبت معنا الدليلة الأخت رويلة بنت رشيد تحدثنا عن البلدة وعن أمور هذه المنطقة التي تعرفها اكثر من غيرها.

لا تبعد البلدة الحديثة التي اسموها مدينة (بلغار) على اسم مدينة بلغار القديمة، الا أن اكثرهم ينعتها بأنها قرية وذلك لقلة عدد سكانها اذ ذكرت الدليلة ان مجموع السكان فيها هو ٩ آلاف نسمة؛ وشي مهم آخر، وهو ان معظم السكان فيها هم من الروس وأن

المسلمين فيها الآن هم اقلية قليلة، وقد زادت الدليلة الأمر تفصيلا بقولها: يقطن في هذه البلدة (٤٠) أسرة من المسلمين الى جانب ١٩٠ اسرة روسية غير مسلمة، وهم هنا في اكثر أحاديثهم واصطلاحاتهم يقولون لغير المسلمين الروس بدون أن ينعتوهم بأنهم مسيحيون او انهم من غير المسلمين، كما يقولون للمسلمين التتار دون ان ينعتوهم بالمسلمين لأن ذلك يعني انهم مسلمون.

وتبعد اطراف هذه البلدة او القرية البلغارية الحديثة عن بلغار التاريخية الفي متر فقط، وقلت في نفسي وانا أدخلها: أبعد ذلك الاسم المجلجل في أسماع التاريخ المجاهد في سبيل الله لمدينة بلغار تلتقط هذه القرية ذلك الاسم؟ وبدون ثمن، ثم تمثلت قول الشاعر العربي:

وما عن رضا كانت سليمى بديلة   لهند، ولكن للضرورات أحكام.

دخلنا قرية بلغار ولن أسميها بعد هذا إلاّ القرية وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والربع، مع شوارع ترابية خاليةمن الزفت او حتى أي شيء أخر من التبليط، مع أن جمهورية (تتارستان) التي تقع فيها هي من الجمهوريات المنتجة للنفط ولكن معظم نفطها يذهب إلى الخزينة في عاصمة الاتحاد الروسي: موسكو.

اهم ما في القرية ان منازلها تقع في صفوف مستقيمة على هيئة دارات (فيلات) بينهما مساحات غير واسعة من الفراغ وفي الطريق الذي دخلنا منه الى داخل القرية حُفر، و(مطبات) وغبار يكاد يجلل السيارة.

وقد غرسوا في جانبي الشارع اشجاراً صارت عالية الآن إلا أنني

لاحظت ان معظم اوراقها قد سقط تحتها مع ان الجو الآن دفئ جدا كأنه جو الربيع في القصيم فليس فيه من البرد شيء فقلت في تعليل ذلك انه إما ان يكون بسبب موجة من البرد سبقت مجيئنا الى هذه البلاد بايام قليلة او بحكم الغريزة وهي الفطرة التي فطر الله الخلق عليها بأنها في مثل هذا الوقت تشعر بأن الخريف قد حان فتبدأ اوراقها بالتساقط، وهذا معروف عن الأشجار في موضوع آخر وهو أن اشجار المناطق الباردة مثل سيبيريا إذا ولى الشتاء عنها ببرده سارعت باخراج الأوراق والاغصان وانتاج الثمار في مدة قصيرة لا تنمو في مثلها الأوراق والأغصان في البلدان المعتدلة شعوراً منها بالغريزة أن ايام الدفء قصيرة وأنها يجب أن تستغلها بأقصى ما تستطيعه من إخراج أوراق الأغصان والثمار ان كانت أشجاراً مثمرة تصبر على العيش في البلدان الباردة أو هذا ما رآه الناس من أمرها وظنوا ما ذكرته.

ولاحظت انه يوجد عند ابواب بعضهم اخشاب من اخشاب الوقود مما يدخرونه للشتاء أيام اشتداد البرد، واخشاب اخرى مكومة في ميدان من الميادين للبناء بها.

جامع قرية بلغار:

من مزايا هذا الدين الإسلامي الحنيف ان الله يبعث له انصاراً في بلدان كثيرة ليس له فيها أنصار فضلاً عن ان يكون له فيها دولة تتفتح بصائرهم وعقولهم لمحبته فتستنير بهديه، وتبذل الغالى والرخيص في سبيل دعمه وتثبيته من دون ان تنتظر أن تلقى جزاء او شكورا من الناس.

وهذا ما سمعناه من الاخوة في الادارة الدينية في جمهورية تتارستان قبل أن نقدم إلى هنا بأن اهالي بلدة بلغار على قلتهم العددية بالنسبة الى سكان قرية بلغار الحديثة قد عزموا على بناء مسجد يكون بمثابة البعث الجديد للمسجد التاريخي القديم وجعلوه في هذه القرية لكون منازلهم فيها فالمسجد التاريخي بعيد عنهم مع عدم تيسر وسائل النقل اليه، ولكونه منطقة اثرية لا تسمح الحكومة باحداث شيء فيها الا بعد دراسة وبعد ان تكون لدى من يتقدم لذلك المبالغ المالية اللازمة لبنائه وهي مبالغ كبيرة.

وعندما وصلت الى قازان سألت أول الأمر عما فعله الإخوة البلغاريون المعاصرون أخلاف البلغاريين الغابرين بمسجدهم فأخبروني بسرور أنهم قد بدأوا البناء بل قطعوا مرحلة جيدة فيه؛ لذلك كان ذهابنا الى المسجد مباشرة بارشاد احد الإخوة الذي صحبنا من قريته والدليلة السياحية المسلمة رويلة رشيد.

لقد كان منظراً لا يمحى من الذاكرة عندما رأيت المسجد شامخ البناء عالي المنارة بهي الطلعة فهو اعلى مبنى في القرية كلها وهو أعلى من الكنيستين الموجودتين فيها أضعافا بل انه ببنائه المميز كأنما قامت على بنائه حكومة من الحكومات او شركة من الشركات الرأسمالية الكبيرة.

فكانت مئذنته منارة حقا مبنية بالآجر الأبيض المزين بفواصل من الآجر الأحمر ورأينا العمال يعملون بجد في المنارة، وهي بجانب المسجد خارجه كتبوا عليها تاريخ ابتداء انشائها وانه في عام ١٩٩١

-١٩٩٢م، وقد كتبوا هذا التاريخ بلبن الآجر الصغير الملون.

منظر مؤثر:

لقد ازددنا تأثراً بالموقف إذ رأينا حينما دخلنا الى داخل المسجد ان رئيس جمعية المسجد ويسمونه هنا (المتولي) وهو الاخ (رشيد ابن صفي الله) يعمل في المسجد ومعه فتاتان تعملان على السلالم المثبتة بالجدران وهما في مكان عالٍ من السلم تضعان (اللياسة) وهي الملاط او الطلاء الاسمنتي فوق اللبن ومع كل واحدة منهما آلة تلييس الاسمنت بيد واليد الاخرى تأخذ الاسمنت المخلوط من الوالد الذي هو كهل في حدود الستين وتعملان بجد. وهما بنتاه.

عندما رأينا هذا المنظر بهرنا فلم نتوقع ان تعمل بنات المسلمين في هذا العمل الشاق في المسجد.

واسم البنت الصغيرة (روشن) وعمرها في حدود الثامنة عشرة او التاسعة عشرة وقد لبست لباساً ساتراً وفوق رأسها منديل وفي الرجلين خفان فلا يرى من جسمها الا الوجه والكفان.

أما البنت الكبيرة فاسمها (منيرة) ويداها مثل يدي اختها ملطخة بهذا الاسمنت الذي هو أجمل منظراً فيهما واطيب رائحة من (المناكير) في أيدي بعض البنات المترفات من بنات المسلمين لانه من بناء المسجد الذي قصرت عن بنائه وبناء أمثاله هممُ صناديد من صناديد الرجال في بلاد الإسلام لا لكونهم يعجزون عن ذلك وانما لكونهم قد غفلوا او تغافلوا عنه فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

واردت ان اتحدث بواسطة المترجم مع البنتين لأعرف مشاعرهما الخاصة فمنعهما الخجل من ذلك فأثنيت عليهما ودعوت لهما

واذا غضضنا الطرف عن عمل هاتين البنتين وابيهما الشيخ في المسجد بأيديهم، فذلك لكوننا سننظر في مساعدة هذا المسجد العظيم الذي يفوق من حيث الحجم والنفقة وجودة المظهر كثيراً من المساجد الجديدة التي بنيت في هذة الظروف العصيبة التي تمر بالإخوة المسلمين في المنطقة.

رأينا المسجد مؤلفا من طابقين احدهما ارضي فيه قاعة واسعة للمناسبات الإسلامية بجانبها عدد من الغرف، وظننت انهم سيجعلونها مدرسة ولكنهم لم يوضحوا لنا ذلك فقد اتينا المسجد على حين غرة فيما يظهر وحتى رئيس جمعية المسجد الاخ رشيد صفي الله لم يبد على استعداد للقاء فملابسه ملابس العمل في بناء المسجد ويداه ملطختان بالاسمنت.

ورأيت على وجهه شيئاً أخر ظننت منه وهو يكلم مرافقينا انه يعتب عليهم او يظهر عدم رضاه لهم لكونهم لم يرسلوا مساعدة للمسجد كما كانوا وعدوا بذلك فيما قال.

وقلت له: ان المفتي الشيخ (عبدالله خليل صفا) قد تقدم إلينا للمساعدة على بناء مسجدكم وقد قدمنا من أجل ان نراكم ونرى المسجد ونقدم بعض المساعدة المالية العاجلة وسوف نفعل ذلك الآن.

وقفنا في داخل المصلى الرئيسي نتحدث معهم في شؤون المسجد فأخبرونا بأنهم حصلوا على الأرض من الحكومة بالمجان،

وأنهم باشروا في جمع التبرعات بعد ذلك فصاروا يحصلون عليها قليلا قليلا، إلى درجة انهم الآن لم يبق عندهم اي رصيد من التبرعات فأعلنت لهم تبرع رابطة العالم الإسلام بأربعة الآف دولار امريكي نقداً دفعناها لهم بعد ان احضروا خازن الجمعية المسمى أمين الصندوق وكاتب الجمعية وعدداً من اعضائها.

وهذا المبلغ رغم قلته في بلادنا فانه كثير في هذه البلاد كما اشرنا الى ذلك فيما سبق وأخبرناهم ان رابطة العالم الإسلامي مستعدة لدفع المزيد من المساعدات لاكمال بناء المسجد، اذا لم يكفهم هذا الذي اعطيناهم مع ما يحصلون عليه من تبرعات أخرى اذا كتبوا ذلك بوساطة الشيخ المفتى الذي ينبغي ان يوضح لنا ما بلغه سير العمل في اكمال المبنى.

لقد أظهروا الامتنان لهذا التبرع الذي ذكرت لهم انه ليس تبرعاً في الحقيقة وإنما هو

[العمل جار في مسجد القرية المدنية للبلغار في تتارستان]

معاونة على قيام هذا البيت من بيوت الله بعد أن لبثت هذه المنطقة التي كانت إسلامية مدة تقرب مما يزيد على خمسمائة سنة من دون مسجد، فهذا المسجد هو اول مسجد يبنى فيها بعد ذلك الليل الطويل الذي ران عليها بعد الإشراق الإسلامي الذي كان موجوداً فيها لعدة قرون.

ثم خرجنا لرؤية مبنى المسجد من الخارج فألفيناه بناء قويا جميلا حتى إن المسجد في نظرنا أجمل مبنى في القرية من دون منازع واظنه كذلك في نظر كل منصف محب للجمال، ووجدناهم قد اعدوا أكواما من الخشب المهذب ليبنوا به المرافق الخاصة بالمسجد وكذلك بعض أسواره.

قالت الدليلة وهي تغالب السعال من غبار الشارع : إن مجيئكم لهذه المنطقة له أثر عظيم في النفوس، إنه بمثابة القنبلة التي تحرك مشاعرهم وسوف يذكرونه لمدة طويلة لانكم انتم مسلمون حقيقيون أما نحن فإننا مسلمون بالاسم.

فشكرتها على حسن ظنها، وقلت: إنكم انتم الذين قاومتم حملات التنصير والالحاد، وحملات الاذابة التي استهدفت وجودكم ووجود ثقافتكم الإسلامية في المنطقة وواجبنا جميعا أن نتعاون على البر والتقوى كما قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾ [**المائدة**: ٢] وكان جمع من المسلمين في القرية يسمعون ذلك.

مغادرة بلغار:

ودعنا الإخوة المسلمين عند مسجد قرية بلغار وسرنا مع شارعها غير المزفت ومع ذلك كانت فيه عدة أبقار ضخمة تتبختر كأنما لم

يكفه ما فيه من التراب والغبار حتى تزيد ذلك ما تلقيه فيه من اوراث وما تثيره حوافرها من غبار.

ويشاركها التبختر في الشارع أسراب من البط الأبيض الكبير تتمايل في سيرها، كأنما تتحدى سرعة الزمن ، وعربة يجرها حصان قد اثقلها حملها، وأهم من ذلك عندي أنني كانت تنتابني مشاعر متناقضة أو لنقل انها متباينة من الفرح والحزن والعجب والإثارة:

أما الفرح فلشفاء النفس من رؤية مدينة بلغار ومشاهدة آثارها، وتطبيق ما عرفته من اخبارها على واقع أرضها.

واما الحزن فإنه للحالة التي كان عليها الوضع الإسلامي ولا يزال المسلمون المقيمون في المنطقة يعايشونه الا ان الإثارة والعجب هي في محاولة نهوضهم واعادة المساجد الى هذه المنطقة التي كانت عامرة بالمساجد في العهد القديم، مع ضعف الوسائل المادية وضيق ذات اليد وضعف الأنصار.

كانت مغادرة قرية بلغار قبيل السادسة، وقد بقيت في النهار بقية، ووقف السائق في محطة لبيع المحروقات في ضاحية من القرية، ولم نصدق أنها محطة لأنها في أرض ترابية وليس عليها سقف او اي ستر يقيها العوارض الجوية كذلك لم ار عندها أية سيارة ولا حتى صاحبها، لذلك انفقوا وقتا ثمينا في انتظاره عندما ذهبوا يبحثون عنه، وكان السائق مضطراً لانتظاره لأنه لا توجد محطات في الطريق كبيرة لبيع وقود السيارات.

وقبيل مفارقة ضاحية المدينة رأيت راكبين على عربة يجرها

حصان محملة بالعلف فالتقطت لها صورةً.

انطلقت السيارة مسرعة عائدة مع الطريق المعهود الى بلدة (بازارني ما ساجي) التي كنا مررنا بها من قبل واخذنا منها الأخ سلطان بن أحمد وذلك لرؤية أرض فيها مخصصة لبناء المسجد ولتناول العشاء في بيت مرافقنا الأخ (سلطان بن احمد)، ولم يكن في الطريق جديد أثناء العودة، وقد غربت الشمس قبيل السابعة، الا أن الجو كان منيراً لأننا في بلاد شمالية لا يغيب فيها الشفق بسرعة وهو النور الذي يبقى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس وقبل استحكام الظلمة، وقد شاهدت الشفق مضيئاً طول الليل في قازان عندما زرتها للمرة الأولى في أواخر شهر يونيو عام ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٤م وذكرت ذلك في كتابي: «**الرحلة الروسية**».

على أرض المسجد:

كانت الشمس قد غربت قبل فترة عندما وصلنا بلدة (بازارني) فقصدنا الأرض التي أعدت لبناء المسجد؛ بل انهم قد شرعوا في بناء المسجد وصبوا أساساته بالخرسانة الاسمنتية القوية على هيئة قطع كبيرة.

لم يكن الجو مظلما رغم غروب الشمس لما سبق مما سمح بالتقاط صورة تذكارية في أرض المسجد مع الأخ سلطان بن احمد في هذا الوقت، ومن الممكن القول بأننا كنا نتحرك على ضوء الشفق بعد أن غربت الشمس.

وهذا المسجد هو أول مسجد يقام في القرية وتبلغ مساحة أرضه (٢٥٠٠) متر مربع منحتها الدولة لهم بالمجان وقد علمنا فيما بعد أن

جميع ما تم من عمل في تأسيس المسجدمع ما صاحب ذلك من نفقات هو من الأخ سلطان بن أحمد وقال لنا أحدهم انه لم يجد من يدفع شيئاً مجزيا من أهل القرية بسبب الفقر وقد اطلعونا في ضوءِ الشفق على مخططات المسجد وعلى الصك الذي صدر بمنح أرض المسجد لهم من الحكومة دون مقابل لكونه لعمل خيري.

وقد قدمنا لهم تبرعاً مجزيا للمسجد وطلبنا أن يحضر المسؤولون في جمعية المسجد لكي نسلم المبلغ لهم بحضورهم من باب المشاركة في الحضور والشعور والا فإن معنا مرافقين من العاملين الرئيسين في ادارة الشؤون الدينية في (تتارستان) وسوف يتابعون العمل في المساجد التي تبرعنا لها ويكتبون لنا تقارير عن ذلك فيما بعد .

مائدة بلغارية:

عدنا الى بيت الأخ الكريم سلطان بن احمد وفي هذه المرة دخلنا الى قلب المنزل بل الى اقصى منزل فيه فهكذا وضعوا قاعة الجلوس التماساً للدفء في الشتاء وهربا من الجو الثالج والبيت دافئٌ بالفعل فهو من الخشب يتجاوز الداخل منه الى غرفة الجلوس مدخلا بعد مدخل، وكانت الساعة عندما دخلنا البيت تشارف الثامنة.

وجدنا على المائدة مقدمات الطعام من التفاح الطري الطازج الذي قطفوه من الأشجار الموجودة في البيت وبجانبه كعك لين (كيك)، وسلطة من الطماطم اللذيذة، وذلك لأنهم يستعملون لتسميد الأرض التي يزرعون فيها الخضروات الأسمدة الطبيعية.

ثم جاؤا بعد ذلك بالحساء (الشوربة) التي أسميتها الحساء التركستاني لأنه لابد منها في موائد التركستانيين وغيرهم من اهل البلاد الشمالية الباردة فكان وقعها في اعيننا واذواقنا جميلاً للحاجة اليها بعد التعب وهي دسمة حارة فيها قطع من البطاطس المسلوقة وبعض الشعيرية، ثم جاؤا بالطعام الرئيسي من الخبز الغليظ ومرق جيد ولحم بط جميل المنظر شهي الطعم، وقد عرفت سبب حرصهم على تربيتهم البط عندهم لكونهم ينتفعون من بيضه وتزايده عن طريق التفريخ ويذبحون منه ما يذبحون بدلاً من اللحم الذي لا توجد له مجازر واسعة كالتي تكون في المدن.

ومما ينبغي تذكره ان سكان القرية يبلغون خمسة آلاف نسمة فيهم ثلاثة الاف مسلم والفان من غير المسلمين من الروس وأمثالهم كما سبق؛ كما ان القرية مضاءة بالكهرباء بشكل قوي، وقد جاء بعد الطعام بالشاي ومعه مربى الفراولة الذي يضعون منه مقادير على الشاى تحلية له ، وتحسينا لمذاقه.

وكنت أتامل هذه الغرفة التي اسميتها غرفة الجلوس فأجد فيها مقاعد كبيرة (كنب) وجهازاً للتلفزة وسرير نوم وفي سقفها ثريا كهربائية معلقة، الا أنها رثة روسية الصنع ومسجلا والأهم من ذلك ان في حائطها صورة كبيرة معلقة للكعبة المشرفة قبل التوسعة الحديثة للحرم المكي الشريف، لذلك يبدو فيها الحرم على ما كان عليه قبل اربعين سنة، وذلك لكونهم قد انقطعوا عن الحج منذ ان سيطر الشيوعيون على مقاليد البلاد قبل اكثر من سبعين سنة بقليل الى جانب سجادة معلقة خفيفة للصلاة.

هذا وكـان الجلوس في بيت الأخ الكريم سلطان بن احـمـد بن غريب الله ممتعا من وجوه كثيرة أحدها أننا تناولنا فيه عشاء دسما نحن في أشد الحاجة إليه وثانيها اننا استرحنا فيه بعد السير المتواصل الذي لم نثن خلاله أرجلنا إلاّ أثناء الصلاة في بقايا مسجد بلغار التاريخي، وثالثها: أننا حصلنا على معلومات مسموعة ومرئية عن أحوال هؤلاء الإخوة المسلمين الأعزاء.

يبلغ عمر الأخ سلطان بن احمد السادسة والستين وسألوني وقد تحدثوا عن اعمار الحاضرين عن عمري فأخبرتهم أنه فوق الستين فتعجبوا من ذلك وقالو: إنهم لا يصدقون انني بلغت الستين لأنني فيما رأوه أقل من ذلك، ولو قلت لهم الحقيقة وانني في التاسعة والستين من العمر لكان عجبهم اكثر وربما لم يصدقوه.

لم يستغرق تناول العشاء وقتا طويلا لأننا وجدناه جاهزا وكانت زوجته المسنة تخدمنا الى جانب رجل او رجلين من أهل القرية جزاهم الله خيراً.

وقد أوصيتهم أثناء الحديث بما أوصى به رسول الله ﷺ وهو تقوى الله تعالى ومراقبته في السر والعلن والعناية بأطفال المسلمين وناشئتهم وتنشئتهم على معرفة الدين الإسلامي وتعليمهم ما يلزم لأمور دينهم، وقلت لهم بانهم أمانة في أعناقكم ستسئلون عنهم يوم القيامة، كما انهم اذا كبروا سيؤاخذون المقصر في حقهم فيرمونه بالأهمال.

وقد شكوا من عجز اهل القرية عن بناء المسجد فقلت لهم إن

بإمكانهم ان يتقدموا بطلب التبرع الى المؤسسات الإسلامية المعروفة بمنحها للتبرعات للمشروعات الإسلامية وإنه يمكنهم ان يستشهدوا بنا واننا رأينا المسجد بأنفسنا وشاهدنا اجتهادهم في بنائه كما أننا على استعداد لأن نرسل لهم المزيد من المساعدة من رابطة العالم الإسلامي اذا كتب لنا بذلك المفتى رئيس الادارة الدينية في تتارستان .

مغادرة منطقة البلغار:

غادرنا منطقة البلغار قبيل التاسعة ليلاً وذلك حينما غادرنا قرية (بازارني ما ساجي) وليس المراد بذلك مدينة بلغار التي غادرناها قبيل السادسة عصراً وتبعد نحو ٩٠ كيلو متر عن هذه القرية، وكان الظلام قد استحكم وان كان القمر مشرقاً مضيئاً مما جعلني أقول لرفقائنا –وقد اعجبني صفاؤه وعظيم إشراقه ممازحاً لهم – إن قمركم اكثر نوراً من قمرنا .

وقد فهموا ذلك على سبيل الممازحة والمطايبة فقلت لهم: ان القمر هو هو ولكن الشيء الذي اقوله جاداً غير مازح: إن نجومكم هي غير نجومنا، والمقصود بذلك من النجوم النجوم الجنوبية والشمالية فالنجوم الجنوبية وفي مقدمتها (سهيل) لا يمكن ان ترى في هذه البلاد الشمالية وقد فطن أسلافنا العرب لذلك فنوهوا بأن (سهيلا) لا يرى في أرمينية ومرادهم بذلك بلاد الأرمن التي تقع الآن في الشمال من العراق، وهو جمهورية ارمينيا التي كانت سوفيتية واستقلت مع ما استقل من جمهوريات كانت تابعة للاتحاد السوفيتي، مع أن بعد أرمينيا عن جزيرة العرب – حيث تقع ارمينيا في جنوب جبال قبق

التي تسمى الآن في كتبنا العربية بجبال القوقاز- لا يقارن ببعد هذه البلاد البلغارية الذاهبة شمالاً كما ان (بنات نعش) لا ترى في النصف الجنوبي من الارض، وعلى هذا فإن البحث عن مواقع النجوم في هذا الجزء الشمالي من الأرض بحث ممتع لمن يكون ذا عناية سابقة وإلمام كاف مسبق بذلك.

عبّارة الليل.

لم تكن هناك مناظر يناسب التعليق عليها في الطريق إذ كل شيء كان هادئا مظلما بحيث لا توجد على الطريق أماكن للراحة وتناول المشروبات كالمقاهي والمقاصف ولذلك ساد السكون حتى وصلنا الشاطيء الجنوبي لنهر قاما وهو الذي قطعناه في هذا الضحى من شماله لجنوبه.

لم نجد العبارة في المرسى فانتظرناها مع عدد من السيارات كانت قد وصلت قبلنا واخبرونا ان العبارة قادمة وبعد انتظار ممل بانت أنوارها ففرح الجميع ، الا أنها خيبت ظنهم عندما وصلت وقال الموظفون فيها إنها لن تحملهم لأن نوبتها في العمل قد انتهت وسوف تأتي عبارة اخرى بعد قليل ثم اطفأت انوارها ونزل منها موظفوها.

وران سكون عجيب حتى جاءت العبارة الأخرى ولم تتحرك الا بعد ان كانت قد مضت لوقوفنا على شاطى النهر ٥٥ دقيقة.

والعجيب أنني لم أسمع احداً يشكو من الركاب، ولا من المرافقين مثلما كانت عليه الحال في أمور أخرى من أمور الاتحاد السوفيتي السابق، وربما كان ذلك راجعاً الى العزلة التي فرضها

الشيوعيون على الشعب حتى صار الناس لا يعرفون ان في الإمكان احسن مما كان ولذلك لا يتأففون فضلاً عن أن يشكوا مما يشكو منه غيرهم.

سارت العبارة على صفحة النهر في منظر جميل بل جليل، فقد كانت السماء صافية صفاء عجيبا، وكان القمر منيرا، وكان الهواء يهب نسيما عليلا حانياً فكان يداعب صفحة البحيرة برفق فتهتز برفق كأنما تفعل ذلك طربا لمداعبته فينعكس عليها ضوءُ القمر متماوجاً كأنه ذوب النور الذي يتدفق بحنان.

ولم نستطع ان نفارق هذا المنظر بأن ندخل في السيارة او داخل العبارة فقضينا المدة التي قطعت العبارة النهر فيها وهي ٣٥ دقيقة، في هذه المرة ونحن واقفون على حائط العبارة نتأمل ذلك، وقال الأخ مارس بن جلال الدين: ان هذا المنظر جميل كما ترون، ولكن المنظر في الشتاء جميل أيضا فنحن نقطع النهر بالسيارة بسرعة من دون ان نحتاج الى عبارة لأنه يكون متجمداً صلب الصفحة فلا ننتظر عند ضفافه، ولا ندفع رسما اجباريا للعبارة، وعلى ذكر هذا الرسم أقول: ان المرافقين دفعوا (٨٠٠٠) روبل رسما على نقل السيارة ويساوي ذلك ثلاثة دولارات أمريكية ونصفا او ١٣ ريال سعودياً مع دفع رسم على كل راكب من ركاب السيارة ولكنه قليل هو (٢٠٠) روبل اى نحو ٨ سنتيمات او نحو ثلث ريال سعودي.

وقد علل الأخ مارس تردده هنا بكون زوجته من هذه المنطقة الواقعة خلف نهر (قاما) وذكر ان كل شيء في الشتاء يكون أبيض ناصع البياض تستوي في ذلك الاماكن المرتفعة والأماكن غير المرتفعة إذ الثلج يجلل الجميع.



رسالة ابن فضلان

رسالة ابن فضلان الى بلاد البلغار:

قبل انقطاع الحديث عن بلاد البلغار رأيت أنه ينبغي ان أنقل هنا بعض ما جاء في رسالة الكاتب ابن فضلان الى هذه البلاد التي هي أول كتابة علمية مدونة واسعة، بل انها أول كتابة علمية بالعربية عن منطقة (ايتل) الفولقا وعن حالة الروس الذين كانوا يردون اليها للتجارة وكانوا في ذلك الوقت كلهم وثنيين لأنهم لم يدخلوا في النصرانية بعد.

وقد سبقت الاشارة عدة مرات الى الكاتب ابن فضلان وما ذكره عن هذه البلاد كما جاء في كلام الشيخ محمود الرمزي الذي حرص على الإطلاع على رحلة ابن فضلان مدفوعاً بالشوق إليها بماكان قد قرأه مثلي فيما سجله ياقوت الرومي - رحمه الله وجزاه عن العلم والعلماء خيرا - فقد ذكر أشياء عجيبة نقلاً عن ابن فضلان في رحلته تلك ولكنه لم يتوسع لأن كتابه لا يحتمل نقل تلك الرسالة كلها، ولكن الشيخ محمود الرمزي قد ذكر في كتابه ان رسالة ابن فضلان مفقودة وأنه لم يسمع لها بذكر في المكتبات التي اطلع عليها، ولا سمع بخبرها لدى العلماء المهتمين بأمرها، حتى جزم بأنها مفقودة، الا ان المجمع العلمي العربي في دمشق قد طبع جزءاً صالحا من الرسالة بتحقيق الدكتور سامي الدهان الذي لم يقصر في تحقيق الرسالة والتعليق عليها بما استطاع الوصول اليه من معلومات في المراجع الأخرى.

غير أن النسخة التي طبع عنها الرسالة ناقصة من آخرها نقصا

واضحا لأن الكلام انقطع عند آخر صفحة بما لا يجوز الوقوف عنده، لكنه أضاف بتحقيق هذه الرسالة الفريدة يداً عظيمةً لقراء العربية الكرام ، بل حتى لغيرهم من محبي المعرفة، فقد اخبرني أحد الموظفين من الروس – وهو يتكلم العربية بطلاقة – أن دراسة رسالة ابن فضلان على طلاب اللغة العربية في الجامعة هي أمر مقرر ملزم وذلك لما تتضمنه من معلومات مهمة لا يمكن نقلها نقلا سليماً بالترجمة وحتى يتعلموا لغة تلك الرسالة.

ثم بلغنا في المدة الأخيرة ان احد علماء النرويج عثر على جزء من القطعة المفقودة من رسالة ابن فضلان وحقق منه ما يتعلق بكلام ابن فضلان على الأقوام الشماليين الذين يسكنون في اسكندنافيا في وقته وهم المعرفون بالفايكنج وقد اشتهروا بالفروسية ثم بالتجارة وكانت لهم معاملات ومداولات مع أطراف البلدان الإسلامية حتى إنهم وصلوا إلى الأندلس.

وقد ترجم العالم المذكور ذلك الجزء الى اللغة النرويجية وعلق عليه ونشره ثم ترجمه عالم آخر الى الانكليزية؛ كما ترجم الاستاذ احمد عبدالسلام البقالي من المغرب ذلك الجزء من الانكليزية الى العربية وهو اكبر حجما مما نشره الدكتور الدهان غير انه لم يكن بالعربية فقد ذكر الاستاذ البقالي أنه لم يستطع الحصول على النص العربي الذي ترجم عنه العالم النرويجي لذلك لم يكن الأسلوب أسلوب احمد بن فضلان في رسالته التي اطلعنا على الجزء المتعلق منها بالسفر من بغداد الى بلاد البلغار ومقابلة ملكها وهو النص الذي

نقل اكثره ياقوت في معجم البلدان نقلا من رسالة ابن فضلان وهو اسلوب مميز، أما روح ابن فضلان فانها موجودة في النص المترجم وان كانت تظهر فيه عناية ابن فضلان بالتفصيلات فان المرء مثلنا لا يطمئن اليه الا اذا اطلع على أصله بالعربية او على صفحات منه مصورة وهذا لم يحصل بالنسبة الى هذا الجزء الذي ترجمه الاستاذ البقالي من الرسالة، كما ان المترجم الى العربية وربما كان ينقل ذلك عن الترجمة بالانكليزية قد ذكر ان أهل الشمال - الذين يريد بهم الاسكندنافيين- قد أسروا ابن فضلان قبل أن يصل الى ملك البلغار وتسليمه كتاب الخليفة وما معه من الهدايا.

وهذا ينافي حقائق واضحة منها ما ذكره ابن فضلان نفسه من القطعة من الرحلة التي نشرها المجمع العلمي العربي بتحقيق الدكتور هناك، وما كان نقله ياقوت عن الرحلة منذ اكثر من ستمائة سنة من ان ابن فضلان قابل الملك وذكر من التفصيلات والأمور المتعلقة بتلك المقابلة من وصف لها ووصف لمجلس الملك وما ئدته ونظام الجلوس في محله فذلك كله يقطع بانه التقى بملك البلغار وسلمه ما معه من الرسائل وغيرها.

أما كونه أسر من جهة الاسكندنافيين فلا شك أنه جرى بعد ذلك، اذ ذكر أنه بعد مقابلته للملك سافر خارج عاصمة الملك لأنه طلَعة محب لمعرفة كل شيء عن هذه البلاد الشمالية المجهولة فأسره الشماليون (الاسكندنافيون) واخذوه معهم وهم يسافرون في نهر أيتل (الفولقا) حيث أحداث ذلك الجزء من الرحلة والله اعلم.

وجاء في رسالة ابن فضلان أن السفر من بغداد الى مدينة (بلغار) قد استغرق احد عشر شهراً على وجه التقريب مع ذكر مصاعب ومتاعب جمة صادفت البعثة التي فيها ابن فضلان، ولو لم يكن في رسالته إلاّ أنه أوضح ما تحمله أسلافنا الكرام العظام في الوصول الى هذه البلاد المسلمة في تلك العصور القديمة من أجل هدف إسلامي نبيل الا وهو الاستجابة لرغبة ملك (البلغار) المسلم في أن يجد من علماء المسلمين من يفقهونه وقومه في الدين ويطلعونهم على بعض الفنون الحضارية .

وكنت أردت أن أنقل مما يتعلق ببدء الرحلة والوصول الى بلاد البلغار من النسخة التي طبعها الاستاذ البقالي وذكر في اولها ما طبعه الدكتور الدهان على أن احذف التعليقات ، واختصر ذلك كله لأن من يريد الإطلاع على الرسالة كاملة يستطيع ان يرجع اليها بسهولة بخلاف كتاب (تلفيق الأخبار) الذي يصعب الإطلاع على نسخة منه ولأن مقصودي -كما قدمت - هو بيان الوقت الذي استغرقه سفر الوفد الذي فيه ابن فضلان وما قابله من متاعب، غير أنني رأيت أخيراً حذف ذلك من الكتاب اعتماداً على أن من يريد الاطلاع على رسالة ابن فضلان يستطيع ذلك إما من حوانيت الورّاقين أو من خزائن المكتبات العامة.

ومن محاسن الصدف أنني بينما كنت أبيض هذا الكتاب وافكر فيما ذكره الدكتور سامي الدهان من أنه لم يقع على ترجمة ابن فضلان في كتب الجغرافية والتاريخ والأخبار ولم ير سطراً واحداً يشير

اليه رأيت مصادفة اسمه مضبوطا مصححاً وقد قال الدكتور الدهان: نحن نجهل كل الجهل ما كان من اسمه فهو عند يأقوت أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد مولى محمد بن سليمان وهذا يخالف ما جاء في الرسالة من ان اسمه محمد يريد ما جاء في صلب الرسالة في حكاية ان اسمه محمد ثم غلط الدكتور الدهان في اسم مولاه وهو الذي اعتقه او اعتق اباه وهو محمد بن سليمان فذكر انه محمد بن سليمان بن المنفق ابو على الكاتب كما جاء في تجارب الأمم ٥ / ٥٠ أنه فتح مصر وشتت آل طولون، والصحيح ما ياتي مما ذكره ابن فضلان نفسه او من روى عنه رسالة المناظرة من أن مولاه هو محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب.

وقد وصلتني من الأخ الاستاذ علي بن عبدالعزيز الشبل رسالة حققها وطبعها وذكر أنها تنشر لأول مرة وعنوانها: (**مناظرة للامام الحجة جعفر بن محمد الصادق**) وهذا هو العنوان الخارجي اما العنوان الداخلي فقد اضيفت إليه جملة (مع الرافضي في التفضيل بين ابي بكر وعلي رضي الله عنهما)؛ وقد طبعها في الرياض عام ١٤١٧هـ.

فوجدت فيها عرضاً اسم ابن فضلان مذكوراً في سلسلة الرواة الذين رووا هذه المناظرة؛ وابتدؤا بالحافظ الحجة المحدث ضياء الدين المقدسي صاحب التصانيف في الحديث منها (الأحاديث المختارة) وقد توفي الحافظ في عام ٦٤٣هـ وجاء في سلسة رواة هذه المناظرة الى الامام جعفر الصادق اسم (ابن فضلان) كاملا واسم مولاه وهو

الذي اعتقه كاملاً، بل وردت فيها كنيته وأنها (أبو بكر) وهي كنية لم ترد في الكتب المعروفة، ولم أطلع عليها قبل ذلك ونص ذلك:

(حدثنا أبو بكر أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب إملاءً، قال : حدثنا احمد بن عبدالعزيز الجوهري بالبصرة الخ(ص٧٠).

ويلاحظ أن جده ذكر هنا أنه (راشد بن حماد) وفي الرسالة الرشيد وما هنا أصح لأنه مقرؤ مقر من حفاظ للحديث ثقاة من الذين يدققون في مثل هذه الأسماء.

ابن بطوطة في بلاد البلغار:

ابن بطوطة ذلك الرحالة الطنجي المغربي هو اصدق الرحالة العرب وصفا وهو اكثرهم عناية بالتفصيلات في رحلته وهو الطفهم حساً في ميدان كتابة الرحلات وقد ذكر (بلاد البلغار) في رحلته ولكنه لم يتوسع في كلامه عليها كما انه ذكر شيئاً لا يمكن أن يكون صحيحا الا إذا أخذنا لفظه على غير ظاهره و بحثنا له عن تخريج وسوف ياتي ذلك في تعليقنا على كلامه .

قال ابن بطوطة – رحمه الله – :

« كنت قد سمعت بمدينة بلغار، فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل، وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر، فطلبت منه من يوصلني إليها، فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه؛ ووصلتها في رمضان، فلما صلينا المغرب افطرنا، وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها، وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر اثر ذلك، وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً، وأقمت بها ثلاثا، وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، والدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يوما، ثم أضربت عن ذلك، لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى، والسفر إليها لا يكون إلاّ في عجلات صغار تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابه فيها، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد، ولا يدخلها إلاّ الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو

نحوها، موفرة بطعامه وشرابه وحطبه، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر، والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت، وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم وإلاّ غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف.

فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد، فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه، وان لم يرضه تركه، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم، أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم، ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم، أمن الجن هو أم الإنس، ولا يرون أحدا.

والقاقم هو أحسن أنواع الفراء، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون، وهي شديدة البياض، من جلد حيوان صغير على طول الشبر، وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله، والسمور دون ذلك، تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها، ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل، وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق، وكذلك تجار فارس والعراقين.

وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان صحبتي، فوجدت السلطان محله على الموضع المعروف ببش دغ، وذلك في الثامن والعشرين من رمضان، وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد الجمعة. اهـ كلامه

وأولى الملاحظات على كلام ابن بطوطة رحمه الله قوله: فلما صلينا المغرب افطرنا واذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر، وطلع الفجر اثرذلك.

فهذا غير صحيح إذ لايزيد قصر الليل في الصيف على خمس ساعات او نحوها فلا يصل قصره الى ماذكره ابن بطوطة الا اذا كان ابن بطوطة يريد بطلوع الفجر طلوع النور من قبل الشرق فهذا صحيح ولكن يظل منيراً لمدة طويلة وليس كما يكون الحال عندنا بان يكون. بين طلوعه و طلوع الشمس نحو ساعة ونصف او أقل قليلا من ذلك؛ بل ان الذي شاهدته ان الشفق وهو النور المتبقي بعد غروب الشمس لا يذهب في تلك البلاد في الصيف حتي يطلع النور في المشرق فإذا كان هذا هو الذي ذكره ابن بطوطة فكلامه صحيح.

والثانية قوله: إنه أراد الدخول الى ارض الظلمة فهو يعني منطقة القطب الشمالي وهذا وصف لها بالظلمة في الشتاء اما في الصيف وهو الفصل الذي ذكر انه زار فيه مدينة بلغار فان النهار والضوءَ فيها هو اطول واوضح مما في مدينة بلغار، وقد رايت ذلك بنفسي عندما سافرت في عام ١٤١٠هـ الموافق ١٩٩٠م الى مدينة (مورمانسك) في اقصى شمال روسيا فهي واقعة على خليج من

المحيط المتجمد الشمالي، وكانت الشمس فيها لاتغيب ابداً عندما كنت هناك في الثلث الاخير من شهر يونيو وهذا أمر معروف وقد ذكرت تلك الزيارة لها في كتابي (**الرحلة الروسية**) وهو كتاب مطبوع.

الملاحظة الثالثة مما ذكره عما سمعه عن السفر في بلاد الظلمة التي هي منطقة القطب الشمالي وما ولاها من جهة الجنوب فإنه صحيح معروف الآن.

العودة الى قازان

وبعد العبَّارة ايضاً لم يكن ما يستدعي الحديث عن المناظر فنعس من نعس من القوم وهدأ منهم من هدأ بعد حركة حتى وصلنا ضواحي قازان في الثانية عشرة والنصف فصارت السيارة تمر ببعض المرافقين الذين بيوتهم في الطريق الى قلب العاصمة، ولم ندخل فندقنا (فندق تتارستان) الاّ في حدود الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

يوم الجمعة : ١٨ / ٤ / ١٤١٥هـ ٢٣ / ٩ / ١٩٩٤م.

الى قلب قازان الفاخر:

وهو قسم منها قديم، ولكن كان اهم جزء منها لأنه كان فيه ولايزال قصرالحكومة وعدة مبان اثرية وموقعه مرتفع يرى المرء من شرفته نهرى قازان وايتل (الفولقا) وهما يتعانقان ثم يمتزجان امتزاج روحي المحبين وهو واقع على ضفة هذا الخضم الضخم من مياههما المتمازجة.

وكنت قد زرته في المرة الماضية ولكننا سنذهب هذه المرة اليه لان فقرتين من برنامج زيارتنا هذا العام ستكونان فيه وهما حديث للتلفاز الرسمي ارادوا ان يكون هناك حتى يظهر هذا المنظر الجيد منه، ومقابلة مستشار رئيس الجمهورية في القصر الجمهوري الذي يقع فيه ايضا.

حديث التلفزة :

اجرى حديث التلفزة معنا أحد العاملين في التلفاز الحكومي واسمه (مُقَدَّس أحمد) ولما سألت المفتي الذي كان يرافقنا ومن معنا

من المشايخ أيضا عن معنى اسم (مقدس) أجابوا بأنه المقدس العربي -يريدون اللفظ - من التقديس .

ولاشك ان الذين تسموا من قبله بهذا الاسم كانوا على جانب كبير من التدين و جانب غير كبير من معرفة اللغة العربية وإلا لما اسموه بهذا الاسم الذي لايجوز ان يطلق على شخص من سائر الناس لاسيما إذا لم يكن معروفاً بطاعة الله تعالى باتباع اوامره واجتناب نواهية ثم صار الناس يسمون هذا الاسم تقليداً لمن سبقوهم ممن سموا به وليس لمعرفتهم معناه .

بدأ الأخ (مقدس) الحديث بأن عرفنا للمشاهدين، ثم طلب مني أن اتحدث للمشاهدين عن الغرض من زيارتنا لتتارستان وعن ملاحظاتنا في هذه البلاد، فقلت إنني من رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية كنا في زيارة لجمهورية روسيا الاتحادية فانتهزنا الفرصة لزيارة هذه الجمهورية التي تجمعنا بطائفة كبيرة من سكانها جامعة ثقافية تاريخية مهمة هي الثقافة الإسلامية، وقد اطلعنا على بعض المساجد الجديدة وعرفنا الحرية الدينية التي يتمتع بها المواطنون في الوقت الحاضر وإننا نرجو ان تزيد العلاقات مابين بلادنا السعودية وجمهورية تتارستان في جميع المجالات، كما نرجو ان تقوى العلاقات الثقافية الإسلامية مابين رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وبين الادارة الدينية لمسلمي جمهورية تتارستان، وسوف نعمل مع صديقنا فضيلة المفتى الشيخ عبدالله خليل صفا لتحقيق ذلك - إن شاء الله - .

مقابلة مستشار رئيس الجمهورية:

وسمعت بعضهم يسميه (نائب رئيس الجمهورية) وهو من المقربين إلى الرئيس وذوي النفوذ في الحكومة واسمه (تيمور بوروفيتش اكولوفن).

كان اللقاء في مكتبه في القصر الجمهوري الواقع في هذا القسم المرتفع الممتاز من مدينة قازان، وذلك في الساعة التاسعة والنصف.

دخلنا سيراً على الأقدام إلى القصر الجمهوري المجاور للمكان الذي اجرينا فيه المقابلة التلفازية، وجدنا القصر واسع المدخل والفناء الداخلي تنتشر فيه الأشجارالضخمة، إلا انه ليس منسقا تنسيقا جيداً من حيث التزهير أو التزيين بالخضرة وصعدنا إلى الطابق الثاني مع درج واسع مفروش بالسجاد فوجدنا الأخ تيمور في مكتبه غير البعيد من مكتب رئيس الجمهورية في القصر نفسه.

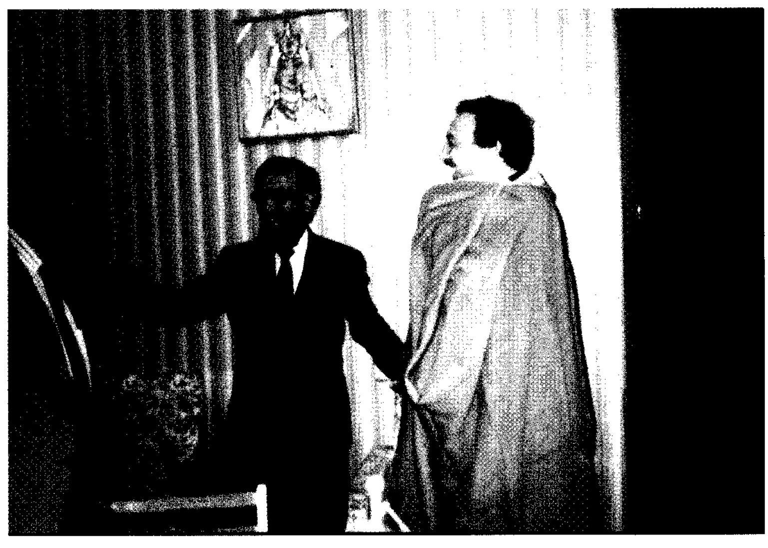
استقبلنا الأخ تيمور بورو فيتش (اكولوفن)هاشا باشا مرحبا بالعربية التي يتكلم بها كما يتكلم بها ابناؤها وذكر لنا فيما بعد انه تعلمها في كلية اللغات في موسكو ثم عمل في عدد من الأقطار العربية فتمرن على التكلم بها.

بدأ الكلام الجاد على مائدة مستطيلة، اتخذت شكل موائد المحادثات الرسمية حيث جلس مستشار رئيس الجمهورية بجانبه بعض الاخوة من اهل تتارستان فيهم بعض مرافقينا ومنهم الشيخ عبدالله خليل صفا وجلست مقابلاً له مع الاخوين حسن ازميرلي ورحمةالله ابن عنايةالله عضوي وفد الرابطة .

فكان ان تكلم باللغة التتارية التى هي كما كررت القول متفرعة من اللغة التركية القديمة وترجم الكلام الى العربية أحد الاخوة الحاضرين ليسمعه من لايفهم منهم محافظة على الطابع الرسمي لمنصب الرجل، ومع ذلك بدأ كلامه بشكر رابطة العالم الإسلامي على ما لاقاه من تكريم في الحج الماضي من قبل الرابطة مع بعض كبار المسؤولين في تتارستان وقال: ان دعوة الرابطة له أفادته من جوانب عديدة فقد راى بعينه التقدم الذي احرزته المملكة العربية السعودية في مجال العمارة والمجال الاجتماعي، ثم عبر عن سروره باستقبال وفد الرابطة وبإتاحة الفرصة له لاستقبالنا، وأشار الى التغيرات التى شهدتها تتارستان ولاتزال تشهدها في ميدان حرية العبادة وبناء المساجد حتى ارتفع عدد المساجد الجديدة التى بنيت في المدة الأخيرة الى اكثر من ثلثمائة مسجد، وذكر ان تتارستان رغم ما تعانيه بسبب طبيعة الارتباط مع روسيا التى ورثها العهدالحاضر عن العهد الماضي فانها تناضل من اجل الاستقلال الاقتصادى والثقافى، ولم يقل شيئاً عن الاستقلال السياسي لحساسية هذا الموضوع وعدم التفكير فيه في الوقت الحاضر.

وقال إننا نتمنى ان يتم اجراء اتصالات مكثفة ومتواصلة بين رجال المال والاقتصاد في المملكة العربية السعودية وبين جمهورية تتارستان بغية تعزيز الروابط الاقتصادية بما يعود على الشعبين التتاري والسعودي بالفائدة، وقال: إن التجربة التى مررتم بها في بلادكم التى شهدناها حين زيارتنا لها جديرة بأن يستفيد منها المسؤولون عن الاقتصاد في بلادنا.

وقد شكرته على ترحيبه بوفدنا ومشاعره الطيبة تجاه المملكة العربية السعودية وقيادتها وشعبها وقلت له اننا كما تعلمون من رابطة العالم الإسلامي التى هي منظمة شعبية عالمية ولذلك كان عملنا منصبّاً على تقوية العلاقات الثقافية الإسلامية في هذه البلاد وقد بحثنا مع صديقنا المفتي الشيخ عبدالله صفا واخوانه العاملين في الادارة الدينية في تتارستان كيفية تقوية العلاقات الثقافية فيما بيننا، ومن حسن حظنا ان أتيحت لنا فرصة الإطلاع على النشاط المثمر الذي يجرى الآن في البلاد متمثلا في بناء المساجد الحديثة التي رأينا فيها كلها غرفاً مخصصة للمدارس القرآنية وتعليم اطفال المسلمين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف .



[في مكتب الاستاذ تيمور بوروفيتش اكولوفن مستشار رئيس جمهورية تتارستان قازان]

إن المسجد-ياصاحب المعالي- كان في صدر الإسلام مكان

العبادة، وموضع الإلتقاء والتعارف بين المسلمين وهو الى ذلك كان المدرسة الإسلامية النافعة، اذ كانت تدرس فيه العلوم الإسلامية وكانت تلقى فيه المواعظ والتوجيهات بل كانت المساجد دور تربية وتنمية للاخلاق واننا نرجو ان تعود للمسجد مكانته في هذه البلاد التتارية الشقيقة التي كانت إبان تمسكها بالإسلام بلاداً مزدهرة عامرة بل كانت أرقى بلاد في المنطقة في تلك العصور.

ولو قارنا ما كانت عليه آنذاك وما هي عليه الآن من حيث الثقافة الإسلامية التي هي سبب عزها ومجدها وهي التي كونت شخصيتها القوية المميزة لوجدنا البون شاسعا بل لوجدنا الفرق محزنا نحن المحبين لهذه البلاد الاشقاء لشعبها المجيد.

ايها الاخ العزيز: ان رابطة العالم الإسلامي ليس من عادتها ولا من رغبتها أن تتدخل في الشؤون الداخلية للإخوة المسلمين ونحن نؤكد ذلك حتى في العمل الإسلامي والثقافي فنحن لن نعمل الا بالاتفاق مع الجهات العاملة في الحقل نفسه في هذه البلاد، وطبقاً لما تقتضيه المصلحة الإسلامية العامة.

ومن حسن الحظ ان العلاقات الخاصة التجارية بين بلادنا وبين جمهورية روسيا الاتحادية التي تؤلف بلادكم جزءاً منها هي علاقات جيدة تسمح بتنمية العلاقات الثقافية ما بين رابطة العالم الإسلامي وبين المسلمين في روسيا الاتحادية.

ثم قلت : ولعل معاليكم تعرفون ان الدين الإسلامي الحنيف بالنسبة الينا ليس هو مجرد عبادات ومراسم دينية فهذه على اهميتها

وتاثيرها إنما هي تمثل الركن الأعظم من الموضوع لأن الإسلام لنا نحن المسلمين هو ديننا وثقافتنا وتاريخنا المجيد الذي نعتز به ولذلك يكون السعي في تعزيزه من كل مسلم انما هو تعزيز لكل هذه الأشياء التى سوف تعيد للمسلمين مجدهم ومكانتهم التى فقدوها عندما فرطوا في أمور دينهم.

التتار ينقصون؟

استمر الحديث بعد ذلك معنا باللغة العربية التي لايفهمها من الحاضرين الا القليل فسألته عن نسبة المسلمين في هذه الجمهورية فذكر انها النصف وان نصف السكان من غير المسلمين .

فقلت له: إن معنى هذا ان عدد التتار المسلمين في بلادهم هذه لا يصل الى المليونين مع أنهم موجودون منذ قديم الزمان في هذا الوطن وان عادة المسلمين انه يزداد عددهم بنسبة اكبر من نسبة غيرهم من ارباب الديانات الاخرى.

فقال: لاشك أن نسبة المسلمين الآن هي انقص مما كانت عليه في الماضي وذلك بسبب زيادة السكان من غير المسلمين.

فقلت له: الاتوجد لديكم خطط لتعديل هذه النسبة حتى تصبح للمسلمين زيادة راجحة؟؛ لانه اذا اجريت انتخابات في البلاد وانتم على ما انتم عليه من هذا العدد القليل نسبياً لم تستطيعوا ان تنجزوا القوانين المتعلقة بثقافة البلاد الأصلية وهي الثقافة الإسلامية، حيث ان أرباب الديانة الأخرى سيطالبونكم بمثل ذلك بخلاف ما اذا كان عدد المسلمين أكثر فانهم سوف يصوتون في الانتخابات إلى

جانب من يعمل على خدمة الثقافة الإسلامية المميزة لكم.

فقال: نعم اننا نعمل الآن على اعادة التتار الذين نزحوا من بلادنا في الماضي فنسهل لهم العودة اليها وذلك امر سهل قانونيا وعملياً، لانهم موجودون في انحاء الاتحاد السوفيتي وهم يحملون جنسية روسيا الاتحادية ولذلك لايوجد مانع قانوني يمنع من عودتهم الى تتارستان والعيش فيها.

فقلت له ان هذا جيد ولكنه لايحل المشكلة حلا جذريا لان عدد النازحين قليل وبعضهم اتخذ من انحاء روسيا الاتحادية او من البلاد التي كانت داخلة في الاتحاد السوفيتي سابقاً واستقلت الآن عنه وطناً ثانيا ونشأ فيه اولادهم وربما يصعب عليهم العودة ولاشك ان هذه ليست حال الاكثرية ولكنها موجودة.

فقال: هذا صحيح.

فقلت له: انني سأعرض عليكم اقتراحاً قد ترونه غير جاد لأول وهلة، اوحتى قد تظنون انه اقتراح مضحك، لانه يتنافى مع قواعدالتربية التي نشأ عليها المتعلمون في هذه البلاد خلال الحكم الشيوعي الملحد فيها ولكنه اقتراح جاد وعملي وربما كان اهم شئ في الموضوع الذى نبحثه الآن.

انه اقتراح العودة الى تعدد الزوجات فهو يتماشى مع الدين الإسلامي الحنيف الذي يعشقه شعب تتارستان الذي له الحق في التمسك بأوامر دينه والسير على التقاليد المستوحاة منه.

وطبيعي ان الموضوع لن يكون أمراً فضلاً عن ان يكون الزاما،

فكثير من الناس حتى في البلدان الإسلامية التي تبيح تعدد الزوجات يقتصرون على زوجة واحدة وانما المراد ان يتاح ذلك لمن يرغب فيه من المسلمين عن طريق اباحته قانونيا ولا شك انه توجه فئة من الناس ستعمل به وبذلك يزداد عدد المسلمين في هذه البلاد زيادة كبيرة .

والى أن تصدر الجهات المختصة في هذه الجمهورية قانون اباحة تعدد الزوجات الذي هو في الحقيقة ليس قانونا جديداً على مسلمي البلاد وانما هو العودة الى شئ كانوا عليه في الماضي يمكن ان يوعز المسؤولون المسلمون في الحكومة بطريقة غير معلنة الى بعض الجمعيات الاجتماعية المعترف بها قانونياً وهي غير حكومية بأن تنشأ عندها صناديق تسمى(صناديق التشجيع على الزواج) تعتمد على جمع التبرعات المحلية والعالمية وتستعمل الاموال التي تجمعها لتشجيع زواج المسلمين المبكر بالمسلمات وتقتصر بصفتها إسلامية على المسلمين لكونها جمعيات اهلية وذلك عن طريق دفع تكاليف الزواج والمساعدة على تكوين بيت الزوجية عن طريق دفع مساعدات شهرية لمدة معينة حتى يكون الزوجان أسرة مسلمة مستقرة .

يضاف الى ذلك دفع اعانات ولو صغيرة لمن ينجبون من المسلمين اكثر من ولدين، أو اكثر من ثلاثة أولاد، حسب الخطة التي تتخذها الجمعية المعنية لهذا الغرض .

لقد دهش هذا الرجل السياسي المفكر لهذا الاقتراح الذي لاشك انه سمع به اول مرة، ولكنه لم يستطع ان يعلق عليه بالاستحسان حتى بالعربية، لئلا ينقل عنه علنا فيما أظن انه يؤيده ولكنني اطمأننت على انه قد سمعه مني وتفهم المقصود منه.

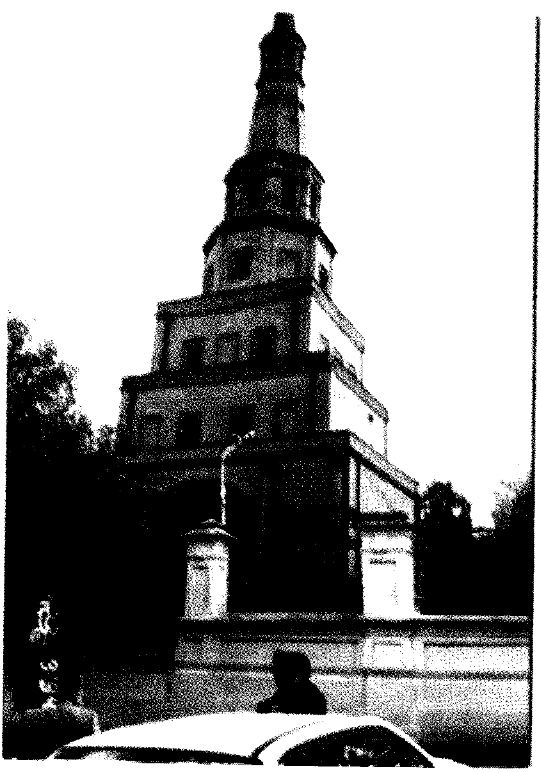
ان المسلمين اصبحوا لا يؤلفون اكثر من نصف السكان في بلادهم وذلك بسبب سياسة التهجير الروسية اليها وهي سياسة اساسها القهر والغلبة فلم لا يسعى المسلمون الى مقاومة ذلك بطريقة سلمية؟

الصومعة التذكارية :

وحقها ان نسميها بالمنارة التذكارية لولا انها تشبه المأذنة الأندلسية التي يبنيها اخواننا المغاربة في مساجدهم حتى الآن وهي المربعة التي تكون مؤلفة في نظر العين من اجزاء اسفلها اعلى من الذي اعلى منه .

خرجنا من القصر الجمهوري حيث وقفنا على هذه الصومعة التي بقربه وهي ايضا تقع بقرب كنيسة مزوقة المظهر كانت مسجداً فحوله الروس عندما احتلوا مدينة قازان الى كنيسة ولايزال كنيسة حتى الان .

اما الصومعة التذكارية هذه فقد



[المنارة التذكارية في قازان]

فرغوا من بنائها منذ وقت قريب وهي شامخة البناء يبلغ ارتفاعها ٦٧ متراً وتقع في هذا المكان المرتفع من مدينة قازان، بل هو اعلى الأماكن المرتفعة فيها على قلة الاماكن العالية فيها ، ولذلك ترى هذه الصومعة من مسافات بعيدة .

وقد ركبوا فوقها شاهداً ذهبي الطلاء ذكروا انه هدية من رئيس الجمهورية، ولا يشك من يرى هذه الصومعة انها منارة لمسجد كبير لانها تشبة المآذن الاندلسية كما قلت .

اما التعريف بها فإنهم ذكروا ان سبب بنائها ان الروس – بعدما احتلوا مدينة قازان وهدموا من مساجدها ما هدموا وقتلوا من رجالاتها من زعماء وفرسان وعلماء من قتلوا – ذكرت لملكهم أميرة تتارية جميلة، بل هي اجمل نساء عصرها فطلبها الملك الروسي لنفسه، فاظهرت الترحيب بطلبه غير انها طلبت منه ان يبني لها مبنى تذكارياً في هذا المكان المرتفع يكون ارتفاعه بقدر ارتفاع سبعة طوابق من الطوابق العالية التي كانت معروفة للأبنية الكبيرة في ذلك الوقت.

قالوا فوافق الملك على ذلك، وأمر ببناء الصومعة، ولما اكتملت صعدت الاميرة التتارية المسلمة الى اعلاها من اجل ان تشرف على المنطقة منها فيما قالته للملك، الا انها عندما بلغت اعلى منطقة منها القت بنفسها على الارض من ذلك الارتفاع فقتلت فوراً .

قالوا وقد صرخت بكلمات وداع الى شعبها المقهور قبل ان تلقى حتفها، وقد دخلت قصتها في الادب الشعبي التتاري، وقد خربت هذه الصومعة وتهدمت، الا ان القوم حينما ملكوا الحرية في بعض

شؤونهم قبل ثلاث سنوات بادروا بإقامتها على هيئة قوية وتوجوها بهذا الهلال الذي يُرى عليها الآن .

كرملين قازان :

واصلنا السير في هذا الجزء المهم من عاصمة تتارستان فقد اعتنوا به من ناحية النظافة والتنظيم ولم يكن فيه ما يكدر خواطر مثلنا الا منظر الكنيسة التي كانت مسجداً بأبراجها الذهبية وتحديها لمشاعر المسلمين، فوصلنا الى قلعة ذات قبة خضراء الطلاء يسمونها كرملين قازان قياساً على تسمية الكرملين الشهير في موسكو .



[الكرملين في قازان]

وقد استعرضت في ذهني العز التليد الذي ليس له عز طارف في بلاد المسلمين هذه، فبعد ان كان على من يعين كينازاً في موسكو أي كبير الحكام في روسيا ان يرسل السلطان من قازان مرسوما يسمونه

(فرمانا) يتضمن تثبيت ولايته يقرأ في كرملين موسكو والا لم يعتبر الناس حتى الروس انفسهم ان توليته صحيحة .

واليوم اسس الروس بعد ان اخضعوا المسلمين بزمن طويل هذه القلعة في عاصمة المجد التليد للمسلمين لتكون رمزاً لسيادتهم واضمحلال سيادة المسلمين عليها .

قل يحييها الذي انشأها أول مرة:

رأيت في هذه المرة كتابة في الميدان المرتفع الرئيسي من مدينة قازان وهو الميدان الذي لابد لمن يزور المدينة أن يراه حتى ولو كان من داخل جمهورية روسيا الاتحادية لانه واقع في هذا القسم القديم الفاخر حيث يطل على نهر قازان، وتطل عليه (كرملين قازان) .

ولم اكن رأيت هذه الكتابة من قبل لانني تأملت المكان في الزيارة الاولى ولا يمكن ان تخفى هذه الكتابة عليَّ لانها بالعربية ولكونها اية قرانية كريمة لا يمكن ان يخطيها نظر مثلي في هذا المكان الواضح، وهي مكتوبة بخط عربي جميل جدا وذلك من دون ترجمة حتى الى اللغة التتارية بل هي متروكة بالعربية وحدها على هيئة لوحة حجرية واضحة .

والآية هي ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)** ﴾ [**يس**] وتصورت ان المقصود من ايراد هذه الآية في هذا المكان هو الدولة الإسلامية القديمة في هذه البلاد وسيطر عليَّ الشعور حتى شرقت بدمعي، وسألت الاخوة المرافقين وانا اغالب الدمع عمن كتب ذلك فذكروا أن وزارة الثقافة هي التي كتبت هذه الآية، اي

انها كتبتها جهة رسمية حكومية .

ولكن ما الغرض من كتابتها ان لم يكن التذكير بماضي الدولة المسلمة هنا وبأن الذي أنشأها اول مرة هو قادر على ان يعيدها ثانية؟ ولو كان المراد غير ذلك بأن يكون المراد مجرد إيراد آية من الآيات التي تقرر البعث يوم القيامة لكانوا ترجموا معناها وشرحوها، ثم لما كان مكانها هذا الموقع السياسي المهم حيث القصر الجمهوري والقلعة (الكرملين) والكنيسة التي كانت مسجداً فحول الى كنيسة، والصومعة التذكارية التي تكلمت عليها، ثم هذا الموقع الفريد الذي يطل على مياه نهري قازان وايتل (الفولقا) اللذين كانت مياههما من المنبع الى المصب مياها إسلامية، ليس لغير المسلمين عليها سلطان .

صور الشجعان المسلمين :

وفي هذا الميدان ايضا رأيتهم رسموا صوراً لعديد من القادة الشجعان التتار الذين قُتلوا اثناء الحرب العالمية الثانية دفاعاً عن الاتحاد السوفيتي فاقام الروس لهم هنا لوحة تتضمن صوراً لهم مقتصرة على الراس واسمائهم كما هي العادة الروسية وقد تأملت اسماءهم فوجدتها كلها اسماء إسلامية وان كان بعضها قد حرف تحريفا بعد به عن أصله الإسلامي أوالعربي ، وهذه بعض الاسماء وكلهم من أبناء المسلمين .

سليم بخاروف

أحو آت ما شيف

وزنت حسنوف اي ابن حسن، لان (اوف) في اخر الاسم يعني باللغة العربية (ابن) .

عبد الله بطالوف ، اي ابن بطال

احمد سمييف، اي ابن سمي واصلها : سميع الله .

غريب بابا ييف .

فؤاد بولا توف، اي ابن بولات وهي بولاذ التي هي الفولاذ .

عبدالله علي .

فؤاد بابا فالينيكوف .

غينان كرماتش وغينان : تحريف (عدنان) .

ميدان الاستقلال :

انحدرنا من المرتفع المهم في قازان الى القسم الجيد من المدينة فوقفنا في ميدان يسمونه ميدان الاستقلال فيه تمثال للينين .

واعجب لاستقلال غير موجود، ولتمثال للينين طاغية الشيوعية التي رفضها حتى قومه الادنون، ولكن تمثاله لايزال موجوداً بل مرفوعا في مكانه، وتقع على جانب من هذا الميدان (جامعة لينين) الحكومية سميت بذلك لكون لينين قد درس فيها ابان دراسته، لانه من بلدة تبعد (٣٠٠) كيلو متر، جنوبا من تتارستان، واسمها (اوليانسكي) لم تكن فيها جامعة لذلك جاء لينين للدراسة في جامعة قازان هذه، ذكروا أنه بدأ تزعم المتذمرين من الحكم القيصري من هذه الجامعة

حيث كان يتظاهر مع من يقنعهم بالعمل مثله في هذه الجامعة وينطلق منها بالمظاهرة في شوارع المدينة.

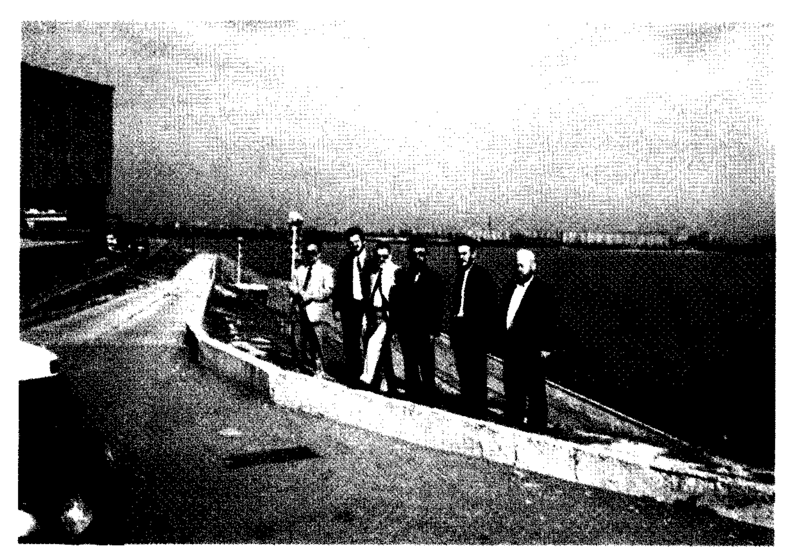
ومما يجدر ذكره ان المنطقة التي فيها بلدة(اوليا نسكي) التي ولد فيها لينين تعتبر الان منطقة روسية اي تعتبر من بلاد الروس الأصلية مع أنها لم تكن كذلك وانما كانت من ديار المسلمين لان الروس لم تكن لهم بلاد الى الجنوب من تتارستان إبان الدولة الإسلامية.

ومبنى الجامعة ذا طراز روماني قديم تتقدم مدخله اعمدة رومانية تقليدية، وقد بنيت الجامعة حديثاً مبنيين ضخمين من ١٦ طابقاً .

ومقابل مدخل الجامعة ميدان صغير ومتسع مرفوع عن الأرض فيه تمثال للينين، والاسم الكامل له فلا ديمير ايليتيتش لينين .

شاطئ قازان :

والمراد به نهر قازان وليس مدينة قازان ذهبنا بالسيارة مع الإخوة المرافقين الذين ارادوا أن يُرونا معالم المدينة المهمة في هذا اليوم الشامس الجميل، ورأينا أهم مبنى فيه كان اسمه (مومورريال) بمعنى التذكاري كانوا انشأوه ليكون تذكاراً للينين وقد انفقوا عليه اموالاً طائلة في إسراف ظاهر، الا أنهم بعد ان تغيرت الظروف السياسية نتيجة لسقوط الشيوعية غيروه فحولوه الى مركز لجمع التراث المحلي وأسموه (المركز الوطني)، ويقع في مكان مختار من ضفة نهر قازان العظيم.



[على نهر الفولقا في قاازان]

ميناء قازان :

والمراد بها هذه المرة مدينة قازان فهو ميناء المدينة على ضفة نهر ايتل (الفولقا) رأيناه مليئاً بالسفن الكثيرة المتعددة الاحجام ومنها سفن كبيرة لا تكون عادة الا في الموانيء البحرية العميقة ولكن مياه هذا النهر العملاق تحملها فترد إليها وتسافر منها إلى عدة مدن اهمها مدن وبلدان واقعة على نهر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين حيث يمتد نهر إيتل (الفولقا) اليه فيصب فيه .

واما البلدان التي تقع على ضفة النهر قبل ان تنتهي في بحر الخزر الذي هو بحر داخلي مغلق فانها كثيرة، ولذلك يعتمدون بدرجة كبيرة على النقل المائي، مثلما يعتمد غيرهم على النقل البحري .

ويتجمد نهر(الفولقا) هذا في الشتاء فيتعطل العمل في هذا الميناء، ويبلغ سمك التجمد فيه إلى متر واحد أو يزيد عن المتر قليلا واما أسفل النهر فانه يبقى سائراً لا ينقطع جريانه، لأنه لا يصله التجمد، واذا تجمد النهر في الشتاء وتعطلت الملاحة النهرية فيه، ركبته السيارات، وسارت فوقه فصارت تسافر فيه بدلا من السفن الى اماكن بعيدة .

وقفنا مليا نتأمل هذا النهر العظيم الذي لايكاد المرء يرى ضفته الاخرى لولا وجود اماكن مرتفعة قليلا فيها وفي النهر جزيرة بين ضفتيه غير واسعة ، ورأيت عبارات جيدة وليست كا لعبارة التي ركبناها على نهر (قاما) احد روافد نهر (الفولقا) فتلك قديمة خشنة، وقد رأيت في الميناء سفينتين كبيرتين واقفتين قال لنا مسؤول في الميناء : إن احداهما ذاهبة الى استراخان والاخرى الى موسكو عن طريق القناة التي شقوها لتغذي نهر موسكو من نهر ايتل (الفولقا) .

كان الجو ربيعا شامساً عجب منه المفتي، وقال هذا الجو غير معتاد في مثل هذه الايام من السنة حيث خلا من البرد، وخلت السماء من السحب فلا برد ولا مطر في موسم المطر هذه الايام.

مسجد الف عام :

هكذا اسمه وهو اسم غريب، وقصة المسجد ايضاً غريبة، وذلك ان هذا المسجد هو اول مسجد بنى في قازان بعد سيطرة الشيوعيين على الحكم فى روسيا على اعتبار أنه مسجد تذكاري لمناسبة مرور ألف عام على دخول الإسلام للمرة الأولى إلى منطقة نهر إيتل

(الفولقا) فوضع حجره الأساسي فى عام ١٩٢٣م وَصُلِّيتْ فيه الجمعة مرة واحدة في عام ١٩٢٧م ثم أغلق وصادره الشيوعيون وفي عام ١٩٩١م بعد سقوط الشيوعية استعادوه المسلمون، وسمي مسجد الف عام لهذا السبب، وقد غيروا اسمه أخيراً فسموه (مسجد التتار) .

وصلنا المسجد في الساعة الثانية عشرة فوجدنا فى الاستقبال عدداً من الأخوة المسلمين على رأسهم الاخ (اسحاق لطف الله) رئيس لجنة المسجد، ومدير المدرسة التي تتبعه وكان الاخ اسحاق يلبس عباءة عربية جيدة وإمام المسجد زكر يا بن مني ولي .

وجدنا المصلين يتقاطرون على المسجد استعداداً لصلاة الجمعة مع انه لايزال في الوقت متسع لذلك ذهبنا الى المدرسة الإسلامية ؛ واجلسونا الى مائدة مستطيلة في مطعم المدرسة الذي يقع في قاعة لا بأس بها والمدرسة مثلها مثل المرافق التابعة للمسجد كلها واسعة جيدة ، ورأينا اللافتات التي في قاعة المطعم هذه كلها عربية ومنها : (اجتمعوا على طعامكم واذكرو اسم الله يبارك لكم فيه) .

ولافتة عربية اخرى نصها : أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه اخاه المسلم، واخرى : (اكرموا الخبز، وإنما بعثت معلما)، ورابعة : (ثمن الجنة لا اله الا الله دُمْ على الطهارة يوسع عليك الرزق)، وقال مدير المدرسة : طلابنا يعرفون اللغة العربية بمعونتكم .

ويشتمل منهج الدراسة في المدرسة على اللغة العربية والدين فقط فليس فيها منهج حكومي، وقد بدأت الدراسة فيها في شهر مايو

عام ١٩٩٠م، ومن العادة ان يبدأ العام الدراسي عندهم أول اكتوبر .

ثم اخذوا يشكون من قلة مواد المدرسة فذكروا ان عدد الطلاب فيها الآن ١٢٣ طالبا منهم ٦٣ طالبا يقيمون في داخل سكن المدرسة وقد رأينا مهاجعهم في غرف كبيرة جماعية وذكروا أنه كان في المدرسة ٤ مدرسين من تركيا وكانت احدى الهيئات الخيرية السعودية تدفع رواتبهم ولكنها تأخرت هذا العام فانقطعوا وقدوجدوا مدرسين محليين براتب اقل وهو (٤٢) دولاراً في الشهر للمدرس الواحد والآن المشكلة أنهم لايملكون هذا المبلغ، وذكروا ان عدداً من الزوار من البلدان الإسلامية قد وعدوهم بالمساعدة ولكنهم لم يفعلوا، وذكروا ان بعض الطلبة القادرين وهم قلة بين الطلاب يدفعون مبالغ شهرية ضئيلة واما البقية فإنهم لا يستطيعون دفع أى شيء لفقرهم، وقالوا نحن ننفق عليهم في المدرسة وذكروا ان المدرسة مهددة بالتوقف، كما ذكروا أن المسجد يحتاج الى النفقات المتكررة فأعلنت لهم عن تبرع رابطة العالم الإسلامي بدفع رواتب المدرسين وهم خمسة لمدة سنة دراسية كاملة وهي عشرة أشهر بواقع اربعين دولاراً في الشهر للمدرس الواحد بما مجموعه الف دولار امريكي، كما اعلنت لهم اننا سندفع لهم ايضا ثلاثة الاف دولار نفقات المدرسة والمسجد وقد دفعنا لهم بالفعل ذلك وهو خمسة الآف دولار فوراً .

وقد صارت السنتهم تلهج بالدعاء والثناء فقلت لهم : ان هذا من واجبنا وارجو ان يكون ذلك فاتحة التعاون ما بينكم وبين رابطة العالم الإسلامي ويمكنكم ان تكتبوا الينا بوساطة الادارة الدينية في قازان .

ثم جلنا معهم في حديقة المسجد وارض له واسعة قدغمرتها اشجار الفاكهة المثمرة ومنها الشجرة التي رأيتها في اوفا عاصمة جمهورية بشكيريا وذكروا أنهم يستخرجون منها شرابا لذيذا في فصل الربيع وقد ذكرها علماؤنا في بلاد البلغار، ومن الغريب اننارأينا أسراباً كثيرة من البق تحوم حول هذه الشجرة دون غيرها من الشجر قالوا: ربما كان ذلك لحلاوة الماء الذي يخرج منها واشتبكت في أرضها الأعشاب حتى لايكاد المرء يقدر على السير فيها بقدميه ولو بحذاء سميك من تشابكها وعلوها عن الارض.

وتبلغ مساحة الارض خمسة الاف متر مربع واقعة على ضفة بحيرة واسعة، من حي جيد في قازان اسمه (هادي تاق تاش).

ومن المؤسف ان الحكومة كانت قد بدأت ببناء مبنى كبير جيد قبل أن يستعيد المسلمون المسجد، فأوقفت الحكومة البناء فيه عندما استعيد المسجد، وعرضت على جمعية المسجد أن تتسلم هذا المبنى وتكمله، فامتنعت الجمعية عن ذلك بعذر أنها لا تمتلك النقود التي تستطيع ان تكمل بها المبنى مع انه لا يبعد الا بأمتار قليلة عن المسجد وهو داخل الارض التي تتبعه، وذكروا أنه يلزم لاكماله ٨٠ الف دولار أمريكي وأنى لهم بذلك.

كان الجو جيداً كما قلت والخصب في حديقة المسجد التي لا يحتاج شئ فيها الى سقي الآن وفيها طائفة من الزهور الجميلة.

جمعة قازان.

كانت الجمعة الوحيدة التى صادف ان حلت وانا في قازان في

الزيارة الاولى في جامع المرجانية اكبر مسجد في المدينة، بل كان المسجد الوحيد المسموح بالصلاة فيه، اما هذه المرة فان الجمعة ستكون في هذا المسجد الذي يخشى ان تتوقف المدرسة فيه عن العمل ، وقد حرص الإخوة المسؤولون في الإدارة الدينية على ان نصلي فيه لنطلع على حاله ونعرف حاجة اهله الى التبرع لتسيير شؤونه.

وجدنا معظم المصلين قد دخلوا فعلاً في المسجد ومن المفرح ان بينهم صغاراً في السن وقد الفوا ثلاثة صفوف وبعض الصف وفي المؤخرة في قسم محجوز أشبه بالغرفة الكبيرة المفتوحة على المسجد توجد اخوات مسلمات حضرن لصلاة الجمعة معظمهن من المسنات.

لقد جلسنا في الصف الاول فأذن مؤذن منهم بصوت جيد واخراج جيد واصعب ما على الاخوة المسلمين ممن لا يتكلمون العربية ان يتقنوا النطق بالحروف الحلقية ولكن هذا المؤذن أذن أذاناً خالياً من اللكنة ولم أعرف اسمه.

ثم طلبوا مني أن أَؤُمهم في الصلاة فامتنعت جريا على عادة أخذت بها نفسي في مثل هذه المواقف وهي ان اكون مأموما لان ذلك يعطي الامام الراتب حقه وثانياً لانه يمكنني من معرفة كيفية اداء الصلاة وثالثاً أنني لا احسن لغة القوم وأفضل ان يخطب فيهم من يفهم لغتهم .

وهكذا فعل المفتي الشيخ عبد الله صفا حيث تقدم فالقى خطبة قصيرة بالعربية اعقبها بخطبة اوموعظة باللغة التتارية لغة القوم جلس

بعدها ثم نهض للخطبة الثانية فألقاها قصيرة جدا بالعربية وكان يخطب واقفاً في المحراب لأنه لا يوجد في المسجد الامنبر قصير لا يتعدى ارتفاعة نصف متر ، وقد اقام المؤذن وبعد فراغه مباشرة من الاقامة كبر الامام للصلاة بدون فاصل قصير او دعاء كما يكون عندنا، وقد قرأ الشيخ المفتي قراءة جيدة مفصلة .

وبعيد انتهاء الصلاة دخلوا مباشرة في صلاة نافلة من عدة ركعات لا يخل بها احد منهم، ولم ينصرفوا بعد النافلة بل بقوا كلهم في انتظار الدعاء والتسبيح والتحميد، فجعل الامام يهمهم بالدعاء دون ان يرفع صوته، ثم قال بصوت مرتفع (سبحان الله) ثم واصل الإسرار بالدعاء والتسبيح وقال كذلك (الحمد لله)، (الله اكبر)، ثم قرأ الشيخ نور الله آيات من القران الكريم قراءة جيدة حيث كان اداؤه للتلاوة متقنا وصوته بها شجيا .

وكان الشيخ عبد الله صفا قد نوه بوجودنا في الخطبة وذكر لهم وظيفتي وانني سوف ألقي كلمة بعد الصلاة، وقد ألقيت فيهم كلمة نوهت فيها بقوة الرابطة التي تربط بين المسلمين وانها اقوى من رابطة النسب وذكرتهم بأمجاد أسلافهم المسلمين في هذه البلاد وقلت لهم : انه من المطلوب منهم ان يعملوا على اعادة تلك الأمجاد الإسلامية عن طريق تربية أولادهم تربية إسلامية وبذلك يشعرون اولاً بتميزهم وبأن عليهم واجباً دينيا ثقافيا تجاه امتهم .

وقلت لهم : ان المسلم يجب أن يتميز بعمله الصالح ومعاملته الحسنة وبأمانته حتى اذا تعامل مع غير المسلمين، لان ذلك وسيلة لنشر

الإسلام لان الناس لا يعرفون عن الإسلام الاما تحلى به اهله وهذه حال اكثرهم، ويجب على كل واحد منا ان يحاسب نفسه في نهاية كل يوم فاذا رأى انه قد عمل عملاً صالحاً في يومه حمد الله وشكر له واذا رأى انه قد فعل غير ذلك استغفر الله وعزم على الأّ يعود لمثل ذلك العمل .

وقلت لهم : ان بلادكم تشهد الآن هذا التغير الجيد الذي سمح لكم باستعادة مساجدكم ، وبناء مساجد جديدة وبانشاء المدارس وهذه فرصة تنتهز، وينبغي اذا لم تستطيعوا شيئاً بسبب الحالة الاقتصادية التي عليها بلادكم في الوقت الحاضر ان تكتبوا لاخوانكم في الدين في بلدان الإسلام ومنها البلاد العربية توضحون فيها حاجتكم للمشروعات الإسلامية وتطلبون منهم مساعدتكم على تحقيق ذلك، فهذا الامر ليس فيه غضاضة على اي مسلم، لان المطلوب هو قيام المشروعات الإسلامية التي من اهمها بناء المساجد واقامة المدارس والحصول على الكتب الإسلامية بلغة يفهمها المسلمون في بلادكم ، وفي الختام دعوت الله تعالى لهم دعاء صادقاً بان يزيدهم من الخير وان يعيد الى بلادهم مجدها الإسلامي العريق وان يصلح ناشئة المسلمين في هذه البلاد ويصلح ما بين المسلمين ويجمع شملهم على الخير، وقد ترجم كلمتى الشيخ المفتي عبد الله صفا الى لغتهم ، وقد بكى كثير منهم تاثرا بما ذكرته.

ثم بدأوا مصافحة نظامية بحيث جعلوا جميع المصلين في المسجد ياتون الينا في صف واحد منتظم طويل للمصافحة ومن

صافح لا يعود إلى المكان الذي جاء منه، ولاحظت ان الاخوات المصليات من النساء وكلهن من المسنات لم يخرجن من المسجد لأنهن كن يستمعن الى الكلمة ومنعهن أدبهن من ان يتقدمن الى المصلى الذي فيه الرجال فذهبت اليهن فالقيت فيهن كلمة تأثرن منها كثيراً وبخاصة عند ذكر مكة المكرمة والمدينة المنورة وبكين اكثر مما بكى الرجال، وطلبن منا الدعاء لهن في مكة المكرمة.

غداء المدرسة:

عدنا الى مطعم المدرسة مع الاخوة المسؤولين عن المسجد والمدرسة وعلى رأسهم الاخ (اسحاق لطف الله) فوجدناهم قد اعدوا المائدة فيها طويلة واسعة جلسنا عليها مع عدد منهم فكانت الفاكهة من البطيخ الاخضر(الحبحب)والعنب وقيل لي انها من أذربيجان لان بلادهم باردة لا تنتج مثل هذه الفاكهة وكعك لين (كيك) وزبيب وحلوى من صنعهم وعصير توت، ثم جاؤا بالطعام الحار الرئيسي فيه بطاطس ومرق فيه شعيرية ولحم جيد دسم من لحم الغنم ثم الشاي.

انتقلنا بعد ذلك الى مكتب الجمعية في المسجد حيث حضرت محاسبة الجمعية وهي اخت اسمها(روزايلة بنت مبارك شاه) كما هي العادة في الجمعيات الإسلامية التتارية حيث تكون المحاسبات فيها من النساء ولكن الاخت(روزايلة)خالفت الكثيرات من المحاسبات في العادة بكونها شابة على حين كنا نرى المحاسبات في الجمعيات الإسلامية في البلدان التي مررنا بها في هذه السفرة وهي اقطار

البلطيق الثلاثة ليتوانيا ولاتفيا واستونيا ثم روسيا البيضاء كلهن من المسنات؛ وقد خرجنا من المسجد في الساعة الثالثة بعد ان التقطت للمسجد صورة خارجية بطلائه الاحمر، ومنارته التي جمعت بين أن تكون صومعة مربعة ومنارة مستديرة.

الاجتماع في الادارة الدينية :

في الساعة السادسة عقدنا اجتماع عمل ختامياً في الادارة الدينية لجمهورية تتارستان حضره نواب رئيس الادارة الدينية الثلاثة وفي مقدمتهم الاخ (مارس جلال الدين) الذي كان نعم الصاحب الملازم لنا طول اقامتنا وتنقلاتنا في هذه البلاد.

وكان الاخوة الموكلون بقطع التذاكر من قازان الى اسطنبول قد اخبرونا انهم تسلموها قبل قليل من ذلك بعد مراجعة استمرت ثلاثة أيام مع انهم كانوا قد سلموا ثمنها الى الشركة واخبرونا ان اقلاع الطائرة سيكون في الخامسة والنصف فجر غد، لذلك كان اجتماعنا في مقر الادارة الدينية في الطابق الارضي من مسجد نور الله هو الاجتماع الرسمي الاخير، فبحثنا مع الاخ المفتي ونوابه كيفية التعاون ما بين رابطة العالم الإسلامي وهذه الادارة التي تمثل العمل الإسلامي في هذه البلاد لأن الحكومة حكومة علمانية تسير على ما كانت تسير عليه حكومة الاتحاد السوفيتي السابق من فصل الدين عن الدولة وان الدولة لا تقدم شيئاً للدين الإسلامي الا أنها لا تسير على سياسة الإلحاد ولا تقاوم الدين وتعطي من الاراضي الحكومية ما تحتاجه إليه المساجد والمدارس الإسلامية بالمجان وذلك لكون الاراضي كلها مملوكة

للدولة طبقا لما ورثوه من قوانين عن الحكومات السابقة.

ومن مظاهر تخلي الدولة عن الامور الدينية في هذه البلاد ان والدة زوجة رئيس الجمهورية توفيت قبل عهد قليل فحضر الصلاة عليها في المسجد فاعتبر المسلمون ذلك فتحاً عظيما ومزية كبيرة له وبخاصة عندما قال للمفتي : اذا انا مت فادفنوني على الطريقة الإسلامية، مع أنه لم يصل على الجنازة مثل الناس، حذراً من ان يوصم بالانحياز الى جهة من الجهات الدينية لان غير المسلمين في البلاد يقولون انه هو رئيسهم ايضا وإن عددهم يؤلف نصف سكان البلاد.

ومما يذكر ان زوجة رئيس الجمهورية وهي ابنة المتوفاة كانت قد ادت فريضة الحج عام ١٤١٤هـ على ضيافة رابطة العالم الإسلامي اذ دعونا رئيس الجمهورية وعدداً من كبار المسؤولين فيها للحج على ضيافة الرابطة مع زوجاتهم فحج اكثرهم بالفعل اما رئيس الجمهورية فاعتذر بارتباطات سابقة وأرسل زوجته للحج وقد سر المسلمون عندما صلت زوجة رئيس الجمهورية واعتبروا ذلك فالاًحسناً في تظاهر المسلمين المسؤولين باداء الشعائر الدينية، لاننا لاحظنا في البلدان الشيوعية التي زرتها وهي كل البلاد الشيوعية السابقة ان من يكونون من المسؤولين مسلمين في الاصل او لنقل : انهم من أبناء المسلمين لا يصلون علنا ولا يعلنون انهم يصومون وذلك ان سياسة الشيوعية قائمة على الالحاد، ولأن التدين مناقض قانونا للشيوعية.

هذا وقد اتفقنا مع الاخوة في الادارة الدينية على ما ينبغي عمله في التعاون بيننا وبينهم، ودفعنا لهم مساعدات مالية للجهات التي

اعلنا لهم مساعداتها ولم ندفعها اما لعدم وجود المسؤولين عن المال فيها او لعدم وجود أوراق رسمية فسلمناها للادارة الدينية لتسلمها لأهلها، ثم سلمنا مساعدات مالية للادارة الدينية وكلها مساعدات رمزية عاجلة، تكفي لبدء التعاون ولتشغيل المشروعات التي وقفت لقصور النفقة لفترة معينة.

يوم السبت : ١٩ / ٤ / ١٤١٥هـ - ٢٤ / ٩ / ١٩٩٤م

مغادرة تتارستان:

غادرنا فندقنا (فندق تتارستان) في الخامسةوالنصف حيث مر علينا اخونا المفتي الشيخ عبد الله صفا ونوابه فحملنا امتعتنا الى المطار واخبرنا الشيخ انه قد دفع للفندق ولاجرة السيارة بالعملة المحلية على اعتبار اننا ضيوف على الادارة الدينية فشكرت له ذلك، ودفعنا اليه ما دفعه وهو اقل من الاسعار التي يدفعها الاجنبي بكثير اذا استاجر الشئ بنفسه.

كان اهم الحركة في شوارع قازان - في هذه الساعة المبكرة اذ لا تزال انوار الشوارع مضاءة - وسائل النقل العام من قطار الكهرباء المسمى بالترمواى او الترام ومن حافلات الكهرباء (الترولّلي باص) حيث كثرت في الشوارع في هذه الساعة المبكرة التي لم نر فيها راكبين الا قليلا.

ومن الغريب ان الجو لا يزال ربيعا دافئا رغم كوننا في (كبد الشمال) كما تقول العامة عندنا فقازان تقع جهة الشمال من موسكوأى أنها اقرب قليلا الى القطب الشمالي من مدينة موسكو، وكان الجو صاحياً خاليا من الغيوم.

عندما وصلنا المطار أخبرنا رجل مسؤول فيه انه قد بقيت ساعتان على مغادرة الطائرة، ولم يكن على مكاتب الترحيل اي موظف؛ فطلبنا من مرافقينا ان يعودوا الى بيوتهم لان الانتظار سيطول الا أنهم انتظروا حتى جاءت الموظفات وجميع العاملين في مكاتب الترحيل هذا الصباح من النساء وهن على غاية من الخشونة وعدم مجاملة الركاب بالكلام او بحسن التصرفات حتى إنني لم المح ابتسامة واحدة على أية شفة من الشفاه سواء من الرجال أو النساء أو من الركاب أو الموظفين حتى ولا من بعضهم للبعض، وهذا امر عرفناه من العاملين في المرافق العامة في الاتحاد السوفيتي السابق ولا يزال هو السائد في روسيا الاتحادية التي خلفت الاتحاد السوفيتي والتي منها هذه الجمهورية .

ومن غير المالوف ان الركاب قد حضروا قبلنا وبعضهم معنا وكلهم حضر قبل الموظفين وجلسوا ينتظرون ومن لم يجد منهم كرسياً يجلس عليه ظل واقفاً ولم ار احداً منهم تافف من ذلك او ابدى اعتراضه عليه، وقد بدأت اجراءات الترحيل بتفتيش الحقائب تفتيشا الزاميا فاخبرناهم ان جوازاتنا (دبلوماسية)وان ذلك يعفينا من تفتيش الجمارك، وبعد مداولات ومراجعات لكبار الموظفين اشترك فيها مودعونا سمحوا لنا بان تدخل امتعتنا الى ميزان الترحيل دون تفتيش.

وكان الشئ الذي ضايقني ان طائفة منهم اخذوا مع الاخوة المودعين يرون كيفية تعبئة بطاقات الخروج ويتجادلون في ذلك وكاننا لم نركب من مطار قبل هذه المرة .

وعند ضابط الجوازات تاخر جوازي لانه اخذ يريه لعدد من الموظفين والظاهر ان سبب ذلك هو وجود صورتي فيه عليَّ الملابس العربيه على حين انني الان ارتدي الملابس العالمية المسماة بالافرنجية.

ومن المشكل ان ضابط الجوازات لايعرف الانكليزية وحتى زملاؤه الموظفون كذلك وكنا في راحة من وجود اخواننا الذين كانوا يترجمون لنا الى اللغة الروسية او التتارية.

ولكننا ودعناهم عندما وصلنا الجوازات ورأينا ان اجراءات السفر اكتملت حيث دخلنا الى قاعة الترحيل الا ان احد ضباط الجوازات جاء الينا وطلب جوازاتنا وظل يرطن بما لا نفهه ولم نجد من الركاب ولا من الموظفين من يحسن الانكليزية فيترجم لنا ما يريد فسكتنا حتى ذهب بالجوازين ثم اعادهما ولا ندري السبب.

الى اسطنبول :

في الثامنة وعشر دقائق خرجنا الى الطائرة سيراً على الاقدام لان الطائرة قريبة من القاعة وأعلنوا من مكبر الطائرة بثلاث لغات اولها التتارية ثم الروسية فالانكليزية ان الطيران الى اسطنبول سيستغرق ثلاث ساعات وثلثا من دون توقف .

وعندما القيت نظرة على ركاب الطائرة وكانوا قد وضعونا على مقاعد في مقدمة الطائرة من باب التكريم ولم يضعوا في صف الكراسي التي امامنا احداً لذلك وسع علينا مع ان جميع مقاعد الطائرة مليئة الا خمسة مقاعد، وجدت ان ركابها تقريبا كلهم من النساء وهي اغرب رحلة ركابٍ لانه حدث ان رايت طائرات فيها

نساء كثيرات الا ان اولئك كانوا في الغالب من المتجانسين في المظهر او السن اواللباس اما هؤلاء النسوة الراكبات فإنهن من اعمار مختلفة وفي مظاهر مختلفة ففيهن الروسيات وفيهن المتروسات وهن اللاتي اتخذن بحكم النشأة والعادة طبائع الروسيات ومنهن التتاريات .

وفي التاسعة الا الربع كانت الطائرة تقلع من المطار واستعدت في ذهني ما ذكرته الشركة من ان ثمن التذكرة الى اسطنبول هو ٩٨٧ دولاراً ثم اخذتنا شركة اخرى بـ٢٥٠ دولاراً وكان منظر نهر ايتل (الفولقا) من الطائرة جليلا رائعاً بسعته وبوجود بعض الجزر الصغيرة فيه الا انه لا يقارن في عرضه بانهار عديدة كبيرة رأيتها في انحاء اخرى من العالم طرت فيها أو نزلت بجوار النهر ومن ذلك نهر (لبلاتا) العظيم الذي يفصل بين عاصمة أوروغواي منتفيديو وعاصمة الارجنتين (بوينس آيرس) وهو اعرض نهر في العالم اذ يبلغ عرضه في اضيق نقطة منه ٤٠ كيلو مترا واما في اوسع نقطة منه فان عرضه ٧٥ كيلو مترا.

وذكرت ايضا نهر (سكيبو) احد انهار جمهورية غيانا التي عاصمتها (جورج تاون) في امريكا الجنوبية، حيث توجد في ذلك النهر ٣٦٠ جزيرة بعدد ايام السنة فيها جزر اكبر من دولة(بربادوس) غير البعيدة منهم والتي تقع في جزيرة من البحر الكاريبي .

وامعنت الطائرة في طيرانها فوق اراضي تتارستان التي شهدت امجاداً عظيمة من امجاد المسلمين ضيعها اهلها باختلافهم واستعانة بعضهم على بعض بالكفار الاعداء كما فعل حكام الطوائف في

الاندلس وقد بدت بعض الحقول بيضاء من الطائرة لانها كانت حقول قمح حصيد، وكثرت مجامع المياه التي هي اشبه بالبحيرات الصغيرة.

هذا والطائرة روسية الصنع بطبيعة الحال وهي من طراز (توبوليف ١٣٤) النفاث وليست فيها درجة اولى، بل كلها درجة سياحية.

وبعد ان امضت الطائرة خمسين دقيقة من الطيران وكانت قدارتفعت عالية في الجو اعلنوا باللغات الثلاث انهم سوف يقدمون بعد دقائق طعام الفطور، ثم جاؤا بالفطور وقد جعلوا الصحن الرئيسي فيه دجاجا مخلوطاً بلحم الخنزير ولو لم يكن الدجاج مخلوطاً بالخنزير لما اكلناه لان ذبحهم للدجاج غير شرعي فأكلنا من خبز وزبد وجبن أصفر منفصل عن الأول، ومعه بسكويت وحلوى مغلفة وعصير تفاح عليه حروف عربية تبين انه مستورد من ايران ثم الشاى.

وفي الساعة الثانية عشرة والربع بتوقيت قازان وهي الثالثة والربع بتوقيت اسطنبول كانت الطائرة تهبط في مطار اسطنبول الذي أعلنوا فيه أن درجة الحرارة (٢٠) درجة مئوية وهي نفس الدرجة تقريباً في قازان وموسكو حينما كنا فيهما؛ ومن اسطنبول عدنا إلى بلادنا بخير وسلامة ولله الحمد.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
العودة إلى قازان	١٩٣
إلى قلب قازان الفاخر	١٩٣
حديث التلفزة	١٩٣
مقابلة مستشار رئيس الجمهورية	١٩٥
التتار ينقصون	١٩٩
الصومعة التذكارية	٢٠٢
كرملين قازان	٢٠٤
قل يحييها الذي انشأها أول مرة	٢٠٥
صور الشجعان المسلمين	٢٠٦
ميدان الاستقلال	٢٠٧
شاطىء قازان	٢٠٨
ميناء قازان	٢٠٩
مسجد الف عام	٢١٠
جمعة قازان	٢١٣
غداء المدرسة	٢١٧
الاجتماع في الادارة الدينية	٢١٨
مغادرة تتارستان	٢٢٠
إلى اسطنبول	٢٢٢

كتب في الرحلات للمؤلف

أولاً – كب مطبوعة :

١ – « في إفريقية الخضراء » طبع أكثر من مرة وترجم إلى عدة لغات .

٢– « مدغشقر : بلاد المسلمين الضائعين » نشره النادي الأدبي في الرياض .

٣ – « جولة في جزائر البحر الزنجي » طبع المطابع الأهلية للأوفست بالرياض ١٤٠٢هـ .

٤ – « في نيبال، بلاد الجبال » طبع مطابع نجد في الرياض .

٥ – « رحلة إلي جزر مالديف » طبع مرات ونشرته دار العلوم في الرياض .

٦ – « رحلة إلى سيلان » نشرته الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة .

٧ – « صلة الحديث عن إفريقية » نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٤هـ .

٨ – مشاهدات في بلاد العنصرين » نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة .

٩ – « شهر في غرب إفريقية » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

١٠– « زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

١١– « رحلات في أمريكا الوسطى » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

١٢– « إطلالة على نهاية العالم الجنوبي » نشره النادي الأدبي في مكة المكرمة .

١٣– « إلى أقصى الجنوب الأمريكي » طبع في مطابع الفرزدق بالرياض .

١٤– « ذكريات في إفريقيا » محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي .

١٥– « جولة في جزائر البحر الكاريبي » طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

١٦– « على قمم جبال الأنديز » طبع في مطابع الفرزدق التجارية .

١٧– « جولة في جزائر جنوب المحيط الهادي » طبع بمطابع الفرزدق التجارية .

١٨– « على ضفاف الأمازون » نشره النادي الأدبي في أبها .

١٩– « في أعماق الصين الشعبية » نشرته مجلة المنهل التي تصدر في جدة .

٢٠– « نظرة في وسط افريقية » طبع في مطابع الفرزدق التجارية .

٢١– « في بلاد المسلمين المنسيين : بخاري وما وراء النهر » طبع بمطابع الفرزدق التجارية .

٢٢– « في غرب البرازيل » .

٢٣– « بقية الحديث عن إفريقية » .

٢٤– « بورما الخبر العيان » طبع في بيروت .

٢٥– « داخل أسوار الصين » (مجلدان) .

٢٦– « مع المسلمين البولنديين » .

٢٧- « بين الأرغواي والبارغواي » .

٢٨- « سياحة في كشمير » .

٢٩- « جمهورية أذربيجان » .

٣٠- « بلاد الداغستان » .

٣١- « ذكريات في يوغسلافيا » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٣٢- « مقال عن بلاد البنغال » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٣٣- « أيام في النيجر » طبع في بيروت .

٣٤- « الرحلة الروسية » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٣٥- « نظرة في أوروبا الشرقية وحالة المسلمين بعد سقوط الشيوعية » . طبع ببيروت .

٣٦- « كنت في بلغاريا » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٣٧- « كنت في ألبانيا » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٣٨- « قصة سفر في نيجيريا » (مجلدان) .

٣٩- على أرض القهوة البرازيلية » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٤٠- « بين غينيا بيساو، وغينيا كوناكري » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٤١- « من أنقولا إلى جزر الرأس الأخضر » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض .

٤٢- « في جنوب الصين » نشرته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة .

٤٣- « يوميات آسيا الوسطى » مطابع الفرزدق التجارية بالرياض

٤٤- « حديث قازاقستان » نشرته دار القبلة في جدة .

٤٥- « بلاد القرم » نشرته دار القبلة في جدة .

ثانيا : كتب مخطوطة :

٤٦- « في ربوع السودان الغربي » .

٤٧- وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية .

٤٨- « رحلة في امريكا الجنوبية » .

٤٩- « رحلات في شرق الهند » .

٥٠- « رحلات في شمال الهند الشرقي » .

٥١- « وراء العمل الإسلامي القارة الإسترالية » .

٥٢- « وراء المشرقين : رحلة حول العالم » .

٥٣- « في بلاد الهند والسند : باكستان » .

٥٤- « في أندونيسيا : أكبر بلاد المسلمين » .

٥٥- « مشاهدات في تايلند » .

٥٦- « رحلات في بلاد الملايو » .

٥٧- « نظرة إلى الفلبين بين زيارتين رسمية وخاصة » .

٥٨- « الإشراف على أطراف من المغرب العربي » .

٥٩- « رحلات في القارة الأوروبية » .

٦٠- « الحل والرحيل في بلاد البرازيل » .

٦١- « في مهد الترك » .

٦٢- « رحلات في البيت » .

٦٣- « العودة إلى غرب إفريقية » .

٦٤- « زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي » .

٦٥- « في شرق البرازيل » .

٦٦- « في الشمال الشرقي من البرازيل » .

٦٧- « رحلات فنزويلية » .

٦٨- « بقية البقية من حديث إفريقية » .

٦٩- « خلف الستار العَقَدي » .

٧٠- « رحلات في شمال الهند » .

٧١- « رحلات في وسط الهند »

٧٢- « رحلات في وسط الهند » .

٧٣- « رحلات في غرب الهند » .

٧٤- « تائه في ناهيتي » .

٧٥- « نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض » .

٧٦- « ذكريات المؤتمرات » .

٧٧- « جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط » .

٧٨- « مؤتمرات إسلامية حضرتها » .

٧٩- « إطلالة على موريتانيا » .

٨٠- « زيارة رسمية لتايوان » .

٨١- « في جنوب البرازيل » .

٨٢- « العودة إلي الصين » .

٨٣- « في وسط الصين » .

٨٤- « إلى أقصى الجنوب الإفريقي » .

٨٥- « في أدغال أندونيسيا » .

٨٦- « أيام في فيتنام » .

٨٧- « مشاهدات في لاوس وكمبوديا » .

٨٨- « العودة إلى ما وراء النهر » .

٨٩- « في شمال شرق آسيا » .

٩٠- « فوق سقف الصين » .

٩١- « على سقف العالم » .

٩٢- « إطلالة على استراليا » .

٩٣- « في جنوب تايلند (فطاني) .

٩٤- « حديث قيرغزستان » .

٩٥- « إلى جنوب الشمال : بلاد السويد » .

٩٦-« إلى شمال الشمال : النرويج وفنلدا » .

٩٧- « المستفاد من السفر إلى تشاد » .

٩٨- « جولة في جزائر المحيط الأطلسي » .

٩٩- « رحلتا المسافات الطويلة »

١١٠- « حول العالم في خط متعرج » .

١٠١- « الاعتبار . في السفر إلى ماليبار » .

١٠٢- « راجستان : بلاد الملوك » .

١٠٣- « بالي : جزيرة الأحلام » .

١٠٤- « بلاد الشركس : الإديغي » .

١٠٥- « بين بلاد القرتشاي، وبلاد القبوداي » .

١٠٦- « العودة إلى داغستان » .

١٠٧- « المكسيك وقواتمالا » .

١٠٨- « بيليز والسلفادور » .

١٠٩- « هندوراس ونيكارقوا » .

١١٠- « أقطار البلطيق »

١١١- « من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء » .

١١٢- « بلاد التتار والبلغار » وهو هذا الكتاب

صدر من هذه السلسلة

العنوان	المؤلف
١ – تأملات في سورة الفاتحة	د. حسن باجودة
٢ – الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه	أ. أحمد محمد جمال
٣ – الرسول في كتابات المستشرقين	أ. نذير حمدان
٤ – الإسلام الفاتح	د. حسين مؤنس
٥ – وسائل مقاومة الغزو الفكري	د. حسان محمد حسان
٦ – السيرة النبوية في القرآن	د. عبد الصبور مرزوق
٧ – التخطيط للدعوة الإسلامية	د. علي محمد جريشة
٨ – صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية	د. أحمد السيد دراج
٩ – التوعية الشاملة في الحج	أ. عبد الله بوقس
١٠– الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره	د. عباس حسني محمد
١١– لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢– السنة في مواجهة الأباطيل	أ. محمد طاهر حكيم
١٣– مولود على الفطرة	أ. حسين أحمد حسون
١٤– دور المسجد في الإسلام	أ. علي محمد مختار
١٥– تاريخ القرآن الكريم	د. محمد سالم محيسن
١٦– البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام	أ. محمد محمود فرغلي
١٧– المرأة وحقوقها في الإسلام	د. محمد الصادق عفيفي
١٨– القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١]	أ. أحمد محمد جمال
١٩– القراءات: أحكامها ومصدرها	د. شعبان محمد اسماعيل
٢٠– المعاملات في الإسلام	د. عبد الستار سعيد
٢١– الزكاة: فلسفتها وأحكامها	د. علي محمد العماري
٢٢– حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	د. أبو اليزيد العجمي
٢٣– الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٢٤– الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	د. عدنان محمد وزان
٢٥– الإسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة
٢٦– تربية النشء في ظل الإسلام	د. محمود محمد عمارة
٢٧– مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي	د. محمد شوقي الفنجري
٢٨– وحي الله – حقائق وخصائص في الكتاب والسنة	د. حسن ضياء الدين عتر
٢٩– حقوق الإنسان وواجباته في القرآن	أ. حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠– المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	أ. محمد عمر القصار
٣١– القرآن كتاب أُحكمت آياته [٢]	أ. أحمد محمد جمال

٣٢-	الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج	د. السيد رزق الطويل
٣٣-	الاعلام في المجتمع الإسلامي	أ. حامد عبد الواحد
٣٤-	الالتزام الديني منهج وسط	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٣٥-	التربية النفسية في المنهج الإسلامي	د. حسن الشرقاوي
٣٦-	الإسلام والعلاقات الدولية	د. محمد الصادق عفيفي
٣٧-	العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨-	معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها	د. محمود محمد بابللي
٣٩-	النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	د. علي محمد نصر
٤٠-	من التراث الاقتصادي [١]	د. رفعت العوضي
٤١-	أسس المفاهيم الاقتصادية في الإسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢-	الأقليات المسلمة في أفريقيا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٣-	الأقليات المسلمة في أوروبا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٤-	الأقليات المسلمة في الأمريكتين والبحر الكاريبي	أ. سيد عبد المجيد بكر
٤٥-	الطريق إلى النصر	أ. محمد عبد الله فودة
٤٦-	الإسلام دعوة الحق	د. السيد رزق الطويل
٤٧-	الإسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨-	دحض مفتريات ضد إعجاز القرآن ولغته	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩-	المجاهدون في فطاني	أ. ضياء شهاب
٥٠-	معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١-	مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية	د. سيد عبد الحميد مرسي
٥٢-	ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربي والماركسي	أ. أنور الجندي
٥٣-	الشورى سلوك والتزام	د. محمود محمد بابللي
٥٤-	الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أ. أسماء عمر فدعق
٥٥-	مدخل إلى تحصين الأمة	د. أحمد محمد الخراط
٥٦-	القرآن كتاب أُحكمت آياته [٣]	أ. أحمد محمد جمال
٥٧-	كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خليف
٥٨-	الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩-	نظرات في قصص القرآن [١]	أ. محمد قطب عبد العال
٦٠-	اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة	د. السيد رزق الطويل
٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	أ. محمد شهاب الدين الندوي
٦٢-	المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان	د. محمد الصادق عفيفي
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	د. رفعت العوضي
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	أ. أحمد سامي عبد الله
٦٦-	أصلح الأديان للإنسانية عقيدة وشريعة	أ. أحمد عبد الغفور عطار

الرقم	العنوان	المؤلف
١٠٢-	أخطار حول الإسلام	السيد هاشم عقيل عزوز
١٠٣-	صلاة الجماعة دراسة فقهية مقارنة	د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤-	المستشرقون والقرآن	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥-	مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية	أ. أنور الجندي
١٠٦-	الاقتصاد الإسلامي هو البديل الصالح	د. شوقي أحمد دنيا
١٠٧-	توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ	د. عبد المجيد أحمد منصور
١٠٨-	في ظلال سيرة الرسول ﷺ	أ. السيد أحمد المخزنجي
١٠٩-	المخدرات مضارها على الدين والدنيا	د. ياسين الخطيب
١١٠-	أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	أ. محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١-	زينة المرأة بين الإباحة والتحريم	د. حياة محمد علي خفاجى
١١٢-	التربية الإسلامية كيف نرغبها لأبنائنا	د. سراج محمد وزان
١١٣-	النموذج العصري للجهاد الإسلامي	أ. عبد رب الرسول سياف
١١٤-	المسلمون حديث ذو شجون	أ. أحمد محمد جمال
١١٥-	المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات	أ. نور الإسلام بن جعفر علي آل فايز
١١٦-	آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم	د. جابر المتولي قميحة
١١٧-	اللباس في الإسلام	أ. أحمد بن محمد المهدي
١١٨-	الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم	أ. ناصر عبد الله العمار
١١٩-	أسس النظام المالي والاقتصادي في القرآن	أ. محمد أبو الليث الخير آبادي
١٢٠-	المستشرقون والقرآن [٢]	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٢١-	الإسلام هو الحل	أ. محمد سويد
١٢٢-	نظرات في قصص القرآن [٣]	أ. محمد قطب عبد العال
١٢٣-	من حصاد الفكر الإسلامي	د. محمد بهي الدين سالم
١٢٤-	خواطر اسلامية	أ. ساري محمد الزهراني
١٢٥-	الإسلام ومكافحة المخدرات	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٢٦-	دروس تربوية نبوية	أ. صالح أبو عراد الشهري
١٢٧-	الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل	د. عبد الحليم عويس
١٢٨-	من سمات الأدب الإسلامي	د. مصطفى عبد الواحد
١٢٩-	خطوات على طريق الدعوة [١]	أ. أحمد محمد جمال
١٣٠-	خطوات على طريق الدعوة [٢]	أ. أحمد محمد جمال
١٣١-	المسجد البابري قضية لا تنسى	أ. عبد الباسط عز الدين
١٣٢-	التدريس في مدرسة النبوة	د. سراج محمد وزان
١٣٣-	الإعلام الإسلامي ووسائل الاتصال الحديثة	أ. ابراهيم اسماعيل
١٣٤-	تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام	د. حسن محمد باجودة
١٣٥-	منهاج الداعية	أ. أحمد أبو زيد
١٣٦-	في جنوب الصين	الشيخ محمد بن ناصر العبودي

١٦٩-	مفاهيم يجب أن تُصحح	أ. بغداد سيدي محمد أمين
١٧٠-	السنة النبوية المطهرة	الشيخ محمد علي الصابوني
١٧١-	نحو مشروع حضاري للإسلام	د. أحمد القديدي
١٧٢-	الإعلام الإسلامي رسالة وهدف	أ. سمير بن جميل راضي
١٧٣-	الشريعة والتشريع	أ. فاطمة السيد علي سباك
١٧٤-	ترجمات معاني القرآن الكريم	د. عبد الله عباس الندوي
١٧٥-	خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام	أ. زيد بن محمد الرماني
١٧٦-	الرحمة المهداة محمد رسول الله ﷺ	د. نزار بن عبد الكريم بن سلطان الحمداني
١٧٧-	المعاهدات الدولية في فقه الإمام محمد الشيباني	أ. عثمان بن جمعة ضميرية
١٧٨-	التكامل وتقسيم العمل الإقليمي بين الأقطار الإسلامية	د. محمد إبراهيم منصور
١٧٩-	شقائق الرجال وحل مسألة المرأة في المنهج الإسلامي	أ. حسني شيخ عثمان
١٨٠-	في غرب الهند	أ. محمد بن ناصر العبودي
١٨١-	في بلاغة الدعاء النبوي	د. عبد الرازق محمد محمود فضل
١٨٢-	الإعلام الغربي والمؤامرة على الإسلام في أفريقيا	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
١٨٣-	منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام	د. حلمي عبد المنعم صابر
١٨٤-	معالم من الفكر التربوي عند علماء المسلمين	أ. د. أحمد محمد الخراط
١٨٥-	أهل الحل والعقد صفاتهم ووظائفهم	د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي
١٨٦-	التربية في عهد الرسول ﷺ نشأتها وتطورها	حامد سالم عايض الحربي
١٨٧-	الزكاة وتنمية المجتمع	السيد أحمد المخزنجي

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة



كتاب شهري محكم يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
يتناول نشر الدراسات والأبحاث التي
تخدم الإسلام في كافة المجالات

قسيمة اشتراك

أرجو قبول اشتراكي في سلسلة (دعوة الحق)

لمدة (..........) ابتداء من ....

الاسم ....

العنوان ....

قيمة الاشتراك ....

طريقة الدفع ☐ شيك ☐ حوالة بنكية ☐ حوالة بريدية

رقم .... التاريخ ....

التوقيع .... التاريخ ....

تملأ هذه القسيمة وترسل مع قيمة الاشتراك إلى العنوان التالي :

إدارة التوزيع والاشتراكات برابطة العالم الإسلامي
ص . ب ٥٣٧ مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

قيمة الاشتراك السنوي ١٠٠ ريال